

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190425

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No

20/892543

Accession No

1231.

Author

جرجی زیدان

1-1-15

Title

فتاویٰ عثمانیہ

This book should be returned on or before the date last marked below

1

فتاى احسبنا

رواية تاريخية غرامية

* نشر حال الاسلام من أول ظهوره *
* الى فتوح العراق والشام مع اسط عوائد العرب *
* في آخر جاماينهم واول اسلامهم ووصف *
* أخلاقهم واز بائهم وسائر احوالهم *



. تأليف

عزجى زيدان

« منشىء الهلال بصر



الجزء الأول

طبعت بمطبعة (الهلال) باول شارع النجالة بمر سنة ١٨٩٧م



نسخة ١٩٦٦

المملوك والشك

✽ الطبعة الثانية ✽

« تأليف جرجي افندي زبدان منشي، الملال »

ان شهرة هذه الرواية تفني عن وصفها فقد رأى حضور مؤلفها من اقبال الادباء على مصالحها ما اضطره الى اعادة طبعها وقد ترجمت الى الروسية والانكليزية وهي رواية تاريخية ادبية تتضمن الحوادث التي وقعت في اوائل القرن التاسع عشر وبها اهم الوقائع التي رافقت حياة المغفور له محمد علي باشا فيدخل في ذلك تفصيل مذبحة المالبك وحرب المورة وفتوح الشام وفتوح السودان كل ذلك على سبيل الحكاية فيستفيد المصالح الحقائق التاريخية وهو لا يشعر بمال ولا ضجر لاندراجها على اسلوب القصة الكامرة عدد صفحاتها مائتا صفحة وفيها رسم الامير بشير وثمن النسخة ثمانية غروش صاغ او فرنيكان واجرة البوسطة غرش ونصف وتطلب من ادارة الملال او مكتبتو بمصر ووكلاء الملال بالجملات ومن ارسل القيمة طوابع بوسطة نطلة الرواية حالاً

الفصل الأول

❖ ملوك غسان ❖

بنو غسان عرب منتصرة كانوا عمالاً لقياصرة الرُّوم في الشام وأصلهم يمينيون من بني قحطان هاجروا اليمن بعد سيل العرم والعرم سدّ كان بجوار مدينة مأرب باليمن يعرف بسد مأرب يهدّم في القرن الأوّل للميلاد وطافت مياهه على ما جاوره من البلاد والقرى فقلّ سبيل الناس الى الاستقاء فنزح أهلها التماساً للرزق ومنهم الغساسنة نزحوا ضواحي الشام بقرب ماء اسمه غسان فسموا اليه ^(١) واعتقلوا الديانة المسيحية وبسببهم مؤرخو الاسلام العرب المنتصرة ويعرفون ايضاً بملوك غسان . واوّل من عرف منهم جفنة عاش في القرن الثاني للميلاد واتصل الملك بعد سسله فحكم منهم نحو ٢٧ ملكاً آخرهم حملة بن الاعمى وفي أيامه ظهر الاسلام وفتحت الشام على عهد الخليفة أبي بكر الصديق واقرض دولتهم كما ستري . ولكن منهم الآن بقية متبعثرة في ضواحي اللقاء والبروك وحصص ^(٢)

ومن العرب المنتصرة ملوك الحيرة ويقال لهم المماذرة (جمع المذرة) أو الملوك الممحيون نسبة الى لحم بن عدي وهم من عرب اليمن رحلوا ايضاً بعد السيل وإقاموا في العراق وكانوا عمالاً للفرس هناك وسببهم الى ملوك الفرس كسمة ملوك غسان الى قياصرة الرُّوم اي ان كلاً من الطرفين كانوا عمالاً لاحدى هاتين الدولتين فالغساسنة كانوا يقيمون في حوران والنداء وما جاورها وكانوا اشبه شيء بالولاة المستقلين تحت رعاية الرومانيين فيمتازون عن ولاية الرُّوم باستقلالهم في حكومتهم الداخلية تحت شروط معلومة فيؤدّون الجزية ويدون الرومانيين بالحد من قبيلتهم عند الحاجة وخصوصاً في حروبهم مع الفرس ^(٣) . اولعاهم كانوا من قبيل أصحاب الاقطاعات والمتعهدين

وكان العالم قبيل الاسلام تنزاعه دولتان عظيمتان الفرس في الشرق والرومان

(١) أبو الفدا ^(٢) حاية الارب في معرفة قبائل العرب (-) تاريخ العرب لوبيل

في الغرب لا يكاد يفتقر النزاع بينهما فيستعين الدرس بالمماذرة ويستعين قياض الروم بالغساسنة فتولد بين تينك القيليتين العربيتين المسيحيتين ضغائن توارثتها الأبناء عن الآباء وكثيراً ما كانت تقوم الحرب بينهما حتى يكاد يبيد أحدهما الآخر

والنزاع بين الفرس والروم قديم وكأنه طبيعي بين المشرق والمغرب فقد كانت الحروب متواصلة قبلاً بين الفرس واليونان ثم بين الفرس والرومان وكانت عاصمة الفرس المدائن بالعراق وعاصمة الرومان القسطنطينية ففضلاً جليلاً متوالية وهم بين حرب وصلح تارة يجردون الجند وطوراً يعقدون الصلح . ففي النصف الثاني من القرن السادس للميلاد كان ملك الفرس كسرى روبري وامراتور الروم موريسيموس (والعرب تسميه موريقي) فثارت في بلاد الفرس ثورة داخلية آلت الى خلع كسرى فالتجأ الى موريسيموس فساعده واعاده الى ملكه وكان ذلك داعياً الى مصالحة وهدنة . وفي سنة ٦٠٢ م قتل موريسيموس هذا قتله فوكاس (فوقا) وتولى هو الملك مكانه وكان على الفرس كسرى روبري المذكور وكان صهر موريسيموس قد تزوج ابنته ماريا فلما سمع بمقتل حميه اعتمر معاهدة الصلح بينهما لاجبة وحمل بجيشه على القسطنطينية متظاهراً بالانتقام من قاتل حميه وهو يصير الاسنيلاء على مملكة الروم فظلمت القسطنطينية أثناء حكم هذا الامبراطور في حصار دائم فلئ الناس حكومتهم فثاروا عليه وارادوا خلعه فاستدعوا هراكليوس (هرقل) ابن والي القيصريان عن الروم فجاء سنة ٦١٠ م بعمارة بحرية ودخل القسطنطينية عبوة وقبل فوقا وتولى مكانه والفرس قد قاموا على الروم قومة واحدة فكان كسرى محاصراً القسطنطينية بنفسه وكان قائد من قواده محاصراً بيت المقدس وآخر محاصراً الاسكندرية والناس يفرّون من وجه الفرس من كل صوب فلم تأت السنة الحامسة من حكم هرقل حتى استولى الفرس على القدس وفي الثامنة (سنة ٦١٨) دخلوا الاسكندرية واستولوا على مصر السفلى فلاقوا من أهل الشام ومصر زحاما وارتياحاً لارتباطهم معهم ومع جندهم اللخبين رابطة الوطن الشرقي والعوائد الشرقية فلبثوا تحت نيرهم عشر سنوات ثم اشتغل الفرس بعصيان بعض ولاياتهم فصعب أمرهم فاغتم هرقل تلك الفرصة وحمل عليهم بجيحه فاخرجهم من الشام ومصر واناد الملكيين الى حوزة الروم ولم يكذب سترميخ هرقل من هذه الحروب حتى جاءه المسلمون في أوائل الهجرة مفتحين وهو لا يزال في سوريا

وحصونه لا تزال منهزمة وجيوشه متبعثة وسائر قواته متضعضة^(١) .
 وكان بنو غسان تحت سيطر الخالي الرؤماني المقيم بدمشق بأمر امبراطور
 المملكة الرومانية الشرقية المقيم في القسطنطينية فتد الاوامر الامبراطورية من
 الامبراطور الى والي دمشق وهو يبلغها الى ملك غسان
 وكان كرسي حكومة الغساسين نارة في عمان باللقاء وطوراً في تدمر واحياءاً
 في الجولان ونارة في بصرى عاصمة حوران في ذلك العهد
 ففي نحو السنة السابعة للهجرة (٦٢٩) كان على الغساسين في الشام ملكان
 في وقت واحد أحدهما الحارث بن ابي تمر والآخر جيلة بن الابهيم^(٢) وكان الحارث
 يقيم في بصرى وفي مكانها الآن قرية صغيرة اسمها اسكي شام أي الشام القديمة^(٣)
 وسأني ذكرها ويجوار بصرى هذه دير بجبراء الذي رل عنه ابوطالب ومعه ابن
 أخيه صاحب الشريعة الاسلامية يوم قدموا الشام للتجارة قبل ظهور الدعوة الاسلامية
 ببضع وعشرين سنة^(٤)

ولما جيلة فهو ابن عم الحارث المشار اليه وكان يقيم باللقاء .

الفصل الثاني

* فتاة غسان *

وكان لجملة هذا اسة بارعة في الجمال مع تغفل ورزاة اسمها هدر بيت منذ
 حدثتها على ظهور الخيل فشبّت مولعة ركبها ونمارة أعظم الفرسان في حلة السباق
 حتي طار صيتها في القائل واصبحت حديث القوم ومصر امتاها قبل ان بلغت
 العشرين من عمرها

وكانت تقيم غالباً في صرح الغدير وهو قصر بديع شاهق ساه تعلية بن عمرو
 أحد ملوك غسان في القرن الرابع للهيلاد^(٥) في اطراف حوران مما يلي اللقاء من

(١) صموئيل تاروب (٢) الأعلالي حرة ١٤ (٣) دائرة المعارف (٤)

ابن الأثير (٥) ياقوت

حجارة ضخمة نيو غرف واسعة تحرق بها الحدايق والبساتين تجري من تحتها الجداول والسواقي معظم ايام السنة

وكان بحوار الفرس هل واسع الارعاء خصوصه لسباق الخيل في موافيت معينة من العام يخرط في سلكه امهر فرسان البلقاء وحوران وقد يقصده اهل البلاد الاخرى وكانت هند تنزل السباق نفسها وكثيرا ما احرزت قصب السبق . وكان ذلك السباق تحت رعاية والدها جبلة فيجتمع على السائقين خلعا يعينها قبل الانروع في السباق من مال قصب السبق احتفالوا بالاساءة الخلعة في مساء يوم السباق احتفالاً بحضر الشعراء ينظمون القصائد في مدح السائق ثم تحمل هند الخلعة بيدها وتلبسها للسابق فاذا جاء يوم السباق تهاضر الفرسان من انحاء الشام وحوران والבלقاء وغيرها يتسابقون الى احرار تلك الجائن

في سنة ٦٢٩ م (سنة ٧ للهجرة) مكّ جبلة الممادين يبنون الناس بسباق ذلك الفصل وهو فصل الربيع وعين له الجائن درعا سليمانية كاملة وامر باعداد حاجيات الاحتفال بحوار صرح الغدير حتي اذا دنا اليوم المعين تهاضر الفرسان الى تلك الساحة زرافات ووجدانا بحولهم وسياسهم وفيهم جماعة كيرة من الامراء الغسانيين وغيرهم بعضهم بالعمامة وبعضهم بالكوفية والعقال وبعضهم بالقلاس تشيها بالروم

وفي صباح يوم الموعد كانت الحبول مصفوفة بجانب السهل صنفوا غير مستظمة والحيام منصوبة لياوي اليها الفرسان أثناء السباق في صدرها خيمة جبلة وهي فسطاط كبير مطن بالحبر الاحمر ارضه مكسوة بالسطر والسجاد وقد علفت تلك الدرع في بعض أعمدته ليراها الفرسان وبشتا قولا الى احرارها

فلما اشرقت الغزالة واعدت الحبول شاعت عين الفرسان نحو القصر في انتظار هند وابيها فاذا بالابواب قد فتحت وخرج جبلة وكان قد جاء من مساء الامس وبات في القصر استعدادا لحضور السباق فلما اُتي الناس بخروجه تأدبوا في موقفهم فرّ بالحديقة ثم فتحت ابوابها فخرج جبلة وحاشيته وعلى رأسه ناچ مرصع تنعكس أشعة الشمس عن جواهره فتبهر الابصار (١) وكان طويل القامة أصهب (اي يخالط بياض

وجهه حمق) ذو سال وعشرون^(١) عليه ازار من الدباج المزركش يغطي اثوابه ويديه ويجر وراءه . قمشي والحكم نقود افراسة وراءه معقودة اذنانها وعليها الفلائد من الذهب والنفضة حتي جاء فسقاطه فجلس في صدره على سرير من خشب العرعر . محلى بالذهب وساقوا خيله الى مرابطها في خيمة خاصة بها ووقف في باب الفسقاط الحاجب وراءه جملة من الجاسية بعضهم يحمل سيف جملة وآخر يحمل قوسه وهم يكذبون على سرير حتي استأذن الشعراء بالدخول عليه فأذن بعضهم فدخلوا والقوا النخبة وترعوا على الساط في أرض الفسقاط فلما رأهم جملة تذكر حسنا^(٢) ثابت وكان يختلف اليه كثيراً ويمدحه فيصليه بالهبات الواقعة^(٣) ولكن حسنا لما اعتنق الاسلام أقام في المدينة وانقطع عن الغساسنة وغيرهم

وبعد هتية خرجت هدت جملة من قصرها تحف بها جواربها وقد يعرف الناس خروجها رائحة طيبها قبل ان يروها فمرت بحديقة القصر حتي خرجت من بابها واعين الفرسان شائعة نحوها واكثرهم اما يأتي الساق ليمتع بطلع منها . فمشت من باب الحديقة مشية تدل على صحة ورزاقه وكانت ممشوقة القوام ممثلة الجسم مستديرة الوجه قعيبة اللون مشربة بالحمرة سوداء العينين مع كحل طبيعي لا يكاد يصدق الناظر اليها الا انها مكحلة بالاثمد وكان شعرها اسود مصفورا قد أرسلت ضفائر خصله واحدة على ظهرها وفي اطراف الصفائر قطع من النقود الذهبية أو الخبي وفي أذنيها قرطان في كل منها لؤلؤة كبيرة وجعلت على رأسها تاجا صغيرا مرصعا وضعت ماثلًا نحو اليهين . وفي عنقها عقد من المرجان وفي أحد معصمها دملج من الذهب عريض مرصع بالياقوت وفي اصابعها الخواتم من العقيق والزورد وقد أرخت من كنفها رداء حريرا مخططا باللون بدبعة يغطيها الى الرسع فلا يظهر من اثوابها الا اسفل الحذاء . فتخلف بعض جواربها في الحديقة ورافقتها استبان منبر الى الفسقاط وعيون الناس شاخصة اليها عن بعد وهي تنظر اليهم نظرف عيها حينا وروعة حتي دخلت الفسقاط فترحب بها والدها واجلسها الى جاسو وكان كثير الولوج بها حتي تسلطت على عقله ورأيه وكثيرا ما كان يستشيرها في اموره ثم وقف الاتاع والخدم خارج الفسقاط ومعهم خادمتهاها وكان مقعد جملة وهد هناك بحيث يشرفان

على ساحة السباق ويريان المنسافين في أوّل الشوط
ثم سمعن جلبة وقيل ان ثعلبة بن الحارث بن أبي شمر صاحب بصرى قد جاء
بحاشيته فلما سمعت همد قدومو غلب عليها الانقراض حتى كاد يظهر على وجهها .
أما جلبة فنهض عن سريعه الى باب الفسطاط لاستقبال ثعلبة وكان ثعلبة شاباً
قصير القامة خفيف العضل نحيف الوجه كبير العينين والأذنين ليس عليه من مهابة
الملوك إلا ملاسة الفاخرة فقد كان لاساً طيلساناً من الحرير مزركشاً يجير وراءه على
عادة الرومان وسيفه أعنف مرصع بتدلى من حمائله الى يساره وقد اوقف طرفي
شاربيه افنة وكراً واعتدداً بمنصب والد

وكان الغسانيون يخذلون يهد وثعلبة ويرغمون انها لا تد من تزوجها نظراً
لما بينهما من السمة والسب ولكن ذلك لم يخرج الى حيز الوجود ولا تخاطب الوالدان
بشأنه على ان ثعلبة كان كثير الاعتداد بنفسه وربما حدثه خيالاته ان يترفع عن
همد لو خوطب بشأنها . أما هي فكانت خالية الذهن من أمر الزواج ولكنها
كانت تستكف من اخلاق ابن عمها ولا تبيل اليه ولولا رابطة القرابة ما خاطبته ولا
جالسته مطلقاً

فلما وصل ثعلبة استقبله جلبة وعانقه ورحب به وادخله الفسطاط واجلسه على
سرير بجانب سريعه واخذ يسأله عن والدك وسبب تحلقه عن ذلك السباق فاعذره
انه في شاغل خصوصي حال بينه وبين ما يريد وكان جلبة انما يكرم ثعلبة اكراماً
لمنزلة والدك ومراعاة لآداب الملوك فيما بينهم
أما همد فسلمت على ثعلبة سلاماً اعتيادياً وجلست تشاغل بالتفرج بمنظر ذلك
السهل الواسع وما يتراءى وراءه من الجبال وتظاھر انها مهتمة بمنظر الخيول
المتراحة هناك

أما ثعلبة فكان يخاطب عمه وعياله على همد لا لحبها بل لرغبة في اعجابها وهي
كلما التمس اعجابها زادته ازدراء فلما اتم حديثه مع عمه تحول نحوها فسأها عن عزمها
هذه المرة على النزول في ساحة السباق فاجابت وهي تنظر الى الميدان انها لا تنوي
النزول الآن ولكنها ربما زلت اذا رأت ما يشوق الى ذلك
فلما اقترب الصبح خرج بعض امراء جلبة واخذوا يهيئون معدات السباق

ويرتدونها فنصوب حبلًا يقف الفرسان عند اذا عزموا على السباق فيكونون صفاً واحداً على استواء واحد ثم تناول اقدم قصة طويلة اعدت لذلك اليوم وسار بها الى آخر الساحة فصفاً هناك فمن سبق اقبلها واخذها ليعلم الحاضرون انه السابق من غير نزاع فيقال لمن اقبل تلك القصة انه احرز قصب السبق^(١)

الفصل الثالث

* السباق *

فلما تمت المعدات على هذه الصورة يودي في الناس ان ينهيا ولم للسباق فركبوا جميعاً وجاؤوا واحداً واحداً يلفون النخبة على ملكهم جلة فاذا وصل اقدم امام المسطاط ترجل ودخل فقبل بد جيلة ويد ثعلبة وخرج وكانت هدا أثناء ذلك تنظر في وجوه الداخلين كأنها تنوقع رؤية فارس تعرفه وكانت تفعل ذلك وتحاذر أن يشعر بها أحد فوقع نظرها على اقدم وكان أحسنهم وجهاً في نحو العشرين من عمره يظهر من لباسه وملائحه وجهه انه ليس من بني غسان وكان ربع القامة أسود العينين حادها لا يساغب عرياً وعلى رأسه كوفية من الحرير الممرکش شد فوقها العقال فلما رأته ظهرت عليها البغنة وعلا وجهها بعض الاحمرار ولكنها تجاهلت ونشألت ببعض الشؤن فتقدم الشاب الى جيلة فقبل يد وخرج ولم ينهه الى ثعلبة اما سهواً او عمدًا ومعظم ذلك على ثعلبة ونظر الى هند فاذا هي تشيع ذلك الشاب بنظرها حتى خرج من المسطاط فاستيقظت عوامل الغيرة في قلبه ولا داعي لتلك الغيرة غير ما فطر عليه من الحسد والكبرياء لكنه لم يبه بكلمة

ثم مر باقي الفرسان حتى تكامل عددهم وركبوا خيولهم واصطفوا الى الحبل فلم تكن تسمع الا فرقة اللجم وصهيل الحبل واصوات حوامرها تنخص بها الامراض كأنها تلخ في طلب السباق ليطلق ذا العنان فغري في ذلك السهل الواسع الارجاع وفيها ادم والاشقر والحجل والمجنّب والمحبب واليعبوب والكعبت وغير ذلك من أصناف الحبل

وفيا كان الفرسان ينهباً ون للسباق كان -ملة وهند وثعلبة يتداولون في من عسى ان يكون الساقى في ذلك اليوم فقال جبلة ما ظنك ان يكون الساقى من هؤلاء الفرسان اليوم فيعوز بهنك الدرع فلم يحب ثعلبة بشيء ولكنك اعندل في مجلسه واخذ يلاعب شاريه ولسان حاله يقول اما هو الساقى ولا أحد سواي وكان كثيراً ما يجرز قصب السقى في مثل هذا السباق ولكنك قلما أحرزه عن استخفاف لان المتساقين اذا عرفوه وعرفوا منزلته من جبلة تساهلوا في الجري معه فيستفهم ويظن انه اما سبق لمهارته وسرعة فرسه . فلما لم يحب ثعلبة قال جبلة ما ظنك راكب ذلك الجواد المجل اني اراه يكاد يطير عن ظهره وهو الذي نال الجائزة في السباق الماضي فتحق قلب هند عند ذكره أنها ثعلبة مهر رأسه مستهزئاً وقال هذا غلام غر يدعي الروسية وهي راء منه ولولا الصدفة العمياء ما استطاع يبل تلك الجائن ولو كنت في مقام ملك اللقاء (يريد جبلة) وكان هذا السباق تحت رعايتي ما اذت بأن يكون بين فرسانه غريب لا يعرف اصله ولا يليق بها ان تدخله فسطاط الملك وابنته جالسة لأنه لا يعرف مقام الملوك . فادركت هند ان كلام ثعلبة صادر عن غيرة لأنه لا يطيق ان يمدح أحد في مجلسه

أما جبلة فأتخذ كلامه .أخذ التوخي ولكنك حملة مخيل الاجلال لمقام مع ما تفضيه حنة الشاب وقلة اخنارهم فاجابه بلطف « وما يبع ان يكون غريباً ويدخل علينا ونحن سو غسان يصرب المثل بحسن وفادتنا وأكرامنا للغريب » فحجل ثعلبة وسكت فاستأنف جبلة الحديث قائلاً ولكنك مع ذلك استغرب امر هذا الشاب اسكناه بينا مسكن العرباء وكثيراً ما شاهدته وقد خرج للصيد ومعه حاشية كأنه من اساء الامراء فمن اي القائل يمكن ان يكون على اني اراه مبالغاً في اخفاء امره وقد سألت عنه بعض امرائنا غير مرة فلم ينبئوني بشيء عن اصله ولا يعلم أحد ما مقامه بينا ولكني سمعتهم ينادونه حماداً

فظن ثعلبة ذلك حجة للفوز في جداله فقال وهذا ما يحق في عيني با عماء فانه لا يبعد ان يكون جاسوساً مرسلأ من ملوك الحيرة فهم ما انكول يباوتونا ويريدون ما شراً وخصوصاً بعد أن الملم وبال الفرس من حملات جودنا وجود الروم هذين العامين

فأغضى جبلة عن الجواب ثم جاءه مخبراً ان الخيول معدة فكيف يري المالك أن يكون سباقها . قال ينقسم الحيالة خمساً يتسابق كل خمسة منهم في شوط على حدة من سبق أفراداً جاساً حتى لا يبقى أحد لم يجر في حانة السباق ثم يتسابق السائقون جميعاً فمن احرز قصب السبق منهم فهو صاحب الجائزة . فعاد المحر وأبلغ الامراء الموسط بهم أمر السباق وترتبوا فقسموا الحيالة خمساً فجزت أول خمسة منهم حتى توارت عن النظر لأن مجال السباق يزيد على المليون فعاد واحد منهم يحمل القصة فتناولها رجل خفيف العصل سريع الحيل أخذ يشر ذلك فاسرع بها وغرسها مكانها واجلسوا السائق الى جانب وهذا كل خمسة على حدة

أما هند فكالت عيناها شائعين نحو حماد فلما جاء دوره تعنته ببصرها حتى توارى ورفاقه ولبت تنظر عودتهم فعادوا والنصة في قصته فافرد مع السابقين . فقال جبلة لثعلبة أرى الرجل قد سبق فاجاب والحسد ملء صدره أبعد من يسبق هؤلاء الخمسة سابقاً بل لرى سباقاً مع السابقين . فالتفتت هند وقالت برزانه وهدق كمن لا يهتد سى حماد اولم يسبق « وما يبع ان يكون سابقاً لهم جميعاً كيف تحكم عليهم ونحن لا نعلم شيئاً من ضعفه او قوته . نعم يسوءنا ان يكون السابق غريباً ولكن ما الحيالة اذا سبق أغفل هذا العار على بني غسان »

فكان لكلام هند وقع السهام على قلب ثعلبة وانفدت الغيرة في صدره فتبسم كأنه يستخف بقولها وقال « لا يكون له مسابق سواي ولا علمته الروسية من هذا اليوم » قال ذلك وملأخ الغدر وسوء الفصد ظمرة على وجهه فخافت ان يكون قد سوى بالرجل سوءاً فلا يزدد دفاعها إلا غصصاً وحفناً فسكنت

وعند الظهيرة او نحوها انقضت الاشواط الصغيرة فاجتمع عشرون سابقاً فامر جبلة بالاستراحة لتناول الطعام وعلف الخيل

وكانوا قد أعدوا الاسطة في صرح الغدير وذبحوا الذنايح فجاءت الاخوة يحملها الرجال الى الخيم على كل خوان منها جفثات وفيها الالوان العربية والرومية وبعض الحمور

وأمر جبلة ان يجلس الفرسان السابقون معه على خوانه وكان خوانه من ذهب

خالص وجفائته من فضة^(١) فحاوروا ومعهم حماد فلما وقع نظر ثعلبة عليه جعل يتأمله بعين النقد وحماد لا يلتفت اليه فجدوا على الاستطحة حول السباط ركباً على ركة واحدة واخذوا في الاكل واراد جملة أن يف في خدمتهم على عادة كرام العرب مع ضيوفهم فاستخلفوه ان لا يفعل او يكتفى عن الطعام فاطاع وجلس معهم والى يمينه ابنته هند والى يساره ابن عمه ثعلبة ولما انقضى الطعام وتناولوا الخلوى وبعض الخمر تلا بعض الشعراء قصيدة ذكر فيها كرم الغسانيين وحسن ضيافتهم فاطرق جملة نخيلاً لأنه يستكف من ان يسبح مدحه مأذون فلما رأى الشعراء منه ذلك نهض أحدهم وقال لها بالغنا في مدح ملوك غسان لن تأتي بشيء مما قاله فيهم حسان بن ثابت الفاعل

لله در عصاة نادتهم * يوماً يحلق في الزمان الأول
أولاد جنة عدد قبر أبيهم * قبر ابن مارية الكريم المفضل
بيض الوجه كريمة احسانهم * شمس الانوف من الطراز الأول
يسقون من ورد البريص عليهم * كاشاً يصفى بالرحيل السلسل
يغشون حتى ما نهر كلابهم * لا يسألون عن السواد المنقل

فأمر جملة حاجه فاعطى كل شاعر صرة فيها مائتا دينار وخمسة أقبصة^(٢) وكادت الشمس قد دنت من الاصيل والحبل استراحت واستراح فرسانها فودى في الناس ان هباً الى السباق وكان حديث اليوم " من يا ترى سيال قصب السبق من هؤلاء العشرين " وكان حماد أقبلهم كلاماً وكثيرهم تأملاً كأن في نفسه شيئاً يكتفه وقضت هند ساعة الغداء وما بعدها تتأمل وجهه خلصة فأست فبوجهاً وكالاً ورزاة وصعة وكان ثعلبة يراقب حركاتها وبطراتها ويظهر الى حماد نظر الازدراء وكان حديثه قاصراً على الاطباء بما فعله والد أو ما مر به هو من غرائب الوقائع كقولوه مثلاً انه ذهب لصيد فلقبه أسد فلم يهر منه بل هجم عليه وضربه فقتله او ما شاكل ذلك من الاحاديث الملققة وكان الحضور يصغون الى حديثه ويؤمنون اقواله اجلاً لمقام والد واكثرهم لا يصدقونه وهو يسرد الحكاية ويظهر الى هند يلتمس اعجابها او استغرابها وهي لا تكثرث . أما حماد فلم يكن يظهر أكثرنا

و ولا اشتأها له لأنه كان حراً لا يطابق التلبيق

فلما بودي في العود الى السباق حرح الفرسان العثرون فقال جيلة أرى ان
يقسموا الى اربعة اقسام فيسابق كل خمسة منهم في شوط فمن سبق افرد ثم يتسابق
السابقون وهم اربعة صرع سبق فئة الجاهل فتسابقوا حمات فافرد اربعة وحماد منهم
كل ذلك وتعلمه لم يركب فرسه ولا نزل للسباق اسنة واستكباراً وهو برجوان
لا يكون حماد من السابقين فلما رآه منهم اوحس خيبة ولو علم انه سيسبق ما عرض
نفسه لمسابقته ولكنه كان لا يزال آملاً ان يسبقه مسابقوه فيجوهو من خطر الفشل
ثم اصطف الاربعة باراء الخيل ووقف الناس على جاي الميدان ينتظرون
نهاية هذا الشوط فاعتدل الفرسان على صهوة افراسهم ووقف حملة وهد وتعلمه
ساب الخيمة ينظرون اليهم وقلوبهم تحرق في انتظار عاقبة ذلك السباق فاطلق
الفرسان امة خيولهم والناس يتبعونهم بانظارهم وكان جواد حماد متأخراً عنهم فسرَّ
تعلته بتأخر ظاناً انه سيفشل ولكن هذا علمت ان تأخره لم يكن الا ضرباً من
الفرسية فلما توارى عن انظارهم وقبوا ينظرون رجوعهم فاذا بحماد قد عاد يحمل
الفصه حتى اذا دنا من خيمة حملة سلمها الى همد فصاح الناس صيحة التبشير بالتسابق
فتناولت همد الفصه وترجل حماد وقبل حواده بين عينيهِ وكان عد باب الخيمة
رجل يحمل وعاء فيه صبغ احمر من دم الصيد ليحصب به صدر الفرس اشارة الى
سبقه^(١) فلما تقدم ليصبغه اعترضه تعلية وقال تهل ان السباق لم يتم بعد فحجب حماد
وظهرت على وجهه ملامح الاستعراب فقال جيلة قد وعدنا ان عمنا تعلية ان يبارل
السابق فلم يحجب حماد بل عاد الى صهوة فرسه ووقف ينتظر تعلية فجيء اليه بفرسه
وكان من احاسن الخيل عليه فلادة من الذهب الخالص وسرّج مرصع بالحجارة الكريمة
فركب وهو بكاد يميز غيضاً وكانت همد في أثناء تلك البرقة فرحة بنور حماد فشق
عليها منازلة ان عمها له ولكنها علمت نفسها بمثل الماعى وهي ترداد تعجباً بما تشاهده
من حقد تعلية على حماد وليس بينهما ما يستدعي ذلك ولكن كبير الهنس لا يستطيع
نصور هذه الدنيا - ثم أمر جيلة فبودي في الناس ان السباق الآن بين حماد والامير
تعلية بن الحارث فوقفوا ينتظرون نهاية هذا الشوط وكان بعض الدين فاز حماد

عليهم بودون ان يكون ثعلبة السابق وبعضهم يثمنون السبق لحماذ ليكون لهم اسوة
بابن الحارث صاحب بصرى

فسار الفرسان في عرض ذلك السهل وقلب هند يخفق لعلمها ان فرس حماد قد
تعب وفرس ثعلبة لا يزال نشيطاً فلم يرض الفليل حتى عاد حماد وفي يد القصة
ووراءه ثعلبة قد ساق جواده الى السطاط واندرعته قائلاً انه لم يسبني هو بل
فرسه فانه من خيل الجن او هو من صلب داحس فرس فيس بن زهير ولوركتبته انا
ما استطاع أحد سبني فسمعه حماد يقول ذلك فنزل عن فرسه وقال له اليك فرسي
فاركبه واعطني فرسك وكانت هند تنظر اليها فخافت ان تعود العائنة على حماد وقد
شعرت ان حبة تمكن من قلبها في تلك الساعات الفليلة ما لا يكاد يتأتى باعوام

أما ثعلبة فقال ما فالة انخالا لعذر يغطي به خجله وهو لا يظن حماداً يعطيه فرسه
فلما نجي له عده لم يرمندوحة عن الركوب فركما وتزلا الى ساحة السباق حتى توارى عن
الابصار فلبث الناس ينتظرون عودتها وكان على رؤوسهم الطير وكانت الشمس
قد مالَت نحو المغرب فارسلت بقية اشعها الارجوانية على تلك السهول وما وراءها
من الجبال والادوية وقد هدأت الطبيعة وسكن جاش النهار

فلما ابطأ الفارسان شاعت ابصار الناس نحو حلة السباق ومثلوا الانتظار حتى
هم بعضهم بأن يلحق بها ليرى سبب ذلك التأخر وكثير الهرج والمرج وكان اكثر
الناس قلقاً هند فقد شاعت عينها وخافت غدر ثعلبة ثم ما لبثت ان شاهدت الغبار
وبان من ورائه فارسان هما حماد وثعلبة والقصة في يد حماد فما صدقت ان رأته
وقد كاد قلبها يطير من الفرح أما اسوها فشقي عليه ان يكون السابق رجلاً غريباً
يفوز عليهم جميعاً ولكنه ترحب وفترجل الفارسان وزلا الى الخيمة فاراد حماد ان
يعتذر عن ثعلبة فقال « والله اني لم اسبق الامير ثعلبة الا بقضاء وقدر لانه فارس
ميرز يبحي لغسان الافتخار به ولو تعود ركوب فرسي قبل الآن لسبني » فلم يجب ثعلبة
ببنت شفة ثم ناول حماد القصة الى هند فرائها قصيرة فتأملتها فاذا هي مقطوعة بنصال
براهم بري القلم فارادت السؤال عن سبب ذلك فنظر حماد اليها نظره خفية كأنه
يقول لها لا تغلي فسكتت وفي نفسها ان تعرف سبب برهها .

ثم تقدم حامل الصبح الاحمر فحضب به صدر فرس حماد وكان الظلام قد سدل

عليهم يودون ان يكون ثعلبة السابق وبعضهم يثمنون السبق لحماذ ليكون لهم اسوة
بابن الحارث صاحب بصرى

فسار الفرسان في عرض ذلك السهل وقلب هند يخفق لعلمها ان فرس حماد قد
تعب وفرس ثعلبة لا يزال نشيطاً فلم يمس الفليل حتى عاد حماد وفي يد القصة
ووراءه ثعلبة قد ساق جواده الى الفسطاط واندرعته قائلاً انه لم يسبقني هو بل
فرسه فانه من خيل الجن او هو من صلب داحس فرس قيس بن زهير ولوركبته انا
ما استطاع احد سبقي فسمعه حماد يقول ذلك فنزل عن فرسه وقال له اليك فرسي
فاركبه واعطني فرسك وكانت هند تنظر اليها فحافت ان تعود العائنة على حماد وقد
شعرت ان حبة تمكن من قلبها في تلك الساعات الفليلة ما لا يكاد يتأتى باعوام
أما ثعلبة فقال ما قاله انخلاً لعذر يغطي به خجله وهو لا يظن حماداً يعطيه فرسه
فلما نجي له عه لم ير مندوحة عن الركوب فركبا وتزلا الى ساحة السباق حتى توارى عن
الابصار فلبث الناس ينتظرون عودتها وكأن على رؤوسهم الطير وكانت الشمس
قد مالَتْ نحو المغرب فارسلت بقية اشعتها الارجوانية على تلك السهول وما وراءها
من الجبال والادوية وقد هدأت الطبيعة وسكن جاش النهار

فلما ابطأ الفارسان شاعت ابصار الناس نحو حلبة السباق وملأوا الانتظار حتى
هم بعضهم بأن يلحق بها ليرى سبب ذلك التأخر وكثير الهرج والمرج وكان اكثر
الناس قلقاً هند فقد شاعت عيناها وخافت غدر ثعلبة ثم ما لبثت ان شاهدت الغبار
وبان من ورائه فارسان هما حماد وثعلبة والقصة في يد حماد فما صدقت ان رأته
وقد كاد قلبها يطير من الفرح أما اوها فشق عليه ان يكون السابق رجلاً غريباً
يفوز عليهم جميعاً ولكنه ترحب وفتح رجل الفارسان وزلا الى الخيمة فاراد حماد ان
يعتذر عن ثعلبة فقال « والله اني لم اسبق الامير ثعلبة الا بقضاء وقدر لانه فارس
ميرزيجي لفسان الافتخار به ولو تعود ركوب فرسي قبل الآن لسبقني » فلم يحب ثعلبة
بينت شفة ثم ناول حماد القصة الى هند فقرأتها قصيرة فتأملتها فاذا هي مقطوعة بنصال
يراهما بري القلم فارادت السؤال عن سبب ذلك فنظر حماد اليها نظره خفية كأنه
يقول لها لا تغلي فسكنت وفي نفسها ان تعرف سبب بريها

ثم تقدم حامل الصبح الاحمر فحضب به صدر فرس حماد وكان الظلام قد سدل

ولكنني اعجب لتستره وقد فاني ان اسأله عن امه على انني سأرسل اليه واسأله في
فرصة اخرى

فقال ثعلبة لا بد من البحث عنه لئلا يكون جاسوساً او عيناً علينا من قبل اللخبين
ملوك الحيرة وكأني ارى في لهجو ما يدل على ذلك

قال جبلة ولكن ملك العراق قد خرج من ايدي اللخبين لما علمت من مقتل
النعمان بن المنذر وولاية اباس بن قبيصة من قبيلة طي وزد على ذلك ان هذا الشاب
لا يظهر في هيتنو وشكله ما يدل على جاسوسيته فهو اقرب الى اولاد الامراء منه الى
السوقه فاذا كان من اهل الحيرة فهو من امرائهم لان الهيبة ظاهرة على وجهه فشق
ذلك المدح على ثعلبة فعمد الى الروغان فقال وهل يؤخذ الناس بمظاهرم فكم من
رجل نظمه ملاكاً فاذا خبرته ظهرت لك عيوبه فيجئ من اسافل السوق فارى ان
نحوه على الاقرار بحقيقة حاله قسراً فاذا كان من اهل الحيرة اخرجناه الى بلاده
واذا كنت تستنكف من اخراجه فوالذي يخرججه لانه منيم بقرب بصرى
، قال سنظر في ذلك غداً فلا نخرم وسيلة نستريح بها وقضيا بقية تلك الليلة
بالاحاديث المتنوعة ثم ذهب كل منها الى مناه في غرفة خاصة بالقصر



الفصل الرابع

* هند في غرفتها *

أما هند فدخلت القصر فلافقتها والدتها وكانت شديكة الودع بها لانها رزقت
اولاداً كثيرين لم تهناً منهم بسواها فقبالتها وضعدت بها الى طابق علوي ودخلت
بها الغرفة وامرت الخدم فاعدوا لها الفراش ثم جاءتها الماشطة بثياب النوم فتزعت
حليها والبستها جلباباً واسعاً من الحرير الناعم الشفاف ثم حلت خصلة شعرها وتزعت
ما في ضفائرها وعلى صدرها وفي اذنيها ومعصمها من الحلي واستخرجت خلاخلها واعدت
لها السرير وهو من خشب الارز في اجمل ما صنع الصانعون عليه الوسائد الحريرية
الملونة غطاؤها من ابداع انواع النسيج صنع القسطنطينية وكان في الغرفة مشعة فيها

بضع عشرة شمعة نفوح منها رائحة العنبر فقد كان من ضروب البذخ عندهم ان يرحلوا الشمع بشيء من الاطياب فاذا انهر نصاعدت عند احراقه رائحة الطيب وكان في جدران الغرفة صوراً جميلة اكثرها من رسوم القديسين صنع بيت المقدس كصورة ولادة المسيح وصلبه وصعوده وكلها متفحة التصوير ملونة بالوان طبيعية وفي بعض جدران الغرفة مرآة هي عبارة عن صفيحة مستديرة من الفضة مصفولة صناعاً خصوصياً حتى صارت كالزجاج تعكس النور وتري الاشباح كمرآة هذه الايام لان الناس لم يكونوا يعرفون المرأة الزجاجية بعد

فبعد ان است هند جلبابها وقفت امام المرأة فاصلمت شعرها وثوبها وذهبت الى السرير فجلست عليه وهي الى تلك الساعة لم تبس ببنت شفة وكانت والدتها قد دخلت الغرفة جالسة على وسادة تتأمل بحمال ابنتها وقوامها وبها وهبتها العناية من الصحة والعقل وفي نفسها شيء تنتظر فرصة لنفوح به وكانت هند اثناء تبديلها ثيابها غارقة في بحار الافكار تراجع ما مرّ بها في ذلك النهار من الغرائب وكلما تذكرت حماداً وسيفه للعلبة وما اظهره هذا من الحسد وما ادعاه من اللوسية وكهف انه عاد فشلاً ازدادت احتقاراً له وتقوراً منه وحباً لحمد ولكنها كانت مع ذلك شديدة المحرص على منزلة والدها وشرف قبيلتها وخافت ان يتعاق قلبها بحمد ثم تجد انه من اصل ديني فيحول ذلك دون ارضاء والدها وسائر اهله فتتبع في الشقاء وكانت كلما نصورت ذلك افسعّر جسمها فتعمل نفسها بان من كان في مثل هذه الشهامة وهذه الاخلاق مع ما يتجلى في وجهه من الهيبة والوقار لا يمكن ان يكون ديني الاصل ثم تعدّ نفسها بكشف حقيقة حاله عند ما يلتقيان في دهر بحيراء

وكانت والدتها واسمها سعدى في الخامسة والاربعين من عمرها لا يزال الجمال ظاهراً في وجهها فقد كانت من اجل بنات غسان وكثيراً ما تغزل بها شعراؤها ولما تزوجها جيلة حسد كل اهل عشيرته عليها

ثم جلست هند الى السرير بجلبابها وقد اרכת شعرها وحسرت عن زنديها وكانا مستدبرين ممتلئين مشرقين يزينهما الوشم على اليمين منها صورة الصليب وعليه السيد المسيح مصلوباً وعلى اليسار صورة مريم العذراء تحبل طفلها ولوراها حماد في تلك الحال لنطق بقول الشاعر

نالت على يدها ما لم تنله يدي * نقشاً على معصم اوهت به جلدي
 كأنه طرق نمل في اناملها * او روضة رصعتها السحب بالبرد
 خافت على يدها من نيل مقلتها * فألبست زندها درعاً من الرد
 فانكأت الى وسادة من ريش العام أهدتها اياها امرأة الى دمشق وألقت
 رأسها على كفها التماساً للراحة وقد ضايقها الجلوس معتدلة بين الرجال طول ذلك
 النهار فلثت صامتة لا تتكلم وافكارها نائمة فتذكرت القصة التي سلمها اليها حماد عند سبقه
 الاخير وكيف انها مبرية مع ما لحظت على وجهه نعلته من دلائل السوء والحقد فارتابت
 في امره وودت السؤال عن سبب ذلك فتمتها حماد كما تقدم

ثم ابتدأت والدتها بالحديث قائلة لماذا لم تنزلي اليوم للسباق يا هند
 قالت لم أر مسوغاً لان الفرسان كانوا كثيرين وطال الجدل بين المتسابقين
 حتى غابت الشمس فلم يبق وقت لركوبي
 قالت وما الذي دعا الى هذا الجدل

قالت بعد ان تم السباق اراد ثعلبة مسابقة السابق فعاد فشلاً فزادنا خجلاً
 فتسمت سعدى تسمياً خنياً وقالت رأيت الفرسان عديدين فمن نال قصب السبق
 منهم . قالت وقد ابرقت أسرتها رغماً عنها ناله شاب غريب اسمه حماد لا يعرف
 احد حسبه فشق ذلك على والذي واسن عمي اذ لا يليق ان يكون السباق في
 حمانا وينوز بنصب السبق غريب

قالت ومن هما الفرسان اللذان تسابقا آخر النهار

قالت هما ابن عمي ثعلبة وحماد

قالت رأيتهما عاداً مرتين

قالت تسابقا أولاً فسبق حماد فانكر ثعلبة ذلك على نفسه ونسب السبق الى
 الفرس فتنازل له حماد عن فرسه وركب هو فرس ثعلبة وباليهنا بقينا على العار الاول
 لأن ثعلبة عاد مخزولاً هذه المرة ايضاً وما استغريته ان حماداً جاء بالقصة مبتورة
 كأنها ضربت بسيف

فضحكت سعدى وقالت ألم يخبركم بسبب بربرها . قالت لا وكنت عازمة على البحث
 عن سبب ذلك فرأيت حماداً لا يريد فكفنت

فقال بورك فيه أنه بالحقيقة شهيم كريم الاخلاق ولا ريب عندي في أنه رفيع النسب

فطربت هند لامتناع والدتها حماداً وقالت ما معنى ذلك يا أمّاه هل تعلمين من أمرهن القصبة شيباً

فهمست في أذنها قائلة نعم اعلم يا هند ان تلك القصبة قد قطعت بسيف ابن عمك ثعلبة . فبغنت هند واشتافت الى معرفة تفصيل الخبر فاعدت على سرورها وقالت كيف وقع ذلك

قالت ان ابن عمك كان عازماً على الفتك بذلك الشاب سامحه الله والله لو فعل ذلك لالبسنا عاراً لا نحمي الايام

فازدادت هند استغراباً وقالت لها وما ادراك بذلك يا أمّاه

قانت رأيتها رأي العين

فقال وكيف تيسر لك رؤيتها ونحن أقرب اليها منك ولم نرها

قالت تملي لأقص عليك الواقع فاصغت هند بكل جوارحها فنهضت سعدى الى الباب فاغلقت وجلست نقص الخبر وتحاذران يسمها احد فقالت : لما خرجنم جميعاً الى الحياض وخرج أكثر من في القصر اليكم فبيت انا وسلمية المولدة وبعض الخدم وكنا نرى المتسابقين يبدأون بالشوط ولكننا لا نرى آخر فخرجنا وفي نفسي ان ارى حلبة السباق وكيف يقتلع الهامق القصبة فانه مظهر فرح القلب اذ ليس أئذ من النصر .

فخرجنا من بعض ابواب الحديقة الى البساتين المجاورة ومررنا بصفة الغدير لا يرانا أحد حتى وصلنا الى مكان تحت شجرة اشرفنا منه على حلبة السباق ونحن على مرمى حجر منها نرى ولا نرى فلما كان السباق الاخير شاهدت ابن عمك متأخراً عن حماد لا يحجز فرسه لأننا رأينا الفرس يستحث فارسه ليطلق له العنان وهو يمسكه كأنه خاف الوقوع غن ظهره ولولا ذلك لكان هو السابق والسبق في الميدان للافراس اذا احسن فرسانها ركوبها واستطاعوا الثبات على ظهورها فخوف ثعلبة الوقوع عن فرس حماد أكثر عاراً عليه من تأخر عنه أما حماد فاطلق لفرسه العنان وكان يستقبل عرض الثلاثة كما تستقبل الام رضيعها حتى وصل الى القصبة وفيما هو يقتلها رأينا ثعلبة

هاجماً عليه وقد شهِر سيفه وهم يقتلوه فاستلقى حماد السيف بالقصة فقطعت ثم رأينا حماداً اقتلع ثعلبه من صهوة جواده ورمى به الأرض وجثا على صدره فحنّنا ان يقتله ثم سمعنا ثعلبه يستجير به ويستعطفه فنهض عنه ونصافحاً ونعانفاً وعادا

فما امنت سعدى حديثها حتى اخنلج قلب هند اعجاباً بشهادة حماد وازدادت احقاراً للثعلبة وقالت لوالدتها اهذا هو ثعلبة بن الحارث ايلق بغسان ان يكون ابن ملكها خسيساً الى هذا الحد أيلق به ان يغدر بشاب في ريعان الشباب ولا ذنب له الا انه افرس منه وزد على ذلك انه نزل في بلادنا وله علينا حق الجوار

فرأت والدتها في كلامها حقاً ولكنها لم تنشأ ان تمكن الغض في قلبها وحسبت بنفسها ان حساب من جملتها ان ثعلبة ارفع بني غسان مقاماً وليس اقرب منه للزواج بهند ولعل جيلة يرغب في ذلك فاذا نفرت منه كانت نفورها سبباً لتنقيص عيش ابنتها فقالت لها لا بد لنا من تأنيبه ولومو حتى يرجع الى الاخلق به ومن كان في مقامه ونسبه

فسكنت هند لا عن اقتناع ولكنها صبرت نفسها لترى ما يكون من امر حماد غداً وهي تعلم ان ذهابها الى الدبر قد لا يتيسر بغير والدتها فلا يخلو ان تلحظ امر اجتماعها بحماد فاذا تقول لها لوسألتها عنه وتعلم ايضاً ان والدتها حادة الذهن سريعة الخاطر دقيقة الملاحظة فكرت في الامر قليلاً فرأت ان لا بد لها من استطلاع والدتها والاستعانة بها على نيل حماد وقد ارتاحت الى هذا الرأي لما عاينت من انصاف والدتها وامتداحها شهامته ولكنها ودّت قبل كل شيء ان تجتمع به على انفراد لتطلع منه على حقيقة حاله وتستطلع افكاره ثم تطلع والدتها على الامر بالاسلوب الذي تخاره

فقالت لها مضت عليّ مدة طويلة يا أمّاه وقد نذرت نذرّاً لدبر مجبراه لم افو بعد وبلوح لي ان ما رأيت في هذا النهار من السوء انما كان لنا خرناء عن وفاء النذر قالت لهله ذلك فان لهذا الدبر كرامات كثيرة ولا صبر له على تأجيل النذور

فاسرعي في ايفائه . قالت ارى ان اذهب اليه غداً ان شاء الله قالت ولكني لا استطيع الذهاب معك في الغد لاني ذاهبة مع والدك الى البلقاء فاذا أجليّ الذهاب الى بضعة ايام سرنا معاً

فسرت هند لهذا الحبل الذي جاء من ! تلفاء نفسه فقالت لا أراني قادرة على التأجيل واخشي ان يزيد غضب الله علينا وأنا لا أرى موجباً لذهابك معي فقد اذهب مع بعض الخدم متنكرة اقضي نهاراً هناك ثم اعود
قالت افعلي ما بديلك ثم ذهب كل الى فراشه اما هند فلم يكده بغض لما جنن وهي تذكر ما مر بها بالامس وتذكر في ماذا تكلم حماداً اذا اجتمعت يو في الغد

الفصل الخامس

* حماد *

أما حماد فانه عاد من صرح الغدير تلك الليلة وهو يكاد يعثر باذياله لانشغال باله بهند وما برحت الفاظها ترن في اذنيه وهي قولها (سلتني غداً في دبر مجبراء) فلما خرج من الصرح لقيه خادمه وكان ينتظره والفرس يقرب الخيام فنزع الورع عنه وجعلها في خرج على الفرس وركب وسار يطلب منزله وكان مقيماً في قرية غربي مدينة بصرى وعلى ستة اميال يقال لها غسام^(١) ولم يأت حماد الشام الا منذ بضعة أشهر جاءها لا مراً لا بعلمه الا واحد . فاقام في منزله المشار اليه يقضي بعض نهاره في البيت وبعضه في الصيد فيصطحب رجالاً يظنه والى ومعه بعض الخدم فيخرجون للصيد في ضواحي البلقاء فيعودون وقد اصطادوا بعض الغزلان او غيرها

وكان قد تعود ركوب الخيل منذ صباه ومارس الفروسية وفرسه من اجود خيول العرب . وكان قد سمع بهند وقرأ شعراً في وصفها قبل خروجه من بلاده فعلق بها عن بعد ثم دعاه والى ان يصحبه الى الشام فعول في باطن سره على السعي في التقرب منها لانه يظن نفسه دونها مقاماً . فاخذ منذ قدومه الشام يتردد الى جهات صرح الغدير راكباً او ماشياً يتعلل بالمرور هناك لعله يشاهدها وكان ينزل الغدير احياناً فتراه وبراه وهي لا تنقه لمراده وكلما سمع باحتفال عمومي جاءته هند في الكنائس او غيرها اسرع اليه وسعى في استلفات اشباهها فكانت اذا رآته ارتاحت

الى رؤيتو لخاله وهيبه ورزانه . فلما كان السباق الماضي حضره لأول مرة فظهر من الفروسية والشهامة وكرم الاخلاق ما زاده ارتياحاً الى مشاهدته واتفق انها نزلت ذلك السباق هي بنفسها فتخطبا وتبادلا رموزاً لا غنى عنها في اوائل الحب فنزل من قلبها منزلاً رقيقاً وصارت تشعر بشوق الى رؤيتو اذا غاب عنها على ان ميلها هذا لم يكن يتجاوز حد الارتياح ولا خطر ببالها امر الاقتران . و على انها فهمت من اشاراتو وحركاتو وسائر احواله انه طامع بها ولكنها كانت تجهل الحب وسلطانه فلم يذق قلبها طعمه على انها آتست في حماد اخلاقاً وطواراً تنطبق على اخلاقها وطوارها من حيث العقل والرزانة والميل الى الشهامة والحريه

فلما شاهدت ما شاهدته في السباق الاخير من شهامة وحريه تقرر في ذهنها انها خلفت وخلق لها وهذا اول مرة خطر ببالها امر الاقتران . وساعدها على ذلك ما آتست من ارتياح والذنها اليو امتداحها شهامة والثناء على مروءته ولكن امراً واحداً كان يعترضها فيوقفها عن عزمها وهو تسترحماد وكتمان اصله فخافت ان لا يكون ذا حسب بضاهي حسبها او يقرب منه او ان يكون على مذهب غير مذهبها فان العرب كانوا اذ ذاك على مذاهب شتى وفيهم النصارى واليهود والوثنيون والمجوس وظهر في اثناء ذلك الاسلام لكنه لم يكن قد ادرك الشام بعد . على ان الوثنية والمجوسية واليهودية كانت محصورة في جزيرة العرب فكانت المجوسية في بني نيم واليهودية في غير بني كنانة وكندة وغيرهم وكان كثير من اليهود في يثرب اهيك عن خير والاسوس والخزرج الذين قدموا يثرب بعد سيل العرم وفيهم بنو قريظة والنضير وبنو قينقاع وما هم بالحقيقة من العرب بل هم حلفاؤهم^(١) وكانت عرب تلك الحزيرة يقدمون الشام وبصرى وفيهم الوثني والمجوسي واليهودي والنصراني وغيرهم وهم انما يقدمون للتجارة فيمكنون ببصرى او في دمشق الشام او غيرها بضعة اسابيع او بضعة اشهر ويعودون^(٢)

فخافت هند ان يكون حماد وثنياً او مجوسياً فيمتنع الاقتران بينها فطلبت الاجتماع بو في الدبر لتخري ذلك كله

فلنعد الى حماد ليلة خروجه من الفصرة فانه ساق حواده زميلاً وخادمة يجري الى

جانبه وهو يريد ان يدرك منزله قبل ان يفلت والى لغباء لانه فارقه من فجر ذلك اليوم ولم بعد براه

وبما هو في ذلك سمع وقع اقدام جواد مسرع نحوه وصوتا ينادى (حماد) فقال
نعم يا ابني ألكم خرجتم للتفتيش عني

قال كيف لا نخرج وقد ابطأت علينا في العود وها قد مضى هزيع من الليل
ونحن كما نعلم في ديار الغربة

فسكت حماد وسارا معاً على فرسهما حتى مرّا بساتين القرية بين اشجارها
والناس نيام فوصلا المنزل في اطراف تلك القرية فدخلاه وقد أنير غرفة بالمصابيح
فأسرع حماد الى غرفته فجاؤوه بالماء والنياب فغسل وجهه ويديه ورجليه
وبدل ثيابه وانكأ الى وسادة والى جانبه واسمه عبد الله وهو امير من امراء
العراق اللخميين ذوي اليسار وقد بلغ الخامسة والاربعين من عمره قضى معظمها في
الاسفار والحروب في الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق فحنكته التجارب وعلمته الايام
ولكنه انقطع في ذلك العام الى حماد لنضاء مهمة جاء من اجلها الى بلاد الشام

فلما جلسا قال عبد الله ما الذي أخرجك الى الآن يا ولدي

قال ألم اقل لك في مساء الامس اني سائر في هذا الصباح الى صرح الغدير
قال بلي ولكن هل طال مقامكم في السباق الى الآن وهل كان المتسابقون كثيرين
قال نعم يا أبتاه ان للسباق لم ينته الى الغروب ثم احتفلوا بالباس الدرع للسابق
أما المتسابقون فكانوا كثيرين وفيهم جماعة كثر من امراء غسان وفي مقدمتهم ثعلبة
ابن الحارث صاحب بصرى

فقال ومن هو السابق يا ترى

قال ولدك حماد

فقال لا شئت بينك هكذا تكون الفروسية فقد سبقت امراء غسان وانت

غريب بينهم فهل لبست الدرع وابن هي

قال وقد نلت فصب السبق ولبست الدرع بعد جدال طويل ولكنني عانيت
من كرم اخلاق جبلة ورجالو ما حقق لنا ما نسمعه عن حسن وفادة الغسانيين اما
الدرع فهي في المخرج

فقال: عبد الله وهل نزلت فتاة غسان للسباق هذه المرة فقد اخبرني المرع الماهية
وسمعت من كثيرين انها نحسن الفروسة وكثيراً ما تنزل ميدان السباق
لمسابقة الفرسان

فلما ذكرت هند خفق قلب حماد وظهرت عليه ملايح البهجة وليت برهة يهكم
فأدرك عبد الله انه يفكر في امر هام
قال ما بالك لا تجيب يا ولدي

فاتته حماد وخجل لما ظهر عليه فقال لم افهم مرادك

قال سألتك عن هند بنت الملك جبلة هل نزلت للسباق هذه المرة
قال لا يا ابنة لم تنزل ولكنها شهدت السباق وختمته بالباس السريع للسابق
قال ذلك وامارات السرور والهيام ظاهرة على وجهه

فلحظ عبد الله ان حماداً يحوم حول الشراك فاراد تحق ذلك فقال له
وكيف رأيت فتاة غسان هل هي كما نسمع عنها من الجبال والالطف
فأبرقت اسرع حماد وطلق بصف جمالها ولطفها وصفاً يدل على عبقريتها فكان
يتكلم وعيناه مشرقتان وقلبه يخفق وكثيراً ما كانت نخوة الالفاظ في التعبير عن اوصالها
فخاف عبد الله على حماد ان يقع في الدراك فاطرق وظهرت عليه مظاهر الالهياض
والاسف معاً فاتم حماد كلامه وعبد الله مطرق كأن امراً ذاباً اعترضه
فنظر حماد اليه وقد عجب لحاله وما طراً عليه من التغيير بغنة فقال له ما بالك
يا ابنة اراك قد وقعت فيما اتبني عليه فهل ساءك من امري شيء

قال حاشا يا ولدي ولكنني افكر في هذه الفتاة وما خصها الله به من المواهب
والاحصال وكذلك تكون بنات ملوك

فسر حماد لاستحسان عبد الله لها ولكنه خاف التصريح بأكثر من ذلك لئلا ينكر
عليه الامل بالحصول عليها وفي من بنات الملوك وهولا يعرف عن نفسه الا انه من
اولاد بعض الامراء

وكان عبد الله من الجهة الثانية راغباً في تحق ما اذا كانت هند تحب حماداً
مثل حييها فقال ارى هنداً قد وقعت من قلبك موقعاً عظيماً فهل هي عالمه بذلك
وهل خطر حماد ببالها

فأثر هذا الكلام في قلبه تأثير السهام وعده اهانة له حتى كاد يصرخ بكل ما في قلبه ولكنه عاد الى نعلوه وحكموه فقال لا اعلم منزلي عندها ولكنني رأيت منها ميلاً وارتياحاً لي

فقال يظهر ان قلبك خدعك فاتخذت لطفها الاعنيادي الذي تظهر به لدى سائر الناس دليلاً على حبٍ خصوصي لك

قال لا اظن قلبي يخونني او يخدعني فقد علمت من قرائن عديدة انها تحبني فقال وكيف تحبك وانت غريب ولا نسب ولا نسبة بينك وبينها قال اعلم انها تحبني وسكت

فقال عبد الله افصح يا ولدي ولا تخف عني شيئاً فانت تعلم اني منقطع عن العالم كلاً من اجلك فاشرح يا بخاطر بك ولا تخف فان ما يسرك يسرني فقال قلت لك انها تحبني

قال اذا انت طامع بها

قال لا ادري وكل شيء بقضاء وقدر

فتمتق عبد الله وقوع حماد في شرك الهوى فبغت وصمت وجعل يتلاهى بتتف عشونيه وقد همة ذلك الامر كثيراً

فلما عابن حماد منه ذلك ظنه استعظم عليه الطمع بينت ملك غسان فقال له ما بالك لا تتكلم هل ساءلك ما ظهر لك مني

فابتدعه عبد الله قائلاً لا يا ولدي لم يسئني ذلك ولكنني افكر في امر عظيم بهمني كما بهمك وقد قطعنا الصحاري والقفار من اجله واراك قد شغلت عنه بامر آخر

فقال وما تعني بذلك الامر العظيم وما الذي شغلني عنه لم افهم مرادك

فقال ألم تأت من العراق الى بصرى لنفي نذرنا لك منذ ٢١ سنة ولم يبق من اجل انتظاره الا بضعة ايام

قال لى . فقال ما بالي اراك قد شغلت عنه بالحب والغرام

فخجل حماد عند سماع ذلك التوبيخ من والده فقال وهل يؤخذ من كلامي اني مشتغل بالحب والغرام . فقال عبد الله اوتظن انني غافل او نحسب دلائل الحب تخفي على البصر

فخبر حماد ولم بدر كيف يدفع قول ابيه ولكنه رأى الافضل ان ييوح له الا لا غنى له عنه في انعام قصه فقال وهب اني احببتها واحبني فما علاقة ذلك بالذکر ونحن انما جئنا لنقص شعر رأسي في دبر مجبراء فما يمنع ان تفعل ذلك ولين تفعل شيئاً آخر

قال عبد الله ان هناك علاقة كبرى لا يمكنني التصريح بها الا في اليوم الذي نقص شعرك فيه وسنعلم اذ ذاك اموراً انت غافل عنها الآن فلا تلومني على ترددي في امر حبك لبيت ملك غسان . انا اعلم ان حبك لها شرف وخصوصاً اذا كانت هي محبك ولكنني لا استطيع التصريح بشيء الا في اليوم الموعود لوفاء النذر وهو يوم احد الشعانين فحين الآن في واسط الصوم الكبير ولم يبق للموعد الا بضعة ايام فتم السنة المحادية والعشرون من ولادتك فنفض لك شعرك ونكشف حفيضة امرك فتدخل عالماً جديداً وتطلع على اسرارها كان فيها ما يحول بينك وبين هند فعجب حماد لذلك واشتاق الى محبي يوم الشعانين شوقاً زائداً واخذ يفكر في كلام عبد الله ولكنه قال له وماذا عسى ان يحول بيني وبينها

قال قلت لك اني لا اقدر على التصريح باكثر من ذلك فأرى ان تبصر وتأن في التأني سلامة

وكان في عزم حماد ان يطلعه على ما تواعدا عليه من الالتقاء في دبر مجبراء فلما رأى منه هذا التحويل كنم امره وسكت ليرى ما يكون بعد اجتماعه بها ثم بكشف والد بكل شيء على انه حسب تهويل والد حيلة في ترغيبه عن هند

وكان قد مر نصف الليل وغلب التعب والنعاس على حماد ولحظ عبد الله منه ذلك فقال هلم بنا الى الفراش يا ولدي الى ان ينضي الله بها بشاء ولكنني اوصيك ان لا تقطع امراً او تصله الا بعد يوم الشعانين فانك اذا فعلت شيئاً بعد ذلك انما تنعله عن بصيرة

فسار حماد الى فراشه وقد همة امر يوم الشعانين حتى كاد ينسبه هنداً وموعدها وود ان يفعل ما امر به والد ولكن عواطفه غلبت عليه فبات ينتظر صباح الغد انتظار الظآن للماء ففضي معظم الليل ولم يغمض له جنين وهو يتردد بين حديث الشعانين وحديث هند حتى كان آخر الليل فنام قليلاً

الفصل السادس

* مدينة بصرى *

واصبح - حماد في فجر فهرول الى ثيابه فلبسها وعبد الله لا يزال نائماً فاراد ان ينفذ
ليستأذنه في الذهاب الى بصرى على سبيل التفرج فخاف ان يطلب الذهاب معه
فعول على الذهاب بنفسه خفية

فركب جواده وقد لبس الكوفية والعقال وجعل عليه القباء كالعباء وسار
شرقاً قاصداً مدينة بصرى ولم يصطب احدًا من الخدم اخفاءً لما سار من اجله وكانت
الطريق بين غسام وبصرى على استقامة واحدة كأنها هدمت بالمسطرة والنادن
والبركار مرفعة بالحجارة الصلطة على نظام سائر طرق الرومان وقد تأكلت الحجارة
من مسير عجلات مركباتهم^(١) مجدها من الجانين حائطان ارتفاع كل منهما ذراع.
ولم يسر ساعة حتى اطل على بصرى وأول ما شاهد منها حوضها الكبير الغربي الواقع
خارج السور وهو عبارة عن خزان للمياه كبير طوله ١٢٥٠ قدماً وعرضه ٦٥٠ قدماً
وكان لبصري احواض اخرى في الشرق والشمال لتخزن الماء خوفاً من الجذب لبعدها
عن الانهر والغدران^(٢)

فلما دنا من ذلك المحوض عرج نحوه ونأمل انساعه حتى كاد بحسبه بحيرة كبيرة
لانه كان على معظم امتلائه في المائيل الرابع ثم تحول عنه الى مرتفع من الارض
ليرى بصرى منه وهو لم يدخلها بعد ولكنه قرأ عنها في كتب الفرس والكلدان وعرف
انها واقعة في جنوبي حوران شرقي نهر الاردن تبعد ٩٠ كيلومتراً عن دمشق جنوباً
شرقياً و ١٢٠ كيلومتراً من بيت المقدس شمالاً شرقياً وانها قديمة العهد عاصرت دول
اليهود ثم اليونان والرومان^(٣) فلما دنا منها صعد الى مرتفع فاشرف عليها وقد اشرفت
الشمس فاذا هي مربعة الشكل تقريباً مائة بقعة كبيرة من الارض المنبسطة وحوفا
سور يزيد محيطه على اربعة اميال وشاهد خارج السور البساتين والاشجار والكرم وسائر

(١) جون مري وغيره (٦) أبريل (٣) الانسيكلوبيديا البريطانية

اصناف الفرس ورأى من وراء ذلك سلاسل جبال حوران في عرض الافق وقد أعجبه منظر المياه في الاحواض حول المدينة تنللاً بانكسار الاشعة عنها. يشاهد في المدينة بنايات هائلة كان منظرها بوجه الاجمال مغرباً لان حجرها من الصنف الحوراني الاسمر المشهور فاشتاق نفسه الى مشاهدة اسواقها فصار نحو بابها الغربي فرأى عند التوافل وفيها المجال والبيغال والمحبر بعضها فادم من العراق بمعدل الاقمشة الفارسية وبعضها من البن تحمل الاطياب والمر واللبان وشاهد قوافل اخرى تحمل البضائع الرومانية وسائر مصنوعات الشام^(١) وتأمل الباب فاذا هو مرتفع هائل الكبر مصنوع على النمط الروماني وفيه العضائد والاعمدة والنقوش على عتبته من الاعلى نقش باللغة اللاتينية لم يستطع قراءته فهم بالدخول من ذلك الباب فرأى الشارع مرصفاً بالحجارة والناس يتزاحمون ذهاباً وإياباً فنزل الرجل والمسير ماشياً فدخل وقاد الحواد وراه في شارع المدينة الاكبر وهو يقطعها من الغرب الى الشرق ويقطع شارع آخر مثله من الشمال الى الجنوب وهما اكبر شوارع المدينة ومنها تنفرغ الشوارع الصغيرة والدروب والازقة والجارات على زوايا قائمة فحجب لا تنظام تلك الشوارع وحسن هندامها لانه لم يشاهد على نظامها ولا في المداين عاصمة العرس في ذلك العهد

ولم يكده يخطو في ذلك الشارع بضع خطوات حتى تراءى له عن بعد قنطرة قائمة في عرض الطريق فعلم انها قوس نصر اعناد الرومانيون ببناءها تذكيراً للنصر اولا احتفال بمعنى بو الفخر فلما دنا من القنطرة رآها مؤلفة من ثلاث اقواس قوس متوسطة كبيرة وقوسين جانبيتين صغيرتين وعلو القنطرة اربعون قدماً وعرضها اربعون وساتمها عشرون وكلها مبنية بالحجار ضخمة قائمة على عضائد مهندمة وفي اعلى القوس كتابة باللاتينية نشوق حماد الى استطلاع معناها^(٢) فالتفت الى احد اصحاب المحوانيت وقد عرف من شكل انو انه روماني وكلمة باللغة الكلدانية المزوجة بالعبرانية فاشار الى رجل جالس بالقرب منه كانه يطلب اليه ان يترجم له فجاء فساله حماد عن تلك الكتابة فقال معناها ان بوليوس بوليانيوس قائد الفرقة الاولى البرطية بناها^(٣) فاعجب يذخ الرومان وايقن انهم اقرب الى العظمة والترف من ملوك فارس وقال في نفسه اذا كانت هذه حالهم في دور الانحطاط فما هو مقدار عظمتهم وبذخهم

في ابان مجدهم فمر من تحت تلك القوس وسار في جهة واحدة فوصل الى مزدحم من الناس عظيم فاذا هو في متصالب الطرق حيث يلتقي الشارعان الكبيران وهناك المحوانيت الكبيرة وباعة الاقمشة الثمينة ولكنه رأى على احد اركان ذلك المتصالب بناء شاهقاً ذا اروقة ونوافذ واعمد ونقوش بدبعة فسأل عنه فقيل له انه هيكمل بناء الرومان لعبادة الاوثان قبل نصر قياصرتهم واما الآن فقد اتخذوا بعضه معداً للبعض الآخر بسكة كبار حاوية الرُّوم في بصرى^(١) ووقف في ذلك المكان والتفت الى ما حوله فاذا هو في منتصف المدينة ومن هناك تمتد اربعة شوارع كبيرة تنتهي عند السور باربعة ابواب غربي وشرقي وشمال وجنوبي ثم تحوّل الى الشوارع الاخرى ليمتهدا ثم يخرج من الباب الشرقي ومنه يصل الى الدبر فشاهد بين ابنية بصرى قصوراً شاهقة معظمها من الكنائس وبعضها من الهياكل الوثنية بنيت على عهد الرُّوم قبل تنصرهم وفي جملتها مرشح بديع كانوا يلعبون فيه العاب السباق والمصارعة وشاهد على تلك الابنية كتابة بعضها نقوش وبعضها اصبغة واكثرها مكتوب باللغة اليونانية واللاتينية وبعضها باللغة النبطية

واخذ يتأمل ما هنالك من الرساتيق والاسواق وفيها التجار واكثرهم من الغرباء وبينهم الدمشقي والحلي والبدوي والرومي والفارسي والعراقي ثم وصل سوق الصناع فوجد اكثر الصاغة من الفرس والرُّوم وصناع الاقمشة الحريرية من الدمشقيين ومرّ بسوق الاسلحة وفيها صناع السيوف الدمشقية الشهيرة واكثرهم من اهل دمشق ولاحظ ان ابنية بصرى على اختلاف اشكالها مستوفة بالحجر عتداً على شكل القبو ورأى الناس تتزاحم في الاسواق رجالاً ونساء وفيهم الوطنيون ولغتهم الارامية او النبطية وبينهم الرُّوم ولغتهم اللاتينية وبعضهم يتكلم اليونانية وشاهد جماعة كبيرة من العرب الغساسنة لا يزالون على بدوانهم لانهم يقيمون خارج المدينة ولا يدخلونها الا لحاجة فعرفهم من لباسهم البدوي واعجب لما رآه هناك حتى كاد ينسى مواعده مع هند ثم اتبعه فاذا بالشمس قد كادت تبلغ الضحى فمرول حتى خرج من الباب الشرقي فاصداً الدبر وقد عادت اليه هواجسه وشواغله



الفصل السابع

* دير بحيرة *

فركب جواده وما سار قليلاً حتى وصل الى مرتفع اشرف منه على بناء كبير شاهد عن بعد وحولة الاشجار والبساتين ^(١) وشاهد رجالاً على حمار يظهر من لباسه انه من اهل بصرى فسأل عن ذلك البناء فقال هو دير بحيرة يا سيدي

فساق جواده حتى دنا من الدير وهو يخاف ان تكون هند قد سبقته اليه على انه يعلم ان المسافة بين الدير وقصر القدير لا يتيسر قطعها باقل من بضع ساعات فلا يتيسر لها المجيء قبل الظهر فاخذ يتأمل الدير فاذا هو بناء ان احدها كبير وفيه قبة فوقها صليب علم انها كنيسة والآخر صومعة على رابية فترجل وشد جواده الى شجرة ولو تركه مطلقاً ما خاف فراره لانه اصبل ومشي نحو الكنيسة فاذا هي مبنية على النمط الروماني واسمها كنيسة بحيرة فدخل صحنها حتى جاء البيعة فرأى المكان ديراً وفيه كنيسة وشاهد الرهبان والنفوس وكلهم من الروم يتكلمون اللغة اللاتينية وبعضهم يتكلم اللغة السريانية المزوجة بالعبرانية وهي لغة اهل تلك البلاد بعد السبي وشاهد بعضاً آخر يتكلم لغات اخرى فسأل عن سبب هذا الاختلاط فقال له بعضهم ان مدينة بصرى مركز اسقفية بلاد العرب الكبرى وفيها يقيم رئيس الاساقفة ومنها يرسل الاساقفة الى ما تحتمل من الاسقفيات ^(٢) فدخل البيعة فزار هيكلا وقبل صورها ثم سأل عن دير بحيرة ف قيل له هو صومعة بالقرب من هذا الدير

فسار اليه فاذا هو على رابية ولكنه عجب لنوع بنائه ولم يكذب صدق انه بيت لانه عبارة عن خمسة احجار ضخمة اربعة منها للجدران وواحد للسقف والباب حجر واحد مرتكز على مصراع ورأى الناس يتقون ويغلقون بكل سهولة ^(٣) فسأل رجالاً واقفاً الى جانبه يظهر من هيائته ولباسه انه من اهل دمشق فقال له ما هذا البناء وكيف يصنعون الابواب من الحجارة فأجابته ان هذا النمط من البناء كثير في بلاد حوران لان ارضهم صخرية والاختداب فيها قليلة فيصنعون مصاريع ابوابهم ونوافذ بيوتهم

من الحجر وقد يبنون منزلاً كبير الغرف وفيه النوافذ والابواب والاروقة والسقف ولا يدخلون في بنائهم شيئاً من الخشب قط^(١)

فوقف هناك بنظر الى ذلك البناء الغريب ولم يكذب يعرف الباب لو لم ير الناس يخرجون منه فصعد الى الصومعة حتى وقف عند بابها فاذا هي غرفة مظلمة أشبه شيء بالمغارة لخلوها من النوافذ الا نافذة ضيقة في بعض جوانبها فدخل فرأى ارض الغرفة حجراً واحداً ايضاً وفي جدرانها صوراً امام كل صورة مصباح ضعيف النور وفي بعض جوانب المكان راهب هرم قد أرسل لحبته على صدره وتجمد جلد وجهه الا انفه فانه ما زال بارزاً كبيراً وقد تناول بين سبعة طويلة وجلس الاربعاء على حجر مخوف كالقعد ملتفا بثوبه الرهباني والسبعة في يد والناس يدخلون اليه يتبركون بتقبيل كتفه وهو يحرك شفاهه كأنه يدعو لهم فمن زاره سار الى الدبر لزيارة الكنيسة وبحجار الكنيسة غرف لمن اراد الاستراحة او الإقامة

فتأثر حماد لمطر ذلك الراهب الهرم اذ تمثلت له فيه مظاهر الشيفوخة واضحة وضوحاً تاماً ولكنه لاحظ امرأ واحداً استلمت انظاره وذلك انه رأى لباس هذا الراهب كلباس رهبان النساطرة في العراق وكان قد شاهد كثيرين منهم هناك فتقدم نحوه وقبل بديه فنظر اليه الراهب ونأمله كأنه عرفه وامر بالجلوس فجلس وهو اكثر رغبة منه في مجالسته لانه ود كثير ان يعرف قصة ذلك البهاء وكان حماد قد تعلم كل علوم تلك الايام في مدرسة الرها الشهيرة بالعراق فتشرف عفته وصار محباً للاطلاع فلما رأى في ذلك الراهب ارتياحاً الى مجالسته سر سروراً عظيماً وترجع حالاً فقال له الراهب . ألعلمك من عرب العرق يا ولدي

فتعجب حماد لسؤاله فقال نعم يا سيدي وكيف عرفت ذلك قال عرفته من ملامح وجهك لاني عاشرت عرب العراق زمناً . وهل انت مفهم هنا ام جئت مسافراً قال جئت لأني نذراً علي لهذا الدبر

قال وما هو نذرك

قال نذرتني والدي ان لا يقص شعري اولاً الا في هذا الدبر ولانه لا يقصه الا بعد مضي السنة الحادية والعشرين من عمري وسيكون ذلك في احد الشعانين القادم

فجئت اليوم ليل البركة والتمتع بظرفة الصومعة اذ كثيراً ما حدثنا اهل بصرى
عن الراهب بجهراء . أله لك انت هو يا . يدي
قال لا يا ولدي ان الذي نطلبه قد قتل بعض الاشرار غيلة
قال كيف قتلوه ولماذا فاني كثير الميل الى استطلاع خبر . وقد اراد حماد
الاشغال الحديث لتضيئة الوقت ربنا تأتي هدا لان الانتظار صعب

الفصل الثامن

* الراهب بجهراء *

فتنهد الشيخ تهدياً عميقاً وحلق عينيه وقد نسي شيخوخته وكأن شبابه عاد اليه
واخذ يشط لحينه باصابعه وقال اما بجهراء فهو من نعم الله على بني الانسان ولا اظن
الارض تجود بعد بمثله اما حكاية فقد وقعت على خير فاعلم ان اسم الحقيقى ليس
بجهراء بل يوحنا ^(١) واما بجهراء فهو لفظ كلداني معناه العالم المدقق او المحقق لقبه
به لظول باعو في سائر العلوم ^(٢)

فقال حماد وهل عرفته قد استكم معرفة شخصية قال اني اجد تلامذته وقد تلمذ
له كثيرون غيري من جملتهم سلمان الفارسي ^(٣) اما انا فقد رافقته من اول
ظهوره الى آخر آياها

فازداد حماد ميلاً الى معرفة حقيقه بجهراء فقال وما هي حكاية فقد شوقني
الى معرفتها

فقال اعلم يا ولدي ان المرحوم يوحنا بجهراء كان راهباً نسطورياً على مذهب
آريوس ونسطور ولا اظنك تجهل هذا المذهب وان يكن اتباعه قليلين لمخالفتهم
مذهب القباضة

قال حماد نعم اعرف كل شيء عنه وقد اطلمت على دقائقه في المدرسة على
احسن عارفيه

فقال الراهب فلا حاجة بنا الى شرحه اذا فانت تعلم ان اساس هذا المذهب انكار الوهية السيد المسيح وان تسميته لها غير جائز وانهم اتخذوا له اسماً فقالوا يجب ان يسمى كلمة الله وان والدته مريم يجب ان تدعى مظهر الباسوت لوالدة الله ^(١) قلت انك اني تلميذ مجبراً واعترف لك اني تلميذ في كل شيء ما خلا هذا المذهب فقد قضيت اكثر ايام صحتي له وانا في جدال دائم معه فلم يقع احدنا الاخراما في العلوم الاخرى فله علي الفضل الاكبر فقد اخذت عنه علم الفلك والحساب وعلم الطوالع وسائر علوم هذه الايام وكان لفراسته وحسن نظره بظنه الناس ساحراً . وكان يقيم اولاً بدبير في ما بين النهرين بالعراق وكنت اختلف اليه هناك اتلقى بعض العلوم ولم اكن اعرف ما يذهب اليه . فلما اطلع رئيس الدبر على انخالي الاربوسية غضب عليه واخرجه من الدبر فصار قاصداً دبـر طور سيناء في العقبة على حدود مصر فسررت انا معه لانتفاع بعلمه وحباً في خيـن لعلني افنعه وارده الى مذهب الكنيسة فرحب بنا رهبان طور سيناء واعجبوا بعلمه وفضلوا فاقمنا هناك مدة ثم ورد كتاب من دبر الاول الى رئيس دبـر طور سيناء ان يخرج من دبر فامر بذلك او يتحول عن مذهبه فخرج وخرجت انا معه . واتينا هذا الدبر واقمنا في هذه الصومعة معاً الى امد غير بعيد فانه ذهب الى مكان في جزيرة العرب لم يسمو ولم اعد اراه من ذلك المحين ثم علمت ان بعض اليهود قتلوه غيلة ^(٢)

فقال حماد ألا تعلم اسم المكان الذي ذهب اليه
قال كلاً ولكنني ظننته سار الى الحجاز لحادثة جرت معه على مشهد مني منذ
نصف واربعين سنة

قال حماد وما هي
قال جرت عادة القوافل القادمة من بلاد العرب او غيرها ان تنفها للاستراحة من حر الصحراء والاستغناء عن نفاس مجبراً بينهم وخصوصاً اذا كانوا من الوثنيين او المجوس وقد اجلس انا معه ايضاً فيأخذ في تعليمهم عبادة الله ولا يريد بهم الا خيراً . وكان يعتقدان الله ظهراً في الرويا وانباؤه انه سيكون واسطة لمداية نبي اسما عيل سكان جزيرة العرب لان هؤلاء العرب كانوا يعبدون الكلىكب او الاوثان الا جماعة

منهم كانوا نصارى او يهوداً وجماعة اخرى كانت تفرّ بالخالق وتصدق بالبعث والنشور والثواب والعقاب وفئة قليلة كانت تفرّ بالخالق وتشكر البعث ^(١) فكان بحيرا يفكر ليلاً ونهاراً في مصير تلك الجزيرة واهلها فرأى مرة رؤيا قصها علينا قال « رأيت فتى جميل المنظر شهياً مولد بـرج الثور والزهرة مع قران المشتري وزحل علمت انه هو الذي سيهدي ابناء جلدته بني اساعيل الى معرفة الله وان يؤمقوى امرهم ويشند ازهم وتجمع كلهم فيذللون ابناء عمهم بني اسحاق ويتسلطون عليهم من توافق ما اشار اليه دايمال في نوبته وانه يخرج من العرب اثنتا عشرة دولة » ^(٢)

فاتفق منذ ثيف واربعين سنة اي في نحو سنة ٤٨٠ بـصروية ^(٣) ان قافلة من قوافل الحجاز وصلت هذه الساحة وفيها جماعة كبيرة من عرب قريش الذين يقيمون في مكة وعدم مقام شهير بأمة الناس من سائر انحاء جزيرة العرب وغيرها يسمى الكعبة وعرب قريش هؤلاء كانوا حجاب الكعبة ولم نسب وشرف يتصل باسماعيل فنزلت القافلة تحت تلك التيج الكعبة التي تراها شرفي هذه الصومعة فظللهم جميعاً ^(٤) وعقبوا جمالهم وربطوا حبرهم وانزلوا الاحمال انما للراحة ثم قدموا للاستقاء فخرج بحيرا لمخاطبتهم وتعليمهم فشاهد بينهم غلاماً جميلاً تلوح عليه اللمح المباشرة والحجاجة والذكاء فحالما رآه بغت والتفت فقال لي انظر الى هذا الغلام فانه مولود في البرج الذي قلت لكم عنه وهو الذي سيهدي بني اساعيل ثم سأل كبير التجار عنه فنقدم رجل كهل نحلي في وجهه دلائل الجلال والوقار فخطبته بشأنه فقال من يكون هذا الغلام فقال هو ابن اخي فأنبأه بحيرة بمسقبله وقال له احذر علبه من اليهود فانهم اذا عرفوه كادوا له كيداً ^(٥) وسأله عن اسم فقال اسمه محمد واسم عمه ابو طالب . واقام اولئك الركب عندنا من وقداً آتست بحيرة اكراماً لهم وترحاً بابهم لم اعهد به مع غيرهم ثم ساروا الى بصرى فالشام وعادوا بعد ذلك الى مكة ثم كانوا كلهم مروا بنا اقاموا عندنا كالعادة

(١) المسعودي (٢) دائرة المعارف (٣) اتاريخ البصري يبتدي سنة ١٠٥ بعد

الميلاد وهي السنة التي اتخذ الرومان بصرى عاصمة لولاية حوران ودعوا تروجانا الجديدة وهو تاريخ مشهور كانوا يوثرخون منه فيقولون ان البناء الفلاني بني سنة ٥٢٠ بـصروية مثلاً ويريدون

انه بني سنة ٥٢٠ بعد صيرورة بصرى عاصمة (٤) ابن هشام (٥) السيرة الحلبية

فقال حماد وهل صمتت ثورة بحيرا

قال نعم لأن ذلك الغلام القريشي أصبح سيأ كبراً نسي ديانه الاسلام وقد انتشرت سطوته في كل جريد العرب ويسمى اتناعه المسلمين ومحدثا التجار القادمون من الحجاز عن اعماله وحمرويه وانتصاره ما يفوق طور النديقي فسكان جزير العرب بعد ان كانوا قبائل متشذبة يغزو بعضها بعضاً اتحدت كلها قلباً وقلوباً تحت لوائه ولا يبعد ان يحمل بهم على الشام والعراق

فقال حماد واظني سمعت شيئاً عن هذا الذي يوم كنت في العراق فما رأيك اذا

حمل على الشام والعراق

فهبت الشيخ وفكر رهة ثم اغرورقت عيناه بالدموع وقال آه يا ولدي لا أظنه إلا يسئولي عليها جميعاً لما تعلم من اخلال الاحوال فان قيصر الروم لم يكذبهم حروبه مع الفرس ومنه فلاعنا وحصوننا لا تزال منهزمة وحكامنا في شغل عن ترميمها بالانقسامات الدينية التي هي أصل هذا الشقاء ألا ترى بطارتنا في جدال دائم على أمور ما أنزل الله بها من سلطان فبطرك الاسكندرية يقاوم بطرك القسطنطينية وبخالفها بطرك نطاكية وقد كانت ديانتنا واحدة لان السيد المسيح واحد علم تعليماً واحداً فآفت مطامع بني الانسان الآ الانقسام فتعددت الفرق المسيحية واشهرها ثلاث الآن وفي (١) الملكية القائلون مركيانوس الملك على عهد الشقاق الواقع بين نسطور يوس وكريلس وهم الروم (٢) البعقورية القائلون بمقالة كيرلس الاسكندراني وبعقوب البردعاني وساورس صاحب كرسي انطاكية (٣) النسطورية القائلون بقول نسطور يوس (١) وترى الشعوب منقسمة ايضاً مثل هذا الانقسام حتى تمكن العداة بينها حمانا الله من عواقب الغرور

وما أتم الراهب الشيخ كلامه حتى انهكه التعب لما أترفيو من حال الروم وما خافه عليهم من سطوة العرب فتململ وتنفس الصعداء وتزحزح من مكانه كأنه يطلب الانكاء فنهض حماد وقد علم أموراً لم يكن عالماً بها قبلاً ومال ميلاً كثيراً الى معرفة التفصيل ولكنه خاف التفتيل على الشيخ بعد ما آتس من تعبهم وملكو وشغل عن ذلك

(١) ألكندي

باسنبطاء هند عن الحبيء فودع الراهب وقبل يده وظلب رضاء وخرج فاذا بالشمس قد مالت عن خط الهاجرة فجلس على حجر منعوت قائم تحت شجرة كبيرة لعب النسيم في اوراقها وتطابرت الطيور بين اغصانها فالتفتي ظهره على جزعها واخذ يفكر بما سمعه من ذلك الراهب فغلب عليه الملل وهو لم يمت بالامس الا قليلاً فعمضت عيناه لحظة رأى فيها حلاً من قبيلى ما سمعه من الراهب فخيّل له انه سار الى المدينة بالحجاز وشاهد المسلمين عاكفين على صلواتهم وان نعيمهم قال له « انت لست حماداً وستلاني عذاباً ولكنك تجد بعد العصر يسراً »

ثم افاق من صوت صهيل الخيل فالتفت فاذا بفارسين بلباس اميرات البلقاء وراءهما خادمان وقد وقف الفارسان تحت شجرة بالقرب منه فنهض للحال فرأى ثلثان ولكنه عرف من الفرسين انها هند واحدى خادماتها فتشاغل ببعض الشؤون لثلاً ينذه احد الحالو وليك ينتظر اشارتها وقلبه يخفق فمدت نحو الصومعة وهو واقف لا يبدي حراكاً حتى صعدت اليها ودخلت الباب فانظر هنيئة فلم تعد فمشتي نحو الصومعة يتردد بين الصمود والبقاء فاذا باحدى الملتصقين قد عادت نحوه فعرف من مشيتها انها ليست هنداً فلما دنت منه قالت له اتعرف تاجرًا يبيع الحلى كان واقفاً هنا فادرك ان هنداً تسأل عنه باسم أحد باعة الحلى لتفني أمره عن الخادمة فاجاب على النور انا هو ذلك التاجر فما غرضك

فقالت ان سيدتي تفتش عنك

قال وهل تريد ابتياع شيء الآن

قالت نعم فابن بضاعتك

قال هي في مخزني على مقربة من هذا المكان ولكن الحلى التي ابيعها غالبية الثمن لا يستطيع اقتناءها الا الاغنياء فاذا كانت سيدتك من أهل اليسار آتيها بما تريد فتبسمت المرأة تبسم الاستخفاف وقالت نعم انها أقدر نساء حوران والبقاء على ذلك فقال ابن هي

قالت في الصومعة فتفضل

فصعد وركبناه نرجمان حتى دخل الصومعة فرأى هنداً جالسة على مفند من

الحجر فالتفتي نحوه ونجامل قائلاً أين التي تريد الحلى

فقلت هند هي انا فابن حلاك
 قال هي في المخزن على مقربة من هذا المكان هل اذهب لاستجلاها
 قالت لاندري ما نحتاج اليو منها فرما أنيت بما لاجاجة لنا يو وترك ما كانت
 اليو حاجتنا
 فقال قولي ما هي انواع الحلي التي نحتاجين اليها فأتيك بأحسن ضروبها واعود
 حالاً ولا سهيل لنا غير ذلك
 قالت حسناً نعمل فمحن نحتاج الى اقراط من اللؤلؤ واساور من الذهب المرصع
 فأت بما تصل اليو من احسن انواعها

الصفحة التاسعة

* لقاء الحبيبين *

فقال سمعاً وطاعة وعاد فركب فرسه وسار باسرع من لمح البصر حتى دخل
 بصرى وهوول الى سوق الصاغة وكان لا يخلو جبهة من بدرة لما قد يحتاج اليو
 في غربته فابتاع بضعة اساور وبضعة اقراط من اجل الازياء الدائعة اذ ذاك
 وعاد حالاً فلما دخل الصومعة لاقاه بعض الخدم وقال له العلك بائع الحلي قال نعم قال
 ان مولانا تنتظر في بعض غرف دير بصرى^(١) فعاد الى الدبر فلاقته الخادمة
 ودخلت يو على سيدتها وهي في طرفة على انفراد وكانت قبل مجيئها مضطربة
 استعداداً لساعة اللقاء فلا نسل عن خفتان قلبها واصطكاك ركبتيها ولكنها
 تجلست لئلا تلحظ خادمها منها شيئاً يكشف حقيقة امرها فلما دخل استقبلته استقباليها
 رجلاً غريباً فامرت له بوسادة جالس عليها وجلست هي على وسادة اخرى
 فجعل حماد الاساور والاقراط بين يديها فقلبت شيئاً منها ونظارت انها اعجبت
 باحدها فقالت ما رأيك بهذه الاساور قال هي من صنع الفسطينية وصانعها دقيقة
 يفضلها العارفون على هذا النوع فانه صنع خراسان

(١) دير بصرى اسم من اسماء دير بجيرا ويقال له ايضاً دير نحران ودير الباقي (المجم)

فقلت له بأي ثمن تبعها . قال انها غالية الثمن يا مولاتي فهي تساوي خمسة دنانير (ولم تكن تساوي حقيقة إلا عشرة دنانير »

فالت لا بأس من غلائها ولكنني لا استطيع ابتياعها ما لم أرها لوالدي

فقال حماد حسناً نعلين وابن هي والدتك

قالت في منزلنا على بعض غلوات من هذا المكان ولكنك لا تعرف من نحن فلا تأمن ان نسير بها جميعاً فساءرسلها مع هذه المرأة وابقي اما هنا ريثما نعود فاذا استحسنتم والدتي ارسلت الثمن معها فاشترينها ودفعت الثمن والآ فاني اعيدها اليك كما هي

فقال ولكنني لا استطيع البقاء هنا طويلاً

قالت لا تخف فان هذه المرأة سنسير على جواد سريع الجري واذا ابطأت عوّضنا عليك الخسارة كن مطمئناً

فقال ارجو اذن ان تحتفظ بالاساور لئلا يقع شيء من أحجارها اثناء التقلب قالت لا تخف انني احرص منك عليها ولولا ذلك لارسلتها مع سواها من الخدمة وهي ايضا متى عادت نابت حظها من بضاعتك . قال حسناً

فتناولت الاساور ولقنها في منديل وناولتها الى الخادمة وقالت لها اركبي العرس وخذي معك الخادمين واسري الى والدتي واعرضي هذه الاساور عليها واخبريها عن الثمن كما سمعت وعودي بالجواب حالاً

قالت سمعاً وطاعة وركبت وسارت وقد أملت ان تحظى من مولانها بهدية من تلك الحلوى

أما هند وحماد فبقيا في الغرفة على انفراد ففضيا برهة صامتين مطرقين والهوى يتكلم ثم خاطبته هي قائلة

لقد احسنت فهم مرادي يا حماد

فنظر اليها وتهد وقال كيف لا افهم مرادك وانت اذا نطقت انما تنطقين بلساني او افكرت انما تفكرين بجناني فاطرقت حياء برهة تنفس بين الحلى الملقاة امامها كأنها تريد التكم ويمنعها الحياء ولبت هو ينظر الى وجهها وقد هام بحسنتها وانهر لما يغلي في محياها من نضارة الشباب وما ينبعث من عينيها من اشعة الذكاء وما زال صامتاً يرجو ان تنوه بكلمة تجر الحديث ليشكو ما في قواده

فناالت اظنك تستحق بي وتحسب جسارتي هذة وقاحة
فتنهتد وقال حاشا لي ان اجلس فتاة غسان حنفا او ان اجد الدم الذي اولني
اياها بهذا الاجتماع وكيف احظى بمشاهدة بنت ملك غسان ولا اعد نفسي اسعد خلق الله
قالت ان هذة الملكة أصبحت اسير بكاء لا تعرف ما نقول فقل انت لملك تعبر
عن بعض مالي

قال اذا سمعت مولاتي اقول اني اسيرها وعيها ولا احسب تنازلها الا مئة
وكرما

قالت انعلم يا حماد لماذا اجتمعنا في هذا البيت وهو من بيوت الله
قال لا ادري يا سيدتي فلعلك امرت باجتماعنا لتوبيخي علي جسارتي لاني تطاولت
على مقام الملوك
قالت كلا فانك لم تفهم مرادي ولا أنت تتكلم بلساني ولا تفتكر مجناني
قال ماذا اذن

قالت وقد نوردت وجنتها جئت لأمثلك بملك الدرع التي دلت على سيفك
فانت السابق وفي الاشارة غني

قال اما تلك الدرع فانها اثنى ما نلت وسأ نال من خيرات هذا العالم فهي واقبي
من نوائب الزمان وتسوية اثنى بها حيابل الشيطان ولكن من اين لي ان اكون
السابق وايا رجل غريب لا يعرفون من أمري شيئا وللمقام مقام ملوك
فنهطت اليه بطرف عينا وقد ذبل جفناها وارتقت حدقناها وقالت ولكن لكل
مجهتد نصيب وما الملك يا حماد الا من ملك القلوب ونسلط على العواطف لا من جمع
الاموال وحاز على حطام الدنيا الفانية وما السابق الفاتر الا من حاز جائزة السباق وليس
الدرع على مشهد من الناس

فالتهفت اليها وقد نهضت رسوخها في حبو وقال ذلك سخاف عهدناه بيني غسان
فهل تعطينين علي عبدك بكلمة تشفي غليظة وتبرد لظاه

فتنهتدت وقد اشند بها الهيام وقالت ماذا اقول وكل جارية من جوارحي تنطق
بما في هذا القلب (وشارت الي قلبها) ولكنني مالي اري حمادا يخل علينا بكلمة
قال بماذا يخل حماد ولم يبق له ما يجود به ولا يرى حاجة الي القول وليس

جارية من جوارحه الا وقد كتب عليها انه اسير هোক
 فنظرت اليو وقد اخذ الحياه منها مأخذاً عظيماً وقالت اعذرني يا حماد علي
 ضعفي فجنس النساء مها بلغت قوته فهو ضعيف فاشفق وقل كلمة
 فمد يده الى يدها فاذا هي باردة كالثلج وخيل لة انها ذاتية بين اناملو وما لمسها
 حتى شعر بشعر يبرق اشبه بجري كهربائي سرى في سائر اعضائه ولا ريب انها شعرت
 هي بمثل ذلك ايضاً فجعل يدها بين يديه وقال اقول كلمة وارجو ان لا تكون ثقيلة
 عليك

فاطرقتم ثم قالت قل قل لقد نفذ صبري واخشى ان يحنونا الوقت
 قال اعلمي اني اسير حبك ولا ابغي من هذا العالم الا رضاك فاذنا نقولين
 قالت انك تعبر عن عواظني

فادرك حماد انها تحبه وتقبل اليو ولكنه ما زال خائفاً من ان يسبقه ثعلبة اليها مع
 علمو انها غير مخطوبة لة ولا هي تحبه ولكنه خاف ان تحلو في عينيو حمداً فيطلبها
 ويتراضى والداهما جبلة والحارث ويتغلبا على رأيها فاراد اخبارها من هذا القبيل
 فقال لها وما شأن ابن الحارث

قالت لا شأن لة فهو حارث غير حاصد . فقال وما شأن من لم يحرث او يفرس
 قالت ان الفرس غرس الله واذا لم يبين رب البيت باطلاً يعيب البنائون
 فضغط على اناملها وهم يتقبل يدها فتمتعة الحياه فاعادها وهو يرنو اليها وقال
 ولكن كيف ترضين بمن لا تعرفين نسبة فلا نأ من ان يظالبنا ابن الحارث غداً بحقوق
 القرابة

قالت ان من القلب الى القلب دليل ولا نعرف لنا قرابة توجب مطالبة ولا نحن
 رضى بالتقرب منه بعد ما عرفناه من خساستو
 فقال وما الذي دللك على خساستو

قالت لقد دلتنني تلك القصة فانها حماد ناطق
 فعجب لاشارنها الى القصة وظهر لة انها عالمة بامر ثعلبة بالامس فاراد تحققي
 ظنو فقال وماذا قالت لك القصة

فال لقد نطقت نطقاً صريحاً ان ابن الحارث جبان دنى

فقال وقد ملّ الالغاز فما قولك بمن لا نعرفين حسبه ولا نسبه .
 قالت فمن كان قلبه دليلاً لا يجش العطب فحماد لا يمكن ان يكون . من السوق
 لان اخلاقه جديرة بالملوك فاذا لم يكن ملكاً فهو امير جليل
 قال ولعله كان من قوم بينهم وبين والدك عداوة
 فجنبت بدنها من بين يديه باطاف وتنست الصعداء ولسان حالها يقول

أحبك ما لو كان بين عشائري * وقد كانوا اعداء لجرّ التصافيا

فلم يبق عند ربب بصدق حبها له فاعندل في مجلسه وقال لها ان اسيرك يا حبيبي
 ليس من طبقات الملوك ولا هو من السوق بل هو امير ابن امير ولكنه دون مقام جيلة
 ابن الهم ملك غسان

فاطمان بالها بائه ليس من السوق فارادت ان تعرف من ابي القبائل هو
 وكانت قد لحظت من لهجو انه من امراء العراق فقالت ألعلك من امراء العراق
 قال نعم يا سيدتي فهل غير ذلك شيئاً من شعورك
 قالت كلاً بل انت فوق ما عانيت فانكم تولى اصحاب نسب وحسب ومنكم
 بنو ماء السماء (١)

فالتفت اليها وقال اما وقد تنازلت الى حيي فاني طوع اشارتك فهل ترين لهذا
 الاسير حظاً من قربك

قالت لقد ابنت لك مرادي وكشفت لك عواطفي وانت على ما رأيته فيك
 من الحزم والدرابة فلا نعدم وسيلة في استرضاء والدي
 فعظم عليه الامر له وان استرضاء والدها من اصعب الامور عليه وهو يعلم
 منزلة منها فضلاً عن الضعائن بين لحم وغلمان فيمت برهة ولم يتكلم
 فابتدرته قائلة ما بالك تتردد فهل خنت الطريق

قال لا اخاف شيئاً في سبيل قربك ولكنني ارى الطريق وعراً لما اسسه
 اجدادنا من الضعائن بين لحم وغمان . فتبسمت وقالت لا تخف يا حماد ان ما يصعب
 عليك يهون علي فكن مطمئناً اني معك وهذا يعني

قال قد رضيت بذلك فان رضاك من رضى المولى وها اني قد كرسيت حياتي في خدمتك

وكانت الشمس قد توارت وراء الحجاب واطلمت الدنيا ولم تعد تتعارف الوجوه فهما بالخروج من الغرفة وفيما هما يودعان والقلبان يخفان وبودان البناء هناك طول المراد سمعا صهيل الخيل خارج الدبر ورأيا الرهبان في جلبة فوقفت هند بغنة . فقال حماد ما الذي راعك يا حبيتي
قالت اظن ثعلبة قادمًا للدبر فلعلها علم باجتماعنا فحياء يريد بنا سوءًا فالاولى ان نفرق لئلا نفتح بابًا للكلام

وبما أتمت كلامها حتى دخل عليها رجل عليه ملابس الباعة بصرى ومد يده فالتفت قطعة من الحلى في جيب حماد ثم استخرجها مدعياً انها كانت في جيبه وان حماداً كان قد سرقها فتناولها الرجل وقال هذه الاساور لي فمن اين جئت بها انها مسروقة من مخزني فلم يجبه حماد ولكنه صغعه على وجهه فقلبه على فناء خارج الغرفة واذا بجماة من جند بصرى قد هموا بحماد فامسكه احدهم بذراعه وقال له انك سارق فنهر حماد منه وصاح به قائلاً اخساً يا كلب العرب وصاحت بهم هند دعوه فهمس هو في اذنها « احذري ان تخبريهم من انت لئلا يفتضح امرنا » فتجهروا حوله وهموا بالقبض عليه ثم سمعوا صوتاً يقول « امسكوا هذا اللص واثنوني به حياً او ميّاً انه جاسوس ذميم » فعرف حماد صوت ثعلبة فخرج نحو الصوت والجند يفرون من امامه ويتفرقون حوله ولم يستطع احد القبض عليه فصاح به تقدم انت يا جبان لترى من هو الخائن واسئل حماد خبيره وهم على الجملوع يبحث عن ثعلبة فلم يعرفه بينهم فاعترضه احدهم وهم بالقبض عليه فطعنه حماد طعنة أصابت كعنه فصاح من شدة الالم فنفرت الناس فاراد حماد الفرار خوفاً الضحية فنذكر هذا فخاف ان يفتك بها ذلك الخائن فعاد اليها وقال لها انجي بنفسك لئلا نفع كلانا وفي وقوعك عار علينا فقالت حاشا لي ان اتركك بين ايدي هؤلاء اللثام والله لن يظفروا منك بطائل وهمت باحدهم فاستلقت حسامة وهجمت على الجند وكانها عديدين فنفروا ايدي سبا فقالت خسي الانزال هلم اليّ وخرجنا معاً والليل قد سدل ثقبه فاسرعا الى فرسها فركبها وسارا

وكان ثعلبة قد بات تلك الليلة في صرح العدير كما قدما ففضى ليلته هاجساً في امر حماد وما ناله من السقى في ذلك اليوم وكيف تظاهرت انة عمو بيلها اليو واستخفافها بثعلبة وكان كما تصور هذا تلبس حماداً الدرع والانس يرتلون وينشدون انقدت نيران الغيرة واحيد في صدره وهاجت فيه حاسة الغدر وشعر بميل نحو هند حتى أصبح شديد الرغبة في خطبتها بعد ان كان يترفع عنها وكل ذلك من عوامل الحسد فان الرجل قد يرى فتاة فلا يعنف بها ولا يظن بها نوعاً فاذا سابته اليها احد وآس منها ميلاً الى هذا واستخفافاً بحسنت في عينيها وخصوصاً اذا وقع بينهما ناظر ارناسي فكن ثعلبة يتوقع من خطبته هذا انقماماً من حماد وتشدباً من هـد لانه لحظ منها شامته يو في حرمها من حبيبها شاملاً لما ثار في قلوب من عوامل الغيرة . فبات ليلته تلك في قصر العدير ينكر في ذلك فلما أصبح أخذ ينجس لعله يعلم شيئاً من أخبار هند فسار الى المطابخ ونظاها بالفرج بمنظر الاطعمة وكيفية ذبح الذبائح فسمع بعض الخدم يتحدثون بعزم هـد الى دير بجيرا في ذلك اليوم

أما هـد فلم تستطع الخروج قبل ذهاب ثعلبة فلما علمت انة سار مع والدها والديها تنكرت وسارت كما قدما

أما هو فاضطر لمرافقة جيلة وامراته الى قرب اللقاء استجلاً لاجعابها ثم عرج الى بصرى فلم يصلها الا عند الغروب فدبر حيلة للقبض على حماد شهمة اللصوصية والجاسوسية حتى اذا نبت الواحدة ثبتت الاخرى فجاء باحد خماري بصرى واوعز اليه ان يتغل حيلة بينهم بها حماداً بالسرقة ليكون له بذلك ذريعة للقبض عليه فاذا قبض عليه اتهمه بالجاسوسية او فتك يو بلا شهمة . ولتمام حيلته كان ابوه الحمارث قد سار الى بيت المقدس في عصارى الامس اثناء غياب ثعلبة في السباق وسبب ذهابه ان هرقل امبراطور الرومان وبسمي العرب قبصر الروم كان قد تغلب على الفرس واخرجهم من الشام وانتهى من حروبه معهم في تلك السنة وكان قد نذر انه اذا كشف الله عنه جنود الفرس سار ماشياً على قدميه من حصص الى بيت المقدس ^(١) فلما نصر الله بعث الى الحمارث بن ابي شمران بواقفة الى بيت المقدس ليعده لالزال ويرم ما

(١) السيرة الحلبية جزء ٣

تهدم من الاسوار والحصون في اثناء الفتح . فاستغنم ثعلبة غياب والك واستخدم المجند
كما شاء فجاء بشرذمة منهم الى الدبر وفعل ما فعله كما قدمنا
فلما سمع صوت حماد ورأى السيف يدهد فرّ هو ورجاله على ان يكمنوا لهم في
بعض الطريق

الفصل العاشر

* النجاة *

أما حماد وهند فسافا جواديهما نحو صرح الغدير ولكنها سارا في طريق غير الذي
ظنّا الخادمة تعود منه لئلا نلتقي بهما فيكشف امرها فلما خلّوا في الصحراء وأما من
العبون قال حماد تباً لذلك الخائن والله لوددت ان تكون تلك الطعة في صدره
فنتخلص من شره

فقالت يا ليتها كانت كذلك ولكن هذا الخائن سيأكل جزاء فعله هذه على انني
أخشى ان يكون قد كمن انا في بعض الطريق

فقال حماد طيبي نفساً يا حبيبي فان جنود غسان كلها وجنود قبصر وكسرى لا
نستطيع ان نمس شعة منك ما دمت حياً مقيماً الى جانبك ولقد شهدت ملك اليوم
شجاعة حقرتني في عيني نفسي فسبحان من جمع فيك شجاعة الرجال ورقة السماء واراني
ساعة وقت ذلك الحسام بيدك حبست الجود نفر من امانك وشعرت بقوة فوق
العادة ولو اجتمعت حولي جيوش مجيشة ما حسبت لها حساباً

قالت تلك دوافع المحبة قد نذهب برشد صاحبها فينتقم الاموال ولا يبالي بمجانو
ولعلي انيت بما اواخذ عليه ولكنني فعلت ذلك مدفوعة بحب حماد

فقال لا تكرهوا أمراً لعله خير لكم فقد شعرت بعد هذه الواقعة ان ربط المحبة
بيننا قد زادت مناة ولا أرى في السماء او الارض ما يمكن ان يحول بيني وبينك
فاوقفت هند فرسها كأنها تريد النصر يح امر ذي مال فاوقف حماد فرسه فهدت
بدها اليه فمد يده ونصافها وقالت اعهذك عهداً مقدساً اني باقية على حبك الى آخر
نسمة من حياتي ولو حال دون ذلك كل مصاعب بني الاسان

فنسي حماد موقفه لعظم غرامه بها وسروره بما شاهد من حبها وقال لها ان هذا العهد يا هند لينسني كل اسباب الشفاء والله لا فتحن اعظم الاخطار واجوب الباني والفنار في سبيل حبك يشهد علينا سهيل والميزان وسائر نجوم السماء والله اكبر الشاهدين .

فاطرت هند وقد غلب عليها الحياء . ولسان حالها يقول واما اعاهدك بذلك ايضا فقال لها حماد اما وقد تعاهدنا على الحب فلنكن تلك الاساور عربون المحبة وقد قدمتها لك عن غير قصد وهي مقدمة حفيظ بحاسب مقام بنت ملك غسان فهل نقبلين بها تذكارا

فظرت اليه وفرسها يشاغلها بالاقدام والاحجام كأنه شعر بما يتقد فوقه من الواح الغرام وقالت ذلك بذلك على ان حبنا مقدر منذ الازل وقد اراد الله ان تكون هن الاساور عربونا لذلك الحب فسا حافظ عليها ما بقيت ولكن انعلم ما هو تذكاري عندك قال كيف لا اعلم وصاصلة تلك الدرع لا ترال ترن في اذني فهي ستيني غملات الزمان باذن الله

قالت لقد احسنت فهم المراد حرسك الله ووقاك فلما تبادلوا العهد وخزا الفرسين ولم تمض رهة حتى صاروا على مقربة من صرح الغدير وقد عرفاه من البيران الموقفة بالقرب منه وهي نار الفرى كان يوقدها الفسانيون لاهداء المارة ممن يريدون طعاما او بيتا (١)

فوقف حماد وقال هذا قصرك فسيري اليه فاني عائد الى منزلي فقالت اخاف عليك ذلك الخائن واخشى ان يكون كامنا رجاله في بعض المكامن والليل بهم فرما اراد بك سوءا

فهز رأسه استخفافا وقال ذروني وكل جند ابي ولا تخافي علي باسا باذن الله فالحمت عليه ان يدخل النصر بحيلة الضيافة منفردا فقال امك انتز يدني رغبة في المسير منفردا ولني لأستحي من نفسي ان اخاف ابن الحارث ورجاله ولو كما الوفا فلما لم نجد سبيلا الى اقناعه ودعته فقبض على يدها وضغط عليها وجددا الوعد ودعا طاهرا وقالت سر مجرسة المولى وكلاءته وسارت هي نحو القصر فلبث هو واقفا حتى تخفى

دخولها الحديثة فتحول نحو منزله وهو على مسافة بعيدة عنه فوخز جواده وجد في المسير زميلاً وقد ترك قلبه في صرح الغدير ونسي نفسه فلم يشعر إلا وهو في مكان لم يعرفه فأوقف جواده ونظر الى ما حوله فاذا هو في ارض قفر لم بعدها قبلاً ففكر رهة لعله يفقه ابن هو فلم يستطع فنظر الى النجوم واراجها وكان خيراً ما علم الملك فرأى انه اخطأ الطريق وان منزله في جهة غير التي كان سائراً فيها فشكر علم الملك لانه كان وسيلة في اهدائه الى سواء السبيل وحزّ لعان جواده نحو الجهة التي ظن انها تؤدّيه الى منزله حتى وصل الى البساتين والمغارس

وفيما هو سائر زميلاً بين الاشجار والطريق كثير المحصى اذ سمع وقع حوافر جواد مسرع نحوه فاصاح بصعده واحدق بعينيه لجهة الصوت فاذا به ينترب نحوه فامسك بعنان جواده حتى مشى خبيهاً ينظر الى جهة الصوت والظلام حالك فاذا بالمغارس يدنو منه ثم سمع صوتاً يناديه حماد فعرف انه صوت احد خدمته فاجابه (سلمان) وهو اسم ذلك الخادم قال نعم يا سيدي قف عندك فوقف حتى تقابلا فقال حماد ما الذي جاء بك الان

قال أدرك عان جوادك واتعني لاخبرك المنبر وأسرع فتبعه وسارا اهاجاً وهما لا يتكلمان وقد انشغل بال حماد لذلك حتى بعدا عن مساكن الناس وافردا في الصحراء فامسكا عانّي الفرسين فقال حماد قل يا سلمان ما سبب هذا العدو وما الذي جئت من اجله

قال جئت بأمر من سيدي والدك ان تفرّ من غسان الى عمان
قال ولماذا قال لان صاحب بصرى بعث شزيمة من رجاله فقبض على سيدي والدك واستولى على كل ما في البيت

فبغت حماد وقد علم الدبيب ولكه نجامل وقال ولماذا فعلوا ذلك
قال زعموا انه جاسوس من ملك العراق فساقيه محموراً الى بصرى وسمعت الرجال يسألون عنك في نادية الرأي فلما لم يروك قبضوا على سيدي والدك ونهبوا المنزل ولم يغادروا شيئاً فأسرّ الي والدك ان افنتي اترك واقرّ بك الى عمان تنتظر هناك شهراً فان ابطأ علينا مجئنا عنه في بصرى
قال وهل أصابوه بسوء

قال كلاً يا سيدي ولكنهم اوثقوه وساقوه الى بصرى ولا بد من أنف بنصلى
ابرك للقبض عليك وهذا ما حمل سيدي على تحذيرك فخرج ذو'بون الى جهات عمان
يقم فيها متكرين شهراً ثم يقضي الله بما يشاء .

فانقضت نفس حماد عند ذلك وكادت تحنقه العبرات وعلم ان الذين قضوا على
والده هم تلبية ورجاله فحدثته نفسه ان يشي عمان جواده الى بصرى وقد كبر عليه العمار
ولكنه اطاع والده وسار مع سلمان صامئاً يكر في حاله مع هد وكف ساقه الحب الى
هذه العاقبة فعلم ان مشياً من صامئين قال حماد اعرف هذا الطريق يا سلمان

قال نعم يا سيدي اعرفها جيداً فقد طرفتها مراراً مع سيدي والده مذ بضعة
اعوام . وكان سلمان شاباً في الثلاثين من عمره رافق عبد الله في اكثر اسفاره حتى
حكته التجارب وعلمته الايام وكان سبهاً قطعاً يستهلك في خدمة مولاه وكان عبد الله
يركن اليه في مهماته ويثق به في معظم اعماله فلما تخلى وقوعه في الاسر عهد اليه العباية
بحمد وهو يؤمل ان يتخلص من اسره فيجتمع به فأمره ان يسير به الى عمان وهي مدينة
قديمة واقعة على نحو ستين ميلاً من بصرى جنوباً مع انحراف نحو العرب كانت تسمى في
عصر الاسرائيليين (راث غمون) وكانت عاصمة العمونيين الذين تصافروا هم
الموابيون واخرجوا سكان شرقي البحر الميت والاردن واحتلوا مكانهم ولهذا المدينة ذكر
كثير في التوراة وقد تخرست مراراً حتى بناها بعلميموس فيلادلفوس ملك الاسكندرية
في القرن الثالث قبل الميلاد وسماها فيلادلفيا^(١) ثم صارت في اوائل المبلاد اسقفية
ذات اهمية كبرى يقيم بها اسقف تحت ادارة اسقف بصرى الاكبر فيها كثير من الابنية
الرومانية كالنلاع والهيكل والكنائس^(٢)

وما زال حماد وسلمان يسيران زميلاً حتى انتصف الليل وبعد ان بصرى
كثيراً فوقنا وقد تعب الجوادان وطلع القمر وكان في ربه الاخير فارسل
أشعته على تلك السهول والجبال والارض خالية لا أثر للأدبيين فيها ولكنها مكسوة
بالغابات واكثرها من شجر الزيتون والجوز فسارا حثيثاً وحماد عارق في بحار التأمل
نقاذفه الهواجس وقلبه يخفق نارة حواء لهد وطوراً خوفاً على والده فاذا تصور تلبية
انقذت نيران الانتقام في جسمه وود لو يلقاه ليقطعه ارباً ارباً ولكنه كظم ما في

نفسه وعاد إلى الحديث مع سلمان والجواديان بحريان على الرمل لا يسمع لحوافرها صوت والجو هادئ وضوء القمر ضعيف . فقال حماد اخبرني يا سلمان كيف فعل هؤلاء الطغام بوالدي وبالمنزل

قال كنا في غفلة ومولاي في قلق لغيابك من الصباح وهو لا يدري الى اين سرت فلما غابت الشمس ولم تأت ازداد قلقه فهم بالركوب للتنقيش علك وفيما نحن في ذلك وقد اسرحت جوادي لارافقه اذ سمعنا صهيل الخيول ووقع حوافرها ونقاطر ارجال عشرات فأحاطوا بالمنزل فسألناهم عن المخبر فقالوا ابن الامير حماد واغلقوا بالمقال فسألنا عن أمرهم فلم يجيبونا الا بالشتيم والسباب فأجبناهم بثل مقابلهم فبهلوا بسلاحهم وخيلهم وقبضوا على سيدي الامير بعد ان دافع دفاعاً حسناً وكان اعزل فأوثقوه وسقطوا على المنزل فنهضوه فاعتنمت فرصة اشتغالهم في بالتهب ودنوت من سيدي فاوصاني ان اغتني أثرك واحذر من الجيء كما اخبرتك ولولا التفادير لقبضوا عليّ ولكنني بحمد الله تمكنت من الفرار وجئت اليك

فقال وهل أخذوا متاعنا واموالنا

قال انت تعلم يا سيدي ان المئونات من الذهب والنفضة مكنوزة في مكان لا يعرفه احد سوانا ولكنهم اخذوا ما عثروا عليه من الاثاث

فتذكر حماد الدرع فقال وهل اخذوا الدرع التي جئت بها بالامس
قال كلاً فانها في هذا الخرج على فرسي وقد حفظها الله صدفة لوجودها في هذا الخرج

فسرّ حماد لبقاء الدرع لانها تذكر من حبيبته هند

وفيما هما في الحديث انسا نارا عن بعد فقال حماد وما هن النار ألعلا على مقربة من القرى

فوقف سلمان ونظر الى ما حوله وفكر قليلاً ثم قال ان النور الذي تراه هوفي بلدة يسمونها بيت الجمال او ام الجمال ^(١) فاذا شئت ان نخول اليها فعلنا والا فاننا سنشرف على جدول فيه ماء نشرب منه ونسقي جوادينا ونبيت فيه بقية لياتنا
قال دعنا من البيوت لئلا ينكشف امرنا

الفصل الحادي عشر

* مسبعة الزرقاء *

وسارا حتى أشرفا على واد فيه ماء جار من الشرق الى الغرب وقد غطته الاشجار من الجانبين فوقنا في اعلاه ونظرا الى اسفله فهاهما منظر لسكون الطبيعة، وهدى الليل وضعف الاظلال لا يسمعان سوى نقيق الضفادع وقرقر حبل القر وحنيف الشجر حنيقاً، برور النسيم وشعرا يبرد خفيف فترجلا ونزلا الوادي يقودان الجوادين وراءها وضوء القمر لضعفه لم يكن يريهما الطريق الا بصيصاً وكأما يسمعان لوقع حوافر الخيل دويماً يردده الصدى من جوانب الوادي حتى يخال لهما ان فرساً آخر ين قادمون اليهما ثم لا يلبثان ان ينتبها الى الصدى على ان هيئة المكان كانت متسلطة عليهما وخصوصاً سلمان فقد كان أكثر وجلاً من حماد ليس لضعف فيه بل لعلمه انها على مقربة من الزرقاء وهي مسبعة مشهورة بالضراوة وفيها السباع^(١) ولكم كنم ذلك عن حماد لئلا يثير هواجسه وانخذ التدابير اللازمة للدفاع عند الحاجة فظلاً سائرين حتى اقتربا من الماء ونظرا الى موقفها فاذاها في واد بين جبلين والوادي نكسوه النباتات وبينها اشجار هائلة

فشد سلمان اليه يمين الى شجرة على مسافة من الماء ريثما يستريحان قبل الشرب وسار مع حماد الى الماء فغسلا وشربا فنزع حماد كوفيته وعنص شعره لئلا يرف على كنفه ووجهه ثم افترش سلمان عباءته على منبسط من الارض نحت شجرة جالساً عليها والجوادان بصحلا ن ويخصان الارض في طلب الماء

ثم اتكأ حماد وجلس سلمان الى جانبيه يحادثه وحماد ساكت وذهنه مشغول بنقيق الضفادع ونعيق الغربان على تلك الاشجار وحنيف الورق والاغصان وخرير الماء ولولا شواغله بهواجسه في والوهند وتعلبة لحاف منظر ذلك الوادي ولكم كان لا يزال متفجعاً لتفادفه الشواغل فلبث صامتاً لا يتكلم فتكره سلمان وسار الى الجوادين فخلها وجاء بهما الى الماء ووقف بهما على منحدر بالقرب من مجلس حماد وضم العناوين ورابطها ووقف بجانبها يتلاهي ببند حسامه وعمائه شاخصتان الى قم تلك الجبال كأنه يتوقع

محدوراً وحماد غافل عن كل ذلك بهواجسه فلما روي الفرسان اعادةها الى مربطها وجاء الى مجلس سيد واسند ظهره الى جرع الشجر وكان النعيب قد أخذ من حماد مأخذاً عظيماً فالتفت بعباءته وغلب النعاس عليه فنام اما سلمان فلم يسطع رقاداً خوفاً من غائلة السباع وجعل يتوسل الى الله ان يمضي ذلك الليل بسلام فما زال كذلك الى قبل الفجر فذلت عيناه وهو جالس ولم يكذب بغضها حتى سمع صهيل الجوادين معاً وقرقرة اللجابين فاتقته ونظر اليهما فاذا بهما قد اجنلا فحرق قلبه واستعاذ بالله ونهض لساعته والتفت يمينه ويساره فلم ير شيئاً ثم سمع قرقرة حجارة تندرج من قمة الجبل المقابل لها حتى وصل بعضها الى الماء على مقربة منه واجنل الجوادان واكثرتا من الصهيل فاتقته حماد وصاح ما هذا يا سلمان

فقال انهض يا سيدي انا في خطر فنهض حماد واسرع سلمان اليه قائلاً نحن على مقربة من الزرقاء فلعل بعض السباع جاءت ترد الماء ولا خوف علينا منها لان الماء ينصل بيننا وبينها فهل الى جوادك ولنعذ من حيث جئنا فيها بالجوادين وما كادا يركبان حتى رأيا اسداً منخدرًا نحو الماء يتمايل عجلاً بمشيتيه المعهودة والاحجار تندرج امامه وعيابه تلالاً كأنها سراجان متقدان فاشيا العاصين نحو الجبل فسمعها صوتاً كالرعد الفاصف ارجت له جوانب الوادي فقال سلمان هذا هو زئير الاسد يا سيدي فاسرع بنا ولا تحف فان الماء حائل بيننا وبينه

فوخرا الجوادين وصعدا حتى وصلا الى مرتفع والاسد يزأر عن بعد وها بحسبان ورائها هول صوته ومحاوثة الصدى فلما وصلا قمة الجبل انفتحا الى الوادي وكان النور قد لاح فشاهد الاسد عد الماء يشرب .

فقال حماد ما فعلت بنا يا سلمان وكيف جئت بنا الى هذا المكان قال جئنا مضطراً وعهدي به بعيداً عن مسعة الزرقاء والظاهر ان هذا الاسد قد بعد عن عرينه كثيراً فورد الماء ولا يلبث ان يعود ولا خوف علينا باذن الله . فوقفا رهمة ينظران الى مجرى الغدير في اسفل الوادي فاذا بالاسد بعد ان شرب التفت يميناً وشمالاً وزأر زأرة اصطكت لها مسامعها وكان ذلك اول عهد حماد بالزئير ما سلمان فكان قد شاهد الاسد وسمع زئيره في بعض حدائق كسرى بالمداين وراها تنغالب وتتصارع

أما حماد فما زال يراعي الأسد في صعوده الجبل وهو يتمايل بمشيئته تبهًا وقد ارسل ذنبه فوق ظهره حتى توارى عن نظرها وكادت الشمس قد اشرقت او كادت واحسن حماد بالجوع فصلاً عن التعب فقال ما عهدك بالطعام هنا قال خلّ عملك الاهتمام به فاني كافل كل اسباب الراحة فسرنا قليلاً فاننا لا نملك ان نصل الى دير على مقربة منا نقيم فيه يومنا ضيوفاً ونبيت ليلتنا ثم نصبح مسافرين . قال حسناً ومشياً برهة فاشرفا على بناء فوقه قبة عليها صليب فعلما انه دير وفيه كنيسة فنزلا هناك فاستقلاهما الرهبان بالترحاب وازلوهما على الرحب والسعة ففضيا ذلك النهار في الراحة والطعام وكان طعامهما قاصراً على اللون بسيطة لكنهما لذبتة وفي جملتها انواع من الحبوب والفشدة واللبن واللحم المقلّي مع البيض وانواع الدقيق المجفف والزبيب والجوز والمشمش المجفف فضلاً عن الخبز المعنقة فان خمر الديور مشهورة بمجودتها ولاقيا من حسن وفادة اهل الدير ما شغاهما عن هواجسها على ان حماداً لم يهدأ له بال ولا رحمت صورة هند من مخيلته كما كانت لما فارقتها المرة الاخيرة ليلاً راكبة الى قصر القدير وهو ينتظر وصولها اليه

فباننا تلك الليلة في الاحاديث المتنوعة واكثرها مما جرّ اليه حديثها عن ذلك الأسد فعلمنا ان المسبعة بعيدة عن الدير ولكنهما في طريقهما الى عمان ولا مد للساير الى عمان من المرور فيها الا اذا دار في طريق طويل بعيد ولما أصبحا نزوداً وصلياً وساروا على ركة الله وسلمان بنضّل المسير في الطريق البعيد خوفاً من السباع وحماد بأف من خوفه ويشئيه عن عرو

الفصل الثاني عشر

* عبد الله في السبعين *

فلنتركهما سائرين الى عمان ولبعد الى عبد الله وما كان من أمره فقد نذّم انه سار الى بصرى بتهمة الجاسوسية مخفوراً وهو يعجب للعنف الذي اتخذ الرجال في القبض

عليه ونظراً لعلومه وبراهنه ساحتها تحقّق انه لا يلبث ان يقف امام الحارث حتى يثبت براءته فيفرج عنه فيذهب الى عمان حيث يلتقي بمجاد تمّ بأتيان لوفاء النذر بدبر مجيراء وهذا ما حملة على ضرب الاجل شهراً وقد فاته السبب الحقيقي للقض عليه

أما الجند فساروا به الى بصرى وحجروا عليه في غرفة من غرف قلعتها جنوبي السور^(١) فمات بقية ليلته قلق البال على حماد لئلا يأتي المنزل وهو لم يلتقي بسلامان فيقع في الفخ فلما مضى الليل ولم يأتوا به ترجح عنده نجائه وفي الضحى جاءه رجلان عليها لباس الجند الروماني وهو الخوذة من النحاس الاصفر يتدلى منها خصل من شعر اذنان الخيل والادراع من الفولاذ تحميها اثواب حمراء لا تتجاوز الركبة وكان هذان الجنديان يحمل كل منهما حربة صغيرة ونرساً من الفولاذ وعلى صدر كل منهما شرائط من الحربر مزر كشة بالذهب على شكل حرفين احدهما II عرف انه الحرف الاول من اسم الامبراطور هرقل والثاني لم يعرف تفسيره ولكنه الحرف الاول من اسم الفرقة التي ينتمي اليها الجنديان ولكن هذه العلامة قلما كان يتقلدها غير الخيالة منهم^(٢) وكان مع الجنديين رجلان من جد ثعلبة لباسها العربي فاشاروا الى عبد الله فتقدم وصعدوا به الى طابق علوي في القلعة حتى وصلوا قاعة مفروشة باحسن الاثاث الروماني وفي صدرها عظيم روماني علم من لباسه ومفعنه انه رئيس الحامية الرومانية كان جالساً في صدر القاعة على كرسي مذهب بصعد اليه بدرحيتين متشحاً بقميص مدرّع بهراشف من نحاس مملأة بالذهب تحته ثوب ضيق لا يتجاوز الساقين الا قليلاً^(٣) وكان ضخماً كثير العضل والدهن وشاهد بين يديه رجالاً اكثرهم في مثل لباسه وهم اهل مجلسه من الروم الا رجلاً جالساً بالقرب منه عليه لباس العرب عرف انه ثعلبة بن الحارث فتخفى عبد الله انهم يسوقونه الى قائد جند الروم ببصرى فدخلوا به اليه فوقف متأدّباً وهو موثق فخطبته القائد وكان اسمه رومانوس^(٤) بواسطة الترجمان قائلاً: ما اسمك

قال عبد الله

قال من أي البلاد انت

(١) ودنين (٢) تاريخ الرومانيين (٣) تاريخ المملكة الرومانية الشرقية

(٤) السيرة المحلية جزء ٣

قال من العراق

» وما هي مهنتك

» اني من امراء العراق اعيش من ربح املاكي او اتجر ببعض اصناف التجارة

» وما الذي جاء بك الى هذه الديار

» جئت لأني نذراً بذرت له دبره لدبر بجيرا

» وما هو نذرك

» ان اقص شعر ولدي في العشرين من عمره

فالتفت رومانوس الى ثعلبة وتحاطبها سرّاً ثم نظر ثعلبة الى عبد الله واستقدمه حتى دنا منه فقال له كيف ندعي انك جئت لنقص شعرايك وانت مقيم هنا منذ اشهر ولم نقصه

قال لاني نذرت ان لا اقصه الا في يوم احد الشعابين القادم فضحك استخفافاً بتلك التهمة وقال تلك حجة واهية لا ترد عنكم تهمة فانتم جواسيس من قبل ملوك الحيرة ولولا ذلك ما اقمتم في قرية بعيدة وتستترع عنا وحاولتم اخفاء امركم فمن كان في مثل ما انتم فيه من اليسار لا يترك مدينة بصرى بمبتهزاتها وشوارعها ومراسعها وملاعبها ويقيم في قرية حقيرة مثل قرية غسام فاعترف بالحقيقة لئلا يزداد العقاب عليك

قال قد قلت لكم الصدق كل الصدق

فقال ليس للصدق نصيب من مقالك وزد على ذلك انكم تدعون بالانساب الى امراء العراق وقد امسكنا غلامك أمس بسرقة

فلم يفهم عبد الله معنى هذا القول وطعمه بقوله ليستطلع شيئاً جديداً عنه فقال لعلمكم اسأتم الهم فاننا لا نعرف مثل هذه الاعمال ولدينا من نعم الله ما يكفيننا مؤونة السرقة او غيرها

فهر ثعلبة رأسه استهزاء ثم اخذ يلعب شاربه عجباً وقال قد تحفت الآن جاسوسيتك وستكشف ذلك عما انتم قام اليه واخذ يفتش اثوابه وجيوبه بدعوى البحث عن اوراق او أشياء اخرى نويد تهمة فوجد في بعضها حقاً فتحة فاذا فيه خاتم فيه فص كبير من العقيق الاحمر فناً مله ثعلبة فاذا عليه كتابة بالحرف السطرنجيلي وهو من الافلام التي

كانت مستعملة في العراق فحالما قبض ثعلبة على الخاتم ظهرت الغنة على عبدالله ولكنه تجلد فجعل ثعلبة يقلب الخاتم بين يديه ويتأمل فلم يستطع قراءته فالتفت الى رجل من التراجمة حوله وقال له هل تستطيع قراءة ما على هذا الخاتم فأخذ وقرأه وجعل ينظر الى عبدالله تارة وإلى الخاتم أخرى ظهرت على وجه عبدالله بلامح الخوف والحضور ينتظرون ما بقوله الترجمان حتى ملّ ثعلبة الانتظار فقال له قل ماذا قرأت

قال ان على هذا الفص اسم « النعمان بن المنذر » وعليه شارة الملك فبهت الجميع وحملوا يتأملون ذلك الخاتم واحداً واحداً وينظرون الى عبدالله واخبراً خاطبه رومائوس قائلاً كيف اتصل هذا الخاتم اليك

فاجاب وهو يحاول ان لا يتجلىج وقال انتعنه من بعض الصاغة فانهم ثعلبة قائلاً اتقول بعد هذا انك لست جاسوساً وانت تدعي انك انتعت خاتم النعمان بن المنذر ملك العراق من بعض الصاغة . متى كانت خواتم الملوك تباع في الاسواق قل ما الذي اوصل هذا الخاتم اليك . فلم يجب فاعاد السؤال عليه ثانية وثالثة فاصر على الصمت

فنفواض ثعلبة ورومائوس سرّاً ثم قال لعبدالله ان وجود هذا الخاتم معك مما يزيد الشبهة بخيانتك الا اذا اخبرتنا كيف وصل اليك وماهي حكايتك فسكت ولم يجيب . فازداد حتى ثعلبة وقال له قلّ أجب

فقال عبدالله قلت لك اني لا اعرف عنه غير ما قلته لك وهو انه وصل اليّ بالعرض في سوق الصاغة فالظاهر ان حضرة المترحم لم يحسن القراءة اولعل ما قرأه اسم رجل يشبه اسم الملك النعمان

فصحك ثعلبة وقال هذه دعوى فاسدة ولو كان والذي الحارث هما الآن لانت نسبة هذا الخاتم الى النعمان ملك العراق لانه شاهد ختمه على كتفه مراراً وعلى كلّ فالك سنقي في السجن حتى تعترف بالحقيقة والا فانت مقتول شرّ قتلة

قال عبدالله افعل ما بدا لك فما انا ممن يخافون القتل لاني ربي
قال سنرى عاقبة وقاحلك هذه عد ما ناتي بابك الغلام الغر وربك
خيانتة رأي العين

ثم التفت ثعلبة الى الحراس الاربعة وكانوا لا يزالون وقوفاً على الباب وقال
خذوه بعد امر الطريق (الفائد رومانوس) الى برج القلعة واقفوه مخفوراً ربنا
تنظر في امن

وكان لقلعة اصرى برج مشايخ يستقبل البرار منه لان المسجون اذا حاول
الفرار لا طريق له الا النافذة فاذا وثب منها لا يدرك الارض الا ميتاً
فصعدوا به طائفين آخرين وادخلوه البرج وهو غرفة صغيرة ذات نافذتين
وباب صغير فاقفلوا الباب عليه وتركوه وشأنه فلما خلا نفسه اخذ يتأمل في
ما مرّ به في الليل الماضي وذلك الصباح وبراح ما سمعه عن ابيه فلم يفهم معنى
انهامو باللصوصية ولكم شكر الله لوقوعه هو ونجاة حماد لانه ما زال متحققاً بخلصة
من تلك الشراك على ان ظهور ذلك الخاتم عرقل مساعيه واث رهقة يفكر
ثم نهض الى نافذة البرج الشرقية فاشرف منها على مدينة اصرى كلها ساياتها وشوارعها
واسوارها وحولها الاحواض المائية الكثيرة وأشعة الشمس تنعكس عن اسطحها وكان
الجو صافياً فنظر الى ما وراء ذلك فتشاهد في عرض الافق جبالاً عليه سلا يكاد البعد
يحجبها عن نظره ولكم عرف انه قلعة سرخد (صلخد) الشهيرة وبها وبين
اصرى طريق بحري على استقامة واحدة مصرف بالحجارة الضخمة كسائر الشوارع
الرومانية الكبرى وخيل له ان اصرى وضواحيها حديقة يانعة في وسط صحراء قاحلة
لان بلاد حوران حلبية حرداء غبراء اللون ^(١)

وتحوّل من هناك الى نافذة جنوبية فاشرف على ارض اكثر خصباً من تلك يتراءى
فيها عن بعد قرية ام الحمال لا يتميز شيء من انبثها لبعدها فتذكر حماداً ومسيره
الى عمان فقال في نفسه لعله الآن يقرب ذلك المكان مع سلمان ثم حاجت به هواجسه
وتذكر ما مرّ به منذ شويته وحاف ان يقتل قبل ان ييوح لحما يسره وقد كتمه عنه
وعن سائر اهل الارض يفاً وعشرين سنة فتراكت عليه الهواجس حتى نسي موقفه
وما هو فيه من الخطر الشديد

ففضى نهاره في مثل ذلك فجاوزه بعض الطعام فلم يتناول منه شيئاً واث تلك
الليلة وعاد في صباح اليوم التالي الى النافذة فحدثته نفسه ان يثب من ذلك البرج

لعله ينجو فنظر الى اسفل فاذا هناك هوة عميقة لا يمكن ان يصل الى فاعها حياً فصبر نفسه ينتظر ما يجي به القدر

وفي اليوم الثالث افاق على اصوات الواقيس من الاديرة والكنائس فاطل من البافدة المشرفة على المدينة فرأى الناس في هرج ومرج وقد زينت الشوارع سعف النخل واغصان الزيتون وخرج الناس زرافات ووحداً يحملون الشموع واغصان الزيتون يأمون الدبور والكنائس^(١) وفيهم الرجال والنساء وأولادهم بين ايديهم يحملون الازهار والشموع وقد تربوا باحسن ما لديهم من اللباس وانواع الرينة فعرف انه يوم احد الشعانين والناس يحتفلون به على جاري العادة فهاجت هواجسه وتذكر حماداً وموعده بذره فعظم عليه الامر واشتد به ذلك حتى بكى ولكنه ما لبث ان عاد الى صوابه وتجاد تجلد الرجال المحنكين الذين خيروا الدهر وعرفوا ثقلبات الزمان فقال في نفسه ان الدهر لا يستقر على حال فلا بد لهذه الازمة من انفراج

ففضى ذلك اليوم وبضعة ايام اخرى لا يأكل الا قليلاً وقد هدأ روعه وجعل يفكر في وسيلة ينجو بها من تلك الورطة وهو في كل ذلك يحمده الله لخجاة حماد من ذلك لانه لا يصبر على الاذى ولا تعود مشاق الزمان وكوارث الحدثنان ففي ذات صباح جاءه الحراس وامروه بالازول الى المجلس فنزل وقد استعد للدفاع فلما وقف بين يدي رومائوس وثعلبة قال له هذا كيف ترى نفسك

قال ارى اني اسير بين يدي حضرة البطريق

« لماذا لا تعترف بحقيقة امرك ونحن نعدك بالانفراج

« قلت لكم الحقيقة فلم تصدقوني

« انبئنا اين هوايتك فتغنو عنك

« من ابن لي ان اعلم ذلك وقد اخذتوني على غرة وهو خارج ابنت فلا

اعلم مقدر

ثم ناداه رومائوس قائلاً انظر يا هذا اذا انت اصررت على الانكار لا يرى بدءاً من ارسالك الى مولانا الامبراطور في حصص هو اولى بالافتصاص منك واذا

وصلت اليو لا يخيك من بين يديه حيلة فالأفضل لك ان تعترف بالحقيقة ها ونحو
بنفسك

قال قلت لكم الحقيقة فلم تصدقوني فافعلوا ما بدا لكم
فامر رومانوس باعداد خبر يسير بعد الله والخاتم الى حمص فيدفعها الى
الامبراطور هرقل فقال عبد الله بنفسه لعل في ذلك باباً للفرج فان الامبراطور
اكثر رافة وتعفلاً من هؤلاء . فاركوه فرساً وهو موثق وحوله عشرة خفراء بينهم خمسة
من جند الروم بلباسهم المتقدم ذكراً وقد ركوا الخيل بلا ركاب على جاري عادنهم

الفصل الثالث عشر

* هرقل *

وكان هرقل اذ ذاك في حمص جاءها على اثر انتصاره على الفرس انتصاراً لم
يكن يتوقعه فنذران يسير الى بيت المقدس ماشياً^(١) فوصل عبد الله الى حمص
وقد خرج هرقل منها على قدميه وفاء لذرته والحارث بن ابي تمر الغساني قد
جاء حمص ليتولى تدبير ما يلزم لذلك المسير فكان هرقل يسير ماشياً والطاركة
والاساقفة بين يديه وقد لبس الناج ونوكاً على الصولجان منزلاً شواحج ارجواني
مزرکش^(٢) وامامه الحاوت ورجاله يفرشون له البسط في الطرق ليشي عليها فصار
عبد الله مخفوراً وراء الموكب من حمص الى بيت المقدس ورأى الجند يحف بالموكب
وكلمه مشاة يتقدم كل فرقة منهم علم في اعلاه نسر من النضة او صليب الاسرية صلبيها
من الذهب مرصع بالياقوت والاماس كانت تحيط بالموكب عن قرب . وكان الناس
في اثناء الطريق يخرجون من القرى والمدن لمشاهدة الامبراطور ماشياً وحاشيته
حوله يسيرمون جميعاً على البسط والسجاد والناس يلقون الازهار على الطرق وبعضهم
يسثرها على الامبراطور ورجاله وآخرون يرشون الطرق والمارة بالارواح العطرية
على اسواقها^(٣) حتى وصلوا بيت المقدس وقد زينها اهلها وخرج البطريرك

الاساقفة بالصلبان والمباخر يحرقون فيها الحبوب والد والعباد يسبرون بالمشاعل امامهم فاستقبلوا الامبراطور على مسافة خارج المدينة وعادوا به بالترانيل والاناشيد والصلوات والناس يزاحم بعضهم بعضاً ينساقون لمشاهدة الامبراطور وكانت شوارع بيت المقدس نفع عجيباً بالمارة فصلاً عن المطالين من النوافذ والشرفات والاسطحة حتى وصل الموكب الى كنيسة القيامة والواقيس تدق والنسس يرتلون ويسبحون ثم اقيمت الصلاة شكراً لله على ما اولاهم من النصر على اعدائهم الفرس

كل ذلك وعمد الله وحراسه يرافقون الجماهير فلاحظ عند اشرافهم على اسوار المدينة انها منهزمة واثار منغبي الفرس والروم لا تزال ظاهرة فيها حتى لحق معظمها بالارض وما زالوا سائرين حتى اتوا دار الحكومة فساقوا عمد الله الى السجن فلما اصبحوا ساروا الى الحارث بن ابي تمر فبلغوه الرسالة وسلموا اليه عبد الله واحكموا له حكايته ودفعوا اليه الحاتم فحفظه حتى بعرضه على هرقل فبقي عند الله في محبته شهراً لم يتمكنوا في انشائه من تقديمه الى هرقل لتزاحم الوفود من سائر الانحاء بهتئون الامبراطور بما اوتيه من النصر

فلما تمت مهمة الحارث وهم بالرحوع الى مصرى تذكر عبد الله فاستأذن هرقل ان يدخل به عليه فاذن له فساقوه مخنوراً الى قاعة كبيرة بالقرب من الكنيسة اعدت لجلوس الامبراطور ورجال دولته قد احدث بها الخمر ناسلحتهم وملابسهم الرسمية وقوفاً اجلالاً للامبراطور فدخل اولاً الحارث ثم استدعى عبد الله فدخل القاعة وقد هاله ما فيها من مظاهر الابهة والعظمة فشاهد الامبراطور جالساً في صدر القاعة على سرير من الذهب الخالص يكاد لمعائه يبهير الناظرين وعلى رأسه تاج مرصع يتلألأ كالمصابيح وعلى مكبيه وشاح من الخز ساوي اللون مزركش بالذهب وفي يده صولجان الملك وهي عصا طويلة من الذهب المرصع في اعلاها رسم النسر الروماني مرصع بالمحارة الكريمة . وكان هرقل كبير الجثة عظيم الهبة زاد المشهد وقاراً والى يمينه بطريك اورشليم بلباسه الرسمية وعصاه والى يساره سرجيوس بطريك القسطنطينية والى كل من الجانبين القواد والاساقفة وسائر رجال الدولة على كراسٍ من الذهب وكانت ارض القاعة مكسوة بالصناديق المزركش والابسطة الثمينة

ورأى بين الاساقفة اسقفًا شامخًا من في الحيرة وهو كبروس اسقف فاسيس في بلاد الاكراد وكان يسمع بسعة علمٍ ودماؤه فحبب لوجوده هناك وازداد عجبًا لما رآه جالسًا بجانب البطريرك الاورشليمي في منزلة البطارقة ورأى بجانب البطريرك القسطنطيني بطريركًا لم يعرفه

فلما دخل عبد الله هالة الموقف ولكمه تجلد وقد علمته الايام ان ما يراه من مظاهر الأبهة ليس الا اعراضًا زائلة وإن الحق سلطان يعلو ولا يعلو عليه ولم يكن من شأن الامبراطور النظر في مثل هذه الدعوى الجريئة لولا ما همه من امر الخاتم فاحب استطلاع امره بنفسه فلما مثل عبدالله بين يديه خاطبه والحارث يترجم بينهما فتناول الامبراطور الخاتم بيده وقال لعبدالله

من أين أتيت بهذا الخاتم

فاجابه عبدالله مطرقًا قد جاءني بطريق العرض بامولاي فاشترينته بالثمن قال لا بعقل ان مثل هذا الخاتم يباع بالاسواق او يلقى على الطرق وهب منك وجدته على قارة الطريق ألم يكن الاجدر بك تسليمه الى صاحبه .

فقال عبدالله مولاي يعلم ان صاحب هذا الخاتم اذا صح انه النعمان بن المنذر عامل كسرى على الحيرة فهو في عداد الاموات منذ نيف وعشرين سنة

قال الامبراطور اليس من انثائه احد حيًّا تسلمه اليه

فسكت عبدالله .

فقال الامبراطور ما بالك لا تحجب . أجب ولا تخف وهب منك جاسوس او شبه جاسوس فتغن لا تخاف الجاسوسية بعد ان منحنا العناية الصديقية اكايل النصر على اكايرتك

فقال عبدالله لقد نطق مولاي ببراءتي من الجاسوسية من تلقاء نفسه والحمد لله اذ لم يبق ثم حاجة اليها والصلح قد عقد بين جلالته وكسرى ملك الفرس بعد ان كان ما كان من ظهوره عليه

قال هرقل نعم ذلك ولكننا شديداً الرغبة في معرفة كيفية وصول هذا الخاتم اليك وسبب اقامتك بجوار بصرى كل هذه المدة . تنكراً على ما علمت من عاملنا هناك

فظلَّ عبد الله طرْقاً ولم يحجب
فقال الامبراطور قل يا رجل قل فان هرقل امبراطور الروم يخاطبك
فجئنا عبد الله عند قديمي الامبراطور كأنه يحاول تنفيلها وقال انا اعلم ذلك
باسيدي ولكنني لا استطيع التصريح بأكثر مما فهمتُ به بين يديك
قال اذن انت تكتم امرًا تخاذران تبوح به
قال أجل لقد صدق مولاي
قال ان كنتم ذلك عن امبراطور الرومانيين ألا تخاف بطشهُ او نخشِي الحكم
عليك بالاعدام
قال لا أظن احداً لا يخاف الموت ولكنني افضله على التصريح بهذا السر وما ابي
بين يديك فأمر بما تشاء.

فحجب هرقل لهذا الاصرار وقال يا للعجب انقول ذلك ولا تخاف
قال اني على يقين يا مولاي بان موتي وحياتي بين شفتيك ولكنني لا استطيع غير ذلك
فالتفت هرقل الى من حوله من البطارقة والاساقفة والقواد وقال ما قولكم بين
المجسرة فاني اراني ازداد مبالاً لمعرفة سرِّ هذا الخاتم فالتفت البطريرك الاورشليمي
الى عبد الله وحرضه على الافرار عبثاً وفعل مثل ذلك ايضاً البطريرك الانطاكي وغيرها
بلا جدوى

فأراد هرقل تهديد فأمراً بالجلاد فجاء والسيف يمينه فقال له ثني برأس هذا
الرجل فقادته الى باحة الكنيسة وعبد الله يسرع امامه لا يتردد لحظة فربط عينيهِ
واركعته على نطع ودار حولة دورة والامبراطور يراه من داخل فلما دار الدورة الثانية
استقدمه هرقل وامر بحل رباط عينيهِ وقال له ألا تزال مصراً على الكتمان
فقال عبد الله اقسم برأس مولانا الامبراطور وسر الثعلب المقدس ان ليس في
أمر هذا الخاتم ما يمس جلالكم بوجه من الوجوه ولكن كتمانهُ فرض عليّ واجب لا
استطيع التخلُّو عنه

فازداد الامبراطور استغراباً وقال لمن حوله وكيف العمل اذا
فقال عبد الله اذا أذن مولاي في أمر يكون فيه راحة لخاصة فعلته
قال وما هو

قال انا معشر النصارى نحترم سر الاعتراف فاذا شئتم ان ابوح بسري هذا
لغبطه البطريك الاورشليمي على شرط ان يشير الى جلالكم في علاقة هذا السر
بكم او عدمها بغير ان بصرح بتفاصيل قصتي فاذا قال لكم ان لا علاقة لها بكم تخفتم
صدق قولي وعذرتوني على كثرتي

قال لا بأس من ذلك وأشار الى البطريك فخلا بعبد الله في الكنيسة ساعة
اطلعه فيها على سر ذلك الختام

ولما هما بالرجوع الى القاعة قال عبد الله ارجو من مولاي البطريك ان يخبرني
عن البطريك الجالس بجانب البطريك سرجيوس من هو

قال هو اثناسيوس بطريك البعاقبة ومقامه في الاسكندرية وقد جاء لمقابلة
الامبراطور وامله بغنم الفرصة المداولة معه بما هو جار من الاختلاف المذهبي بين
الملكية والبعاقبة في الفطر المصري

فقال وهل ذلك الاختلاف لا يزال متمكناً فقد بلغنا انه كاد يزول
فتنه البطريك وقال ظنناه كاد يزول ولكنه لم يزل فان مولانا الامبراطور
رجل حازم ذوراي شديد وقد علم بعاقبة هذا الانقسام فلاج له ان يخلق وسيلة
للتوفيق بين القائلين بالطبيعتين والمشيتين والطبيعة والمشيتة فاستعان بالبطريك
سرجيوس القسطنطيني فاستنبط منذ بضع سنوات عزيمة متوسطة وهي الاعتراف
بطبيعتين في المسيح لها مشيئة واحدة وفعل واحد وعرض عقيده هذه على البطاركة
والاساقفة فقبلها اكثرهم وفي عزموا ان ينقل البطريك اثناسيوس الى كرسي
انطاكية ويرسل الاسقف كيرلس الى الاسكندرية فيجعله بطريركا واليا عليها
ولعله يقصد بذلك التوفيق بين الكرسيين الانطاكي والاسكندري ولكني لا اظنها
يتفقان^(١) فان التعصب متمكن من الجانبين وايست هذه الاختلافات في اعتقادي
الامحاحكات لفظية بتمسك بها بطاركتنا الناسا للسلطة الدينية واكن هذه ارادة
الله فما اجل المملكة المسيحية ان تكون مذهباً واحداً نقول قولاً واحداً نأبداً لدولة
الروم العظمى فقد كنا ما نغم عن هذه الاختلافات من الاحن والمصائب ولا نزال
نتوقع ما هو فوق ذلك فنطلب الى الله ان يلطف بعبادة

فجذب عبد الله هذه الاختلافات وأعجب برغبة هرقل في جمع كلمة رعيته ونفقت ما سمعه عن تانيوس وحزمه ولكنه لم يكن يرجو له الفوز بعينيه لما يعلمه من تمكن الشخاء بين الأحزاب ثم قبل يد البطريرك وخرجا

وفياهما عائدان نحو القاعة شاهد الحرس في هرج وبهيج رجل غريب بلباس أهل البادية ليس عليه غير الشملة والعمامة تقلد حساناً اعنف وحمل رنحاً وحرية وقد علاه الغبار ولوحته الشمس وظهرت على وجهه آثار الاسفار وكان عبد الله خبيراً بقبائل العرب لكثرة اختلاطهم فلاج له ان الرجل من أهل النجاش فحبب لهجته وليس في بيت المقدس كلك واحد في مثل لباسه وشكله ولولا اشتغاله بأمر نفسه لخلأ به وسأله عن حاله ولكنه اضطر لرافقة البطريرك الى قاعة الامبراطور فدخلوا وجلس البطريرك في مجلسه ووقف عبد الله في موقفه

فقال هرقل للبطريرك كيف رأيت الرجل قال رأيت صادقاً في لهجه وهو معذور في كتمان امره وأمر هذا الخاتم وقد اطعني على خلاصة حكايته فاذا هي مستقلة عن جلالكم ولا علاقة لها بالروم فاطبة ولكنه سرّ مقدس اقسام على كتمانها فلا يستطيع التصريح به الا في جنبه

الفصل الرابع عشر

❖ دعوة الملوك الى الاسلام ❖

فاقتنع هرقل والتفت الى عبد الله وعبد الله مطرق اجلالاً وفاراً وقال قد اخبرنا غبطة البطريرك بعذرك في الكتمان فصغما عنك فكأن مطمئناً آمناً وناول الخاتم بين ونادى الحارث فوقف بين يديه فبلغه عنوه وأمره ان يدفع اليه كتاب الأمان فقدم عبد الله وجثا امام الامبراطور وشكر نعمته ونقده بريد الخرج فرافقة الحارث الى باب القاعة ثم رأى ذلك الديوي قد اذن له بالدخول وفي يد رقب من جلد برید تقديمه الى الامبراطور فاعترضه الحارث فقال الديوي بيدي كتاب الى جلاله الامبراطور اريد تسليمه اليه فاخذ الحارث الكتاب فاذا هو مختم بالطين (١) فقدمه

الى هرقل فاغتنم عبد الله اشغال الحارث وانزوى في بعض جهات القاعة بين الجميع
ووقف يظن الى ما يكون من امر ذلك الكتاب
فراى هرقل قد فضة وتأمله فلم يستطع قراءته فحاوله الى ترجمته فظن اليه ثم
قال انه مكتوب بالحرف الكوفي باللغة العربية
فقال هرقل انله علينا فقرأه فاذا فيه

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم
والسلام على من اتبع الهدى اسلم تسلم يؤتلك الله اجرک مرتين وان توليت فان اثم
الاکابر عليك ^(١) »

محمد

رسول

الله ^(١)

فلما أتم قراءته ترجمته فبغت كل من في الجلسة لشدة لهجته فالتفت هرقل الى
من حوله كأنه يستدبرهم في شأنه وهو لم يفهم المراد منه لأنه لم يكن يسمع تلك الدعوة
الأممياً فقال ومن ينبغي بحكاية هذا الرجل فلم يستطع احد ابصاحا كافيًا وظهر الى
اطراف القاعة فشهد عبد الله اليو فاشار فهرول نحوه متأدباً فقال له هل سمعت شيئاً
عن صاحب هذا الكتاب وامر بالكتاب فدفع اليو فقرأه وقال نعم يا مولاي ان صاحبه
نبي ظهر في مكة من بلاد الحجاز من قبيلة يقال لها قريش دعا الناس الى عبادة
الله وكان اكثر العرب يمدون الاوثان فاجابه جماعة كبيرة منهم بعد ان قاسى مشقات
حسية من اضطهاد بعض اقاربه واعمامه واهل وطنه فهاجر الى يثرب فنصرها لها وشدوا
ازره وانتشرت دعوته في اقاصي بلاد العرب ويظهر من كتابه هذا انه يدعو مولاي
الامبراطور الى التصديق به

فلما سمع ارباب المجلس قوله كثر اللفظ فيما بينهم واظهروا الاستغفاف فالتفت هرقل
اليهم كأنه يستطلع رأيهم فقالوا له ان في كتاب هذا الرجل جرأة كبيرة اذ لا يرى
مسوغاً ان يحقر الامبراطور الى هذا الحد فاشار هرقل اشارة فهم الحاضر ومن معها انه
يلتمس سكونهم فسكتوا والتفت الى البطريرك عن يمينه فاستخضع بالسؤال

فقال البطريك اني ارى في هذا الكتاب جرأة لم يسبق لها مثيل لان كاتبه يبدأ في خطابه بذكر اسمو ثم يذكر اسم جلالته فقد قال « من محمد رسول الله الى عظيم الروم » والعادة في خطاب الامبراطور ان يكون الاستهلال باسمه ثم اسم مخاطبه^(١) فارى بعد امرهم ان لا تعبروا هذا الكتاب الثقاتاً فقال هرقل ولكن علينا ان نجث عن سيرة هذا الذي وصفناه ثم نحن مخبرون في ما نفعله فهل نعرفون احداً من قريش نسأله عنه فقال الحارث اعرف اميراً من امراء مكة عظيماً اسمه ابو سفيان قدم في هذه الاثناء لتجارة في غزة وهو اقدر من يخبرنا عن صفات هذا الذي فقال هرقل المي بو فقال الحارث سمعاً وطاعة فسيكون هذا الرجل منا بعد بضعة ايام ان شاء الله قال الامبراطور فلنعقد مجلساً اذ ذاك يحضر هذا العراقي لانه يعرف العربية فلعله يفيدنا شيئاً

الفصل الخامس عشر

* ابو سفيان *

فقبل الحارث الارض بين يدي هرقل ووقف منادياً ثم ارفضت الجلسة فخرج عبد الله في جملة من خرج وقد أسف لنا آخره هناك وود الاسراع الى حماد وقد داهمه الوقت ولكنه كان قد شاهد ابا سفيان في بعض اسفاره الى مكة ولم يكلمه فاحب ان يراه ثانية ويسمع حديثه عن صاحب هذه الدعوة فمارتوا الى دار الضيافة بالدير فاقام على الرحب والسعة وخرج في اثناء ذلك الى المدينة وظاف احياءها وتفرج بمشاهد ما فرأى فيها اخلاطاً من اليهود ولغتهم جميعاً العبرانية المشوهة بالالفاظ الكلدانية وفيهم جماعة من السريان ورأى جماعة كثيرين من الروم وفي ايديهم اعظم متاجر البلاد وارفع مناصبها وما منزلة الوطنيين بينهم الا منزلة الخدمة

ولم يسمع في احاديث الناس الا الجدل بين القائلين بالطبيعة والقائلين بالطبيعيتين
فتيقن ان ذلك الخصام سيكون سبباً لسقوط هذه الدولة

فلما كان الوقت المعين للاجتماع اجتمع بالحارث وساراً معه الى كنيسة القيامة
فدخلوا صحنها فشاها جماعة من البدو عرف عبد الله من لباسهم انهم من عرب الحجاز
فطن انهم رجال ابي سفيان ونظر فيما بينهم فرأى رجلاً يمتاز عنهم جميعاً بمجمن زيو وكبر
عامته^(١) واتساع عينيه عليه العباءة المزركشة وقد نقلد الحسام بخلاف سائر رجاله
فقد كانوا ينقلدون الرماح ومعظم مكشوفو الرؤوس وفيهم من قد شدّ رباطاً حول
شعره من الاعلى

فلم يتكلم عبد الله ولكن الحارث تقدم الى ابي سفيان فوقف له هذا وقد عرفه
المة الحارث بن ابي شمر فالتى اليه القوية واخبره انه جاء انقياداً لامر الامبراطور فقال
له تربص ربنا ندخل على مولانا ثم نبعث اليك

ثم وصل الحارث وعبد الله الى القاعة فعلما من وقوف الحرس عند الباب ان
الامبراطور هناك فدخلوا وتأديباً فامر هرقل باستقدام ذلك القرشي فخرج الحارث
ثم عاد وحده واخبر الامبراطور ان الرجل ابي الدخول الا بحسامو قال هرقل فليدخل
ولم تمض لحظة حتى دخل ابي سفيان ومعه بعض رجاله فيهرهم ما في القاعة من انطاع
الزينة ودلائل البذخ فوقف ابي سفيان امام الامبراطور ثم قبل الارض بين يديه
وحياه قائلاً « اييت اللعن » وهي تحية الملوك في الجاهلية^(٢) فتلطف معه وامره
بالجلوس فتربع على الارض وجعل سيفه عرضاً على فخذيته وجلس رجاله وراءه فعلم
هرقل انها عادتهم في الجلوس فلم يعترضه ثم خاطبه بواسطة الترجمان قائلاً
من اي القبائل انت

قال من قريش حماة الكعبة

» وما تعني بالكعبة

» هي حجج الناس الى الآلهة

» اتعرف رجلاً اسمه محمد ظهر فيكم يدعو الناس الى دين جديد

» نعم اعرفه وهو من ذوي قرابتي لكنني لست على دعوته فقد جاءنا بدعوة

جديده ونحن على دين آبائنا وطالما نهيناه عن ذلك فلم ينتو
قال هرقل لقد همني امر هذا الرجل واود ان اعرف حقيقة حاله فهل تهتني عنه
وعن دعوتو وما يدعو الناس اليه
فاصلح ابوسفيان مجلسه في تربو كانه بعد نفسه لجلوس طويل ومسط لحيته
باصابعه واطرق قليلاً يكر في امر ذي بال
فابتداه هرقل قائلاً ما بالك لا تجيب وقد اقترحنا عليك امراً بهما الاطلاع
عليه العلك تجهله
قال كلاً يا سيدي ولكنني تذكرت بدء امر محمد هذا وتذكرت والله ثم ما
كان من دعوتو واشارها فنجدد استغرائي له فاذا اذنت بان افص عليك
خبر فعلته
قال ذلك ما اقترحته عليك فقل

الفصل السادس عشر

* سيرة صاحب الشريعة الاسلامية *

ناسد ابوسفيان كوعيه على ركبتيه ليستريح في جلوسه والنفت الى من حوله
واذا هو محاط بجماعة كثير من المطاركة والامراء والنواد فعلم انه بقص حكايته على
اعظم رجال الروم والتجران يترجم كلامه للضرورة الا من كان عارفاً العربية منهم
كالحارث وعبد الله فقال

اعلم ايها الملك اميت اللعن ان محمداً صاحب هذه الدعوة الذي نوصل الى
مخاطبة جلاتكم قد ربي يتيم الابوين صفر اليدين على انه من اصل عريق في الشرف
والسودد من قبيلة قريش التي انا منها ويتصل سبنا بعدنان ونسب عدنان يتصل
باسماعيل بن ابراهيم فنحن من اشرف العرب نسباً واطيبهم طينة . وكان جدنا اساعيل
قد سنى لنا بيتاً تحج اليه الناس من افطار العالم اسمه الكعبة بناء في مكة بالحجاز وهي
مسقط رأسي ومحل اقامتي وركز فجارتي ومقام اهلي

وكانت ولاية هذا البيت نارة في قريش وطوراً في سوام حتى اغنصها منهم منذ قريش او اكثر بنو خزاعة وهم قبيلة من عرب اليمن القحطانية اذ لا يخفى على مولاي القيصر ان العرب كافة يرجعون في انسابهم الى ابوين هما (١) اساعيل الذي قدمت ذكره ومنه قبيلتنا وسائر قبائل الحجاز (٢) قحطان ومنه بنو حمير وسائر قبائل اليمن . ولم تستطع خزاعة الاستبداد بولاية الكعبة الا لما كان من تفرق امر قريش وضعهم حتى ظهر جدنا قصي فذل الدم والمال حتى ظهر على خزاعة واسترجع ولاية البيت الى قريش وتولى هو كل اعمال الكعبة وهي الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء فلم يستطع الترجمان فهم هذه الالفاظ واشكل عليهم نفسياً ها فقال هرقل افهنا ما معنى هذه الاعمال

فقال ابوسفيان اعلم يا سيدي ان مكة لا حكومة فيها مستقلة لحكومة جلالكم بل هي مكان عبادة لان الكعبة حج يزوره الناس كما يزور الصاري ديراً من الدبور ولكنها اعظم من ذلك كثيراً فمن تولى اعمالها كانت اليه حكومة مكة وولاية امرها على نسبة ما يتولى من تلك الاعمال فمن تولى الحجابة كانت له حجابة الكعبة اني ان مفاتيحها تكون بيده يفتحها لمن اراد ويمنعها من اراد واما السقاية فهي ان في داخل الكعبة بئراً قديمة يقال لها بئر زمزم احفرها جدنا اساعيل (١) فمن يتولى السقاية تكون تلك البئر في عهده يسقى الحاج منها . اما الرفادة فهي خرج او مال تدفعه قريش الى من يتولى الرفادة فيصنع منه طعاماً للحجاج الذين يزورون الكعبة من اقطار الارض لانهم ضيوف عليه . واما اللواء فهو العلم الذي يعقدونه للحرب وصاحب اللواء يعقد الالوية للجند الداهيين الى القتال وهو بمنزلة قائد الجند عندهم . أما الندوة فهي مجلس القضاء ولها بيت في الكعبة يجتمع فيه رجال قريش للمشورة والمداولة وصاحب هذه الدار هو صاحب الشور والرأي (٢) واليو يرجع الامر . ففي هذه الامور الخمسة تجتمع السلطة المطلقة لمن يتولاها للدين والدنيا فيكون انشاء الجند والكعبة والمال في قبضته فقد حاز جدنا قصي شرف مكة كله (٣) وقطع مكة ارباعاً بين قومه و هو اجتمعت كلمة قبيلتنا وعادت اليها سطوتها وعلا نجم سعدنا فتمت بامر حتى

(١) ابن خلدون (٢) ابن الاثير (٣) ابن هشام والسيرة الحلبية

صارت لا تزوج امرأة لرجل من قريش إلا في داره ولا يتشاورن في امر نزل بهم او يعقدون لواء الحرب قوم من غيرهم إلا في داره بعقدها لم بعض ولك ولا تدرع جارية اذا بلغت ان تدرع إلا في داره بشق عليها فيها درعها . وجملة القول كان امره في قومه من قريش في حياته ومن بعد موته كالدبن المتبع لا يعمل بغيره ^(١)

وكان لنصي هذا أربعة اولاد وهم عبد الدار وعبد مناف جدنا وعبد العزى وعبد فلما شاخ قصي كان عبد مناف قد شرف في زمان ابيو وعظم امن وكذلك عبد العزى وعبد ^(٢) فاراد قصي ان يشرف عبد الدار وكان يكن فدعاه اليه واوصى له بهناصب الكعبة الخمسة المتقدم ذكرها فصار شرف مكة كله الى عبد الدار وبنوه من بعد

فخلف عبد الدار اولاداً وخلف عبد مناف اولاداً آخرين وهم عبد شمس وهاشم وعبد المطلب وبوفل وكانوا رجالاً أشداء وعبد شمس هو جدي ففبط بنو عبد مناف بني عمهم عبد الدار على ما في ايديهم من امر الكعبة ونازعوهم عليه حتى كاد يفضي امرهم الى الحرب ثم تداعوا الى الصلح واقتسموا ذلك الشرف فيما بينهم فاعطيت السقاية والرفادة الى بني عبد مناف واعطيت الحجابة والولاء والدعوة الى بني عبد الدار وتم الصلح على ذلك وانحسم الخلاف . ولا تظنوا اني اطلت الكلام على غير طائل او اني دخلت فيما لم اسأل عنه فان لما قلته علاقة كبرى فيما سألتهوني عنه

فتولى السقاية والرفادة اولاد عبد شمس ولكنه كان كثير الاسفار لا يقيم في مكة الا قليلاً فعمد بهما الى اخيه هاشم وهاشم هو جد محمد الذي نساؤنوني عنه اي ابن جده ثم مات هاشم فوليها اخوه المطلب وكان سعيًا سمته قريش الفيض لسماحتو ^(٣) وولد له هاشم ولد سماء شيبه ثم سي عبد المطلب لحكاية طويلة لا محل لها هنا وهو جد محمد او ابيو فلما مات المطلب تولى الرفادة والسقاية ابن اخيه هذا اي عبد المطلب وولد لعبد المطلب عشرة اولاد ذكور منهم عبدالله والد محمد

وكان عبد المطلب قد اراد حنري زمزم فنبهه اقاربه من ذلك فلاني منهم امورا صعبا ولكنه فاز اخيرا بجهزها فنذرانه اذا ولد له عشرة اولاد ثم بلغوا منه حتى يمنعوه من مثل ذلك لينحزن اقدم عند الكعبة فلما بلغوا ومنعوا جاء الكعبة لبني نذره ولم يكن يدري من ينحر من اولاده فاستخار هبل الصنم الاكبر الفائم في الكعبة ^(٤)

بواسطة الفداح

فأشكلك امرئ من الاقداح على الترجمان ولم يستطع تفسيرها فاستفسره عنها
فقال ابوسفيان ان لنا في الكعبة اصناماً كثيرة اتخذناها وسيلة بيننا وبين من
نعبد وأعظمها صنم اسمه هبل عده سبعة قداح (اي اسهم بلاريش) كل قدح
عليه كتابة بمعنى قدح كذب عليه (العفل) وقدح عليه (نعم) وقدح عليه
(لا) فاذا ارادوا امرأ ضربوا به في القداح فاذا خرج (نعم) فعلموا ما جاؤا من
اجلها او (لا) لم يفعلوه وقدح فيه (منكم) وقدح فيه (ماضق) وقدح فيه
(من غيركم) وقدح فيه (المياء) اذا ارادوا ان يخبروا للماء ضربوا القداح وفيها
ذلك القدح فيجئها خرج علموا به ^(١)

فجاء عبد المطلب الى هبل وقال لصاحب القداح اضرب على بني مرثلاء بقداحهم
هنا واخبره بنذره فاصطاع لاولاده عشرة قداح واعطى كل رجل منهم قدحه وقد
كتب عليه اسمه وكان عبدالله والد محمد الذي نحن في صده اصغر بني عبد المطلب
وكان احبهم اليه فلما ضربت القداح طلع القدح ان يذبح هو فهم عبد المطلب يذبحه
فمنعته قريش من ذلك وقالوا لا بل يجب ان نذره فيه فانطلق به الى عرّافة في
المدينة (يثرب) فوجدوها بغير فجاؤها فساؤلوا نذراً فساألهم كم دية الرجل
عندكم قالوا عشرة من الابل قالت فخذوا الغلام وعشرة من الابل واضربوا عليه وعليها
بالقداح فان خرجت عليه فزبدوا من الابل عشرة فعشرة حتى يرض اليكم ونخرج
القداح عليها فتنفروها ^(٢) فخرجوا وضربوا بالقداح فزال فتخرج على عبدالله حتى بلغ
عدد الابل مائة فخرجت عليها فذبحوها ونجا عبدالله وبقي حياً وتزوج فولد له محمد
ولم اطل عليكم الكلام الا لتعلموا مقدار ما نحن فيه من تعظيم الكعبة واصنامها
فانها صانتنا وغابتنا نه نندبها ونستجيرها واليها نخرج الناس من سائر اقطار الارض
ولنا بها منفعة من حيث الاتجار لما ياتينا بواسطة من اصناف الناس عربها وعجمها
وقد ذكرت لكم كم يمكننا من الدماء في سبيل استيفائها فهي مصدر سمحتنا ومنع
اقتلتنا ومرجع آمالنا وقد مضى عليها القرون الطوال قائمة والاس يكرمونها
وبعضمونها ويذبحون عند اصنامها الذبائح ويندمون اليها بالهدايا الى اليوم فمن

كلها قام صاحب هذا الكتاب (وإشار الى الرق امام هرقل) يدعو الناس الى ازالنها وهدم ما بناه اجداده فيها

فلما بلغ ابوسفيان من كلاله الى هذا الحد ظهرت على وجه هرقل مظاهر الاستغراب وخطب البطريرك الى بيته اليونانية قائلاً ارى هذا الرجل يشكو من بريرة مديّة قومه عن عبادة الاصنام فاذا كانت هذه هي غاية هذا الذي فسمعت الغاية فتداول الحضور هذا الحديث برهة على نحو ما قال الامبراطور وازداد شوقهم لمعرفة بنية الحكاية وكيف استطاع القيام بهذا المشروع على خطراته مع ما ذكر ابوسفيان من بيته وضعه فالتفت هرقل الى ابى سفيان وقال له لقد افصحت فيما قلت فهل لك ان تحكي لنا حكاية هذا النبي وكيف توصل الى ان يدعوكم الى ذلك

فقال ابوسفيان قد رأيت آية اللعن كيف نجى عبدالله بن عبد المطلب من الموت وكان ابو محبة فازوجه امرأة من قريش اسمها امينة ولم يمكث عبدالله مع امرأته الا برهة يسيرة ثم قضت عليه الاحوال بالسفر الى غزاة التي انا آث منها الآن ولكنه مرض في سفره هذه فعادوا به الى مكة فمات قبل ان يدركها وهو يحجار بثر بدفن هناك وامرأته لم تره

وكانت امينة حين مات عبدالله حاملاً (١) ولم يترك لها الا اربعة من الابل وقطيعاً من الماشية وجارية اسمها بركة . وكانت امينة تقيم في بيت بضواحي مكة عند جبل شرفي مكة اسمه جبل ابي قبيس وهناك ولدت ابنها هذا في عام الفيل الذي جاء به ابرهة الاشرم من قبل الحبشة لثغغ مكة (سنة ٥٧٠ م) فلما ولدته كان جده عبد المطلب في الكعبة فحملوه اليه فباركوه وسماه محمداً ومن عادتنا ايها الملك ان نرضع اولادنا من المراضع ويندر ان يعيش لنا ولد على ابن امي ونختار المراضع من اهل المادية لصحة اجسامهن فاخترت له امه مرضعاً من اهل الطائف اسمها حليمة فارضعت حولين قضاها في سهول الطائف واوديته نشأ نشيطاً وسمعت الناس يتحدثون عن طفولته اخباراً غريبة لم نسمع مثلاً من ذي قبل منها ان مرضعة تركته يلعب مع ولدها ذات يوم خلف البيوت فاذا بولدها قد جاء يقول ان اخي القرشي اخذ رجلاً من عليها ثياب يرض نشأ باطلة فخرجت هي تلتصقه فوجدته منفرداً فمسأله

عن امر فقال جاءني رجلان عليها ثياب بيض فاضبعاني وشفا بطني فالتفتا فبه شينا لا ادري ما هو وغسلاه بالشاج^(١) فخافت حليلة على الغلام فحملته الى امو بمكة ففضي فيها من برعى الغنم وبطوف الاحياء مع الاولاد^(٢) وكان كل من رآه اعجب بذلك ثم وجماله ونور محياه ولكنه لم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفيت والدته في الابله بين مكة والمدينة فدفنت هناك فاصبح الغلام يتيم الابوين فاحناطة جد عبد المطلب واحبه اكثر من حيو اولاده فكان الناس يكرمونه من اجل جد وكان على صغير سنو يجالس الحجاج القادمين لزيارة الكعبة وفيهم العلماء والشيوخ ويجادلهم بما يجذب به قلوبهم وعواظهم وبعد سنتين توفي عبد المطلب فولى السقاية ابنه العباس اما الرفاة فانطبت ببني نوفل من ولد عبد شمس جدنا فاصبح محمد يتيماً غريباً فكفله ابو طالب احد اعمامو وكان ابو طالب اقل من العباس مالاً ولكنه كان وجيهاً مقدماً في قريش فاحضن الغلام وتولى تربيته والسبب في احتضانه اياه دون سائر اعمامه ان ابا طالب وعبد الله والد محمد كانا اخوين من ام واحدة^(٣)

وأعترف لك ايها الملك العظيم ان كفالة ابي طالب هن كانت سبباً عظيماً في نجاح دعوة محمد وبقائه حياً لأن ابا طالب كان وجيهاً في قريش محترماً مكرماً فاقام محمد في بيته كأحد اولاده . وكان ابو طالب اذا خرج الى تجارة او سفر اصطحب محمداً فينزل الدبور ويجالس الرهبان والعلماء واشهر حادثة سمعتها عنه تروى في دبر بحيرة قرب بصرى فقد اخبرنا بعض الذين رافقوه في رحلته تلك ان الراهب بحيرة انبأه بامور كثيرة من مستقبل حياته واوصى عمه ابا طالب ان يعتني به ويحافظ عليه اليهود . وكان محمد اذا عاد من سفر ففضي معظم ساعات نهاره في الكعبة يجادل الناس ويجادلهم ويطارحهم وهم يعجبون لذلك وقوة برهانه فقد كان على صغير سنو ذكي التزاد فصيحاً واسع الاطلاع بما اكتسبه من مجالسة عمه ومخالطة الناس في اسفاره مع انه كان امياً لا يعرف القراءة وهو لا يزال كذلك الى الآن وكان مع ذلك مخلصاً حسن الطوية حتى لقبوه بالامين فاذا جاء او ذهب قالوا جاء الامين او ذهب الامين واهل مكة ايها الملك اهل تجارة يحملون الاطوال من مشارف الشام واليمن وفارس والعراق الى مكة وغيرها وهم مشهورون بالتجارة كثيراً حتى ان نساءهم كنّ

بتعاطيها وكان في مكة امرأة مشهورة بالغنى اسمها خديجة بنت خويلد من سلالة عبد العزى بن قصي الذي قدمت ذكره وكانت لشرفها وغناها تسأجر الرجال في مالها ونضاربهم اياه بشيء تجهله لم تسمع بمحمد وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره واشتهر بالاستقامة والنشاط^(١) فعرضت عليه ان يخرج في مال لها الى الشام تاجراً ونعطية افضل ما كانت تعطي غيره فسار في تجارتها مع غلام لها اسمه ميسرة وعاد وقد اكسبها مالاً طائلاً فاحتة وعرضت عليه ان يتزوجها ففعل فولدت له اولاداً وهم القاسم وهو يكنى بو (فيقال ابو القاسم) والطاهر والطيب وزينب ورقبة وام كنوم وفاطمة اما القاسم والطاهر فاتا قبل ان ظهر بدعوتو

واتفق اذ بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ونحن لا نعرف من امره غير ما عرفناه من حسن خصاله ومهارته واستقامته ان قريشاً اجتمعت لبناء الكعبة وكنت في جملتهم وسبب اهتمامنا بذلك ان نفراً سرقوا كثيراً للكعبة كان في ثمر في جوفها وجدنا تلك السرقه عند رجل من خزاعة فقطعنا يده وعمدنا الى بناء الكعبة ونسقيها وكان الجعفر رمى بسفينه عند جنة لرجل من تجار الروم فتخطمت فاخذنا خشبها واعددناه لنسقيها وكان بمكة رجل قبلي يحسن صناعة النجارة واغنىها هذه الفرصة لبنائها وانقسمنا العمل فيها لكيلا يجوز احدنا من الشرف في ذلك اكثر مما يجوز الآخر فجتنا بالحجارة والاخشاب حتى تم البناء ولم يبق الا الركن فاخصم الناس في من يرفعه منهم وكانت كل قبيلة تدعي الاحقية في رفعه حتى تعاطم الخصام وهمل بالقتال فانفق رأي عفتلنا اخبرنا ان يحكموا فيما بينهم اول داخل من باب المسجد في ذلك اليوم فكان اول داخل محمداً فقال له هذا هو الامين قد رضينا بحكمه فاخبروه الخبر فرأى رأياً حسناً لم يخطر على قلب احد منا وذلك انه اتى بثوب واسع جعل ذلك الركن فيه وقال لناخذ كل قبيلة بناحية منه فرفعه جميعاً حتى بلغنا به موضعه فوضعه هو بيننا وانقسم الخلاف^(٢) وقد حدث هذا بعد حرب الفجار بخمس عشرة سنة وحدثت حرب الفجار بعد العام القليل بعشرين سنة^(٣) وكان لعلو هذا امر حسن جداً في ادهانا فخرج الناس من الكعبة وهم يخذنون بنظمتهم وتعقلو وكنت في جملة المهجين بو ولا ازال اعترف بفضل لولا ما اراد من تخفيف آهتنا وتعييب اصنامنا كما سأقصه عليكم

وفما نحن نتحدث بمجساتنا ونعجب باخلاقه حتى بلغ الاربعين من عمره فسمعنا بانقطاعه عن الناس واعتزائه في الشعب والجبال حتى صار يأوي الى الكهوف ويقول ان الملاك جبريل ظهر له وعلمه الصلاة فعملها لامرأته خديجة ولزبد بن حارثة مولاه ولعلي بن عمو ابي طالب وكان علي غلاماً صغيراً وعلمها ايضاً لعبد الله بن أبي قحافة الذي يسمونه الآن ابا بكر وتبعه آخرون وهو يتلو عليهم آيات يقول ان ربه علمه اباها ونحن لا نعلم بذلك لانه لم يمس آلمتنا بعيب ولكنه ما لبث ان جمع عمومته واهل عشيرته الاقربين الى وليمة ودعاهم الى ترك الآلهة فاجابه عمه عبد العزى (اوطب) منكراً عليه جرأته هذه ونصح له ان يرجع عن ذلك ^(١) فأبى ولم يزد الا تمسكاً ثم بلغنا انه سب آلمتنا وعاب اصنامنا فشق ذلك علينا فاجتمعنا وفيما نخبة من اشراف قريش وتداولنا في امره وما جاء به فنهياً لبعضنا ان نقتله فقال البعض الآخر اننا اذا قتلناه انما نسي عمو ابا طالب وهو رجل جليل القدر فالأفضل لنا ان نخاطبه بشأن ابن اخيه وخصوصاً ان ابا طالب هذا ظل على دين آبائنا حتي مات ولم يؤمن بدعوة ابن اخيه فسرنا جميعاً الى ابي طالب في منزله فملقنا على الرحب والسعة واكرم وفادتنا على جاري عادته فلما استقر بنا المقام قلنا « يا ابا طالب ان ابن اخيك قد سب آلمتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا وضلل آباءنا فاما ان تكفه عنا او ان نخلي بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فكفيك » فاجابنا ابو طالب جواباً لطيفاً وعدنا وعداً حسناً وردنا ردّاً جميلاً فانصرفنا عنه على أمل ان يدع ابن اخيه عن علمه ^(٢) فاذا هو باق على ما كان عليه وما زلنا نسمع مثل ما كنا نسمعه عنه قبلاً وكان ممن أبى دعوته من قريش ابن عم امرأته خديجة وكان اسمه ورقة بن نوفل وكان نصرانياً مثلكم فاشتد غضبنا وهمنا بان نقتل به ثم رجعنا الى مجاملة عمه فاجتمعنا اليه من اخرى وقلنا له « يا ابا طالب ان لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا وانا قد استهينناك من ابن اخيك فلم تنهمر عنا وانا لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه احلامنا وعيب آلمتنا حتى نكنه عنا او ننازله واباك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين » ^(٣) فآنسنا هذه المرة من ابي طالب انصباعاً وكأنه عوّل على اجابة سؤالنا اذ لا طاقة له على فراق قومه وعشيرته ومعاداتهم وبلغني انه لما

خرجنا من منزله بعث الى ابن اخيه فقال له « يا ابن أخي ان قومك قد جاءوا اليّ فقالوا كذا وكذا فابقي عليّ وعلى نفسك ولا تهملي من الامر ما لا أطيق » فانس من اصراره على معصيته وبقائه على عزمه ما كاد ان يفضيه لولا ان محمداً قال له « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهر او اهلك فيه ما تركته » ثم بكى فرقاً له قلب عمه وتذكر ان ابن أخيه في منزله وله عليه حق الجوار فعاد الى نصرته وطأن قلبه ووعده ان لن يسلمه ابداً

ثم علمنا ذات يوم ان محمداً ذكر آلهتنا فيما نزل عليه من كتابه فقال « أفرايهم اللات والعزى ومنات الثلاثة الاخرى تلك الغرابيق العلى ان شماعتهن لترفضي »^(١) وذلك ما كنا نعتقد فسررنا سروراً لا مزيد عليه وقلنا ها قد تمّ الوفاق ثم ما لبث ان رجع عن ذلك وابدل هذه الفقرة بفقرة تزيدها نفرة منه فقال ان تلك انما افهاها الشيطان على لسانه ثم ذكر آلهتنا بكل سوء فقال انما اسماء سمينوها انهم واماؤكم الى غير ذلك مما زادنا نفوراً وبعداً

فحزنا في امرنا مع هذا الرجل وابشينا نتوقع فرصة لنخلص بهمة ونرجو رجوعه فاذا هو باق على عزمه وكثيراً ما كان بعض رجالنا اذا التقوا به يمددوه وهو لا يبالي وفيما نحن في ذلك اذ سمعنا ان عمه حمزة بن عبد المطلب قد آمن بدعوته واخذ بناصره وحمزة هذا رجل شديد نهابة فريش فاشند به ازره وازداد ثباتاً في دعوته فقلنا لندعون محمداً اليك بكلمة ونخاصمه حتى نعذرفيه فاجتمعنا في الكعبة وفيها كل اشراف قريش واستقدناه فجاء فقلنا له « قد بعثنا اليك لتكلمك فاننا لا نعرف رجلاً من العرب ادخل على قومك مثل ما ادخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة فما في امر قبيل الا قد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت انما جئت بهذا الحديث نطلب به مالا جمعنا لك من اموالنا حتى تكون اكثراً مالا وان كنت انما نطلب به الشرف فما نحن نسودك علينا وان كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا وان كان هذا الذي بأهلك رثياً تراه قد غلب عليك (والرئي التابع من الجن) بذلنا لك اموالنا في طلب الطيب لك حتى نبرئك منه او نعذر فيك »

فاجابنا بقلب لا يهاب الموت قائلاً « ما بي ما تقولون ما جئت بما جئتمكم به اطلب اموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وانزل علي كتابا وامرني ان اكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغنكم رسالات ربي ونصحت لكم فان نقلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه علي اصبر لحكم الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » فاردنا ان ننحن اعناقنا فقلنا له « ان كنت غير قابل شينا ما عرضناه عليك فالك قد علمت انه ليس من الناس احد اضيق بالدا ولا اقل ماء ولا اشد عيشا منا فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثني به فبسير عما هنالك الحال التي قد ضيقت علينا وليسط لنا بلادنا وليفر لنا فيها انهارا كما تنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فانه كان شيخا صدق ففسا لهم عما نقول احنى هوام باطل فان صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا به منزلتك عند الله وانه بعثك رسولا كما نقول » فاجابنا وهو لا يتلجلج ولا يتردد قائلاً « ما بهذا بعثت اليكم انما جئتمكم من الله بما بعثني به وقد بلغنكم ما ارسلت به اليكم فان نقلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه علي اصبر ان الله تعالى يحكم بيني وبينكم »^(١) وطال الجدل بيننا في مثل ذلك وهو باق على قوله حتى خرج ونحن لا نرى سبيلا الى الايقاع به

وكان ابوسفيان يتكلم والجميع صامتون يتناولون باعناقهم فلما وصل الى هذا الحد جعلوا ينظرون بعضهم الى بعض وهم يعجبون لما سمعوه فقال بطريق القسطنطينية هرقل اني لا ارى هذا الرجل الا قد جاءهم بالحق وهم انما يشكون من دعوتهم اليهم الى دين الله . ثم عادوا الى استماع بقية الحديث فقال هرقل وما جرى بعد ذلك

قال ابوسفيان وما زال امر هذا الرجل يستغل حتى كثر انصاره ومن غريب ما رأينا منهم انهم كانوا يجنبوننا الامور الصعاب والاضطهاد الشديد على ان يكفروا به فلم يفعلوا حتى اذا ضيقنا عليهم فر جماعة منهم الى بلاد الحبشة فمهاجروا بها واخذ بناصرتهم أما محمد فبقي في مكة يدعو الناس بالحسنى والصبر ونحن غافلون حتى

سمعنا باسلام عمر بن الخطاب وهو من أعظم رجال قريش فتأيدت دعوته يو كما تأيدت بحمزة فعظم امره واشتد ازره فصار دعائه يتكاثرون يوماً بعد يوم بما ينضم اليهم من القبائل فحسنا عاقبة ذلك فاجتمعنا وائتمرنا على ان نكتب كتاباً نتعاقد فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب ان لا نتكح اليهم ولا ينتكحهم ولا نبيعهم شيئاً ولا يتناولوا منا شيئاً فكتبنا صحيفة تعاهدنا عليها وتوافقنا وعلقتناها في جوف الكعبة ولكنها ما لبثت ان نقضت لاننا تعهدناها يوماً فاذا هي قد اكلتها الارضة فتشاءمنا بذلك واسقط في يدنا قلبنا ننظر ما يأتي به الزمان

فمنذ عشر سنوات تقريباً^(١) توفي اسوطالب وخديجة فذهب الذي كانها به ونجل مقامه فنلنا من محمد ما لم نل قبله فسمناه انواع العذاب والاضطهاد حتى كثيراً ما كنا ننثر التراب على رأسه فخرج من مكة الى الطائف يلتمس النصر من قبيلة ثقيف التي قضى زمن رضاعته بينهم فلم ينل خيراً بل كاول يسونه وبؤذونه ويعترضون له في الطريق ويسومونه الوان العذاب حتى ظنناه يرتجع ويدعونه ولكنه لم يزد الا ثباتاً وكان يذهب الى المواسم حيث تجتمع القبائل لبيع والشراء كموسم عكاظ وغيره ويعرض نفسه عليهم ويدعوهم الى دينه فكان اكثرهم اقبالاً عليه قبائل الخزرج من اهل المدينة (يثرب) فانهم بايعوه بيعات تعرف ببيعات العقبة لوقوعها في مكان اسمه العقبة بقرب مكة

فقال الترجمان عند ذلك وما معنى المبايعة عندكم قال هي ان يتراضي الثريقان على امر كالبيع والشراء وسمعت ان لهذا الرجل مبايعة يؤخذ منها تعهد المبايعين ان يكونوا على دعوته ومن أمثلة ذلك قولهم له « بايعناك على ان لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل اولادنا ولا نأتي يهتان فترده من بين ابدينا وارجلنا ولا نعصيه في معروف »^(٢) وقد كانت بيعة العقبة هذا اول امر الانصار وهم اهل المدينة وقد ساهم الانصار لان امره ضعف ومد وفاة عمه وخديجة كما قدمت فحماة الخزرج وبايعوه ونصروه فساهم الانصار وهو لاء ساروا الى المدينة ونشروا دعوته بين اهلها فنتعه منهم كثيرون فلما رأى تضيقنا عليه بمكة أمر اصحابه بالمهاجرة الى المدينة وساهم المهاجرين تمييزاً لهم عن الانصار المتقدم ذكرهم

فلما علمنا بذلك وتبين لنا انه اذا سار هو الى المدينة سيمتنع بانصاره واصحابه . وربما عادوا الى مناوئتنا فاجتمعنا في دار الدوة التي ذكرت لكم ان قصياً جعلها في الكعبة للمشورة وتفاوضنا في ماذا نفعل بهذا الرجل فقال بعضنا بنفوس وقال آخرون ان نفيه لا يمنع اجتماعه باصحابه واصاره

فقال آخرون فلنقتله ونجعل دمه متفرقاً بين القبائل لئلاً يجتمع أعمامه بنوعيد مناف على المطالبة بدمه فخبأ رجال من كل القبائل وسراً جميعاً خلسة حتى أتينا منزله وتربصنا له ربنا بنام فلما ظنناه نام وقد شامدنا رجالاً ملتبساً ببردة حسباه هو ثم خرج هو البنا ونحن نظمة سواء فكلمنا وحثنا التراب على عيوننا وفرّ من امامنا فتركناه ودخلنا على النائم فاذا هو عليّ ان عمو فنزّ الآخر من امامنا ونجا الجميع وتبعه من بقي من اتباعه في مكة الى المدينة ^(١) وهناك نصر المهاجرون والانصار وهم جنده الى هذا اليوم مع ما انضم اليهم من القبائل على أثر الحروب التي حاربها والغزوات التي غزاها فانه لم يدعه قافلة لنا تمر بالمدينة الا غزاها وفرّق أسلابها واموالها بين رجاله حتى كانت بيننا وبينه واقعة بدر الكبرى والصغرى واقعة أحد وغير ذلك مما يطول شرحه

فحبب هرقل لحديث أبي سفيان وراه لم يفرغ من حديثه حتى علا وجهه الاكتئاب والاسف فقال له وكيف حال صاحبك اليوم قال قد انتشر أمرهم بين القبائل في سائر بلاد العرب الأمكة فانها لا تزال ممنوعة عليه ونظمتها ستمتع رجالها وقد بلغني انه سيقدم لفتحها ولكنه سيلقى منا غير ما لاقاه في وقائعه الاخرى وما يدلك على اغتراره بنفسه انه خاطب الامبراطور هرقل فيصير الرّوم بمثل هذا الخطاب على اننا ما برحنا نسمعه من دعه دعوتوه يقول ان كنوز كسرى وقصر ستفتح له ^(٢)

فقال هرقل يؤخذ من كلامك ان الرجل جاءكم بالقول الحق فان عبادة الله اولى من عبادة الاصنام وانتم انما قاومتوه ظلماً

فقال أبو سفيان ان اكثرنا ايها الفيصر يعنفد بالله ولكننا نتخذ الاصنام « ليقربونا الى الله زلفى » ^(٣) ونعترف بالبعث والاعادة ولكننا لا نؤمن بالرسول ^(٤)

(١) السيرة الحلبية (٢) الطبري (٣) القرآن (٤) المسعودي

فاعترضه أحد البطارقة قائلاً فلا نظنكم قاومتموه إلا خوفاً على تجارتكم ان تنور اذا هدمت كعبتكم وقل توارد الناس اليها فهي مصالح دينوية آثرتموها على مصلحة الاخر ثم اشار هرقل اشارة فهم الحضور منها انه اكفى من حديث ابي سفيان فتقدم المحارث الى ابي سفيان وأوماً اليه فوقف وقبل الارض بين يدي هرقل فقال له الامبراطور لقد سرنا لفاؤك واستفدنا من حديثك ولكنك تكبدت المشقة بالقدوم الينا جزاك الله خيراً فقبل ابو سفيان الارض ثانية وقال اييت اللعن ايها الملك العظيم فاني بالمثل بين يديكم افاخر اهل الحجاز كافة اذ قلما تيسر لاحد منهم ان يخاطب قيصر الروم . قال ذلك وخرج ورجاله معه فامر له هرقل بجلعة من الحويز المرر كش

ثم التفت هرقل وتناول الكتاب وهو من الرق وامران يحفظ في قصبة من ذهب ^(١) وامر بهدية الى دحية حامل الكتاب وسلم اليه الكتاب وصرفه

الفصل السابع عشر

✽ عود عبد الله ✽

أما عبد الله فما صدق ان فرغ ابو سفيان من حديثه وخرج حتى خرج هو معه فلما التقيا في صحن الدار سلما وكان ابو سفيان لا يذكر وجه عبد الله ولكن عبد الله رآه بهكة في بعض السنين على انها تعارفا وتصافحا حالاً لما بينهما من رابطة اللغة في ارض قل فيها العرب فسأله ابو سفيان عن مسيره او اقامته فقال اني مسافر الى عمان فقال ابو سفيان لكن في طريقك اليها اودية وعقبات فهل انت معناد السفر فيها

قال قد سرت اليها من غير هذه الطريق منذ بضعة اعوام فقال ابو سفيان أما وقد تعارفنا وتربطنا فلنسر معاً لانا عازمون على الحجاز وقد بسمل علينا المروربعان فاذا اقمتم هناك ودعناك وسرنا في سبيلنا ولكن قافلتنا لا تزال في غن وفيها جمالنا واثقالنا وخيولنا فلقم هنا يوماً او يومين ربثاً نستقدم القافلة ونسير جميعاً

قال عبد الله حسناً فعل فيها اني ذاهب لوداع الحارث ثم اقصي بعض المهام
ونلتقي الليلة في الساحة بقرب الكنيسة
قال اوسفيان نعم الرأي رأيت
وافترقا فعاد عبد الله الى القاعة وكانت الجلسة قد ارفضت فالتقى بالحارث
خارجاً يبحث عن فلما لقيه سأله الحارث عن غيابه فاعذر بأنه كان في شغل.
فقال له هل تسير الى بصرى فتكون بعيتي
فتخبر عبد الله بماذا يجيبه وخاف اذا ابى الذهاب معه ان يحمل ذلك محملاً سيئاً
وهو بالحقيقة لا يريد الذهاب الى بصرى قبل ان يلتقي بحماد وخاف ان يخبره عن
عزمه على عمان مع ابي سفيان لئلا يستغشه فوقع في حيلة ولكنه ثنى على تطفئه في استنصاحه
وشكر عنايته في انقاذه وقال له ان مجيئي الى بيت المقدس قد حبيب اليّ الاقامة فيها
منذ قبل ان اسير الى بصرى على اني حيثما كنت انما اكون في ظل حمايتكم وحماية مولانا
الامبراطور

فوافقه على ذلك وسلم اليه كتاب الامان وودعه فسار عبد الله حتى التقى بابي
سفيان ففضلاً بضعة ايام في القدس حتى جاءت القافلة فتهيأوا للسفر وكانت القافلة
تنتظرهم خارج المدينة وفي صباح اليوم الثالث عدت الخيول لركوب ابي سفيان وحاشيتو
فقال اوسفيان لعبد الله هل عندك جواد لركوبك
قال كلاً لاني تركت فرسي في بصرى
فأمران يعطى له فرس من افراس حاشيتو وقال له اركب هذا الجواد الآن
فاذا وصلنا القافلة اعطيناك فرساً يليق بك

الفصل الثامن عشر

* جواد حماد *

فركبوا حتى جاوزوا القافلة خارج المدينة فجلسوا للاستراحة قليلاً وعبد الله لا
يرتاج الا الى السفر استعجالاً للملافة حماد ولكنه اطاعهم فجاوزوه بفرس عليه سرج ثمين

فلما وقع نظره عليه اخنلج قلبه في صدره لانه يشبه فرس حماد ثم تأمله جيداً فاذا هو هو بعينه فاعاد نظره على السرج فاذا هو سرج فرس حماد فدنا منه ولمسه بين عينيه فأنس بالفرس حتى اوى وارتيحاً الى لاسه فتحقق انه هو فرس حماد بعينه فبغت وكان ابوسفيان واقفاً على مقربة منه براعيه فلما رأى ذلك منه سأله عن امره

فقال اني في ريب من أمر هذا الفرس لانه فرس ولدي

فقال ابوسفيان وكيف عرفته

قال عرفته من لونه وقد وسرجه وقد ريته مذ كان مهرأً رضيعاً واعرف

امه قلته

فحبب ابوسفيان لهذا الاتفاق الغريب وقال له وابن كان ولدك

قال كان راكباً من بصرى الى عمان فابن ظفرتم بهذا الفرس

قال ظفربا به تائماً بالقرب من الزرقاء

فخاف عبد الله ان يكون اضياع هذا الفرس سبب بوجوب قلقة فاعاد السؤال ثانية

عن كيفية عنورهم عليه

فقال ابوسفيان كنا قادمين من الحجاز الى الشام منذ بضعة اسابيع وفيما نحن

بالقرب من الزرقاء نحاذران فترتب من مسبعنها اذ شاهدنا هذا الفرس تائماً في الصحراء

فارسلت بعض رجالي في اثره وبعد العناء والمشقة قبض عليه فجاء به اليّ فسقناه معنا

الى غنق ثم جئنا به الى هنا كما ترى

فهبت عبد الله وليث صامتاً لا يتكلم وقد غلبت الهواجس عليه مخافة ان يكون

حماد قد ذهب فريسة السباع وفرّ جواده منه وهو يعلم ان الفرس اصيل لا يترك

صاحبه الا اذا مات او اُسّر أو غاب عنه فترقرقت الدموع في عينيه رغماً عنه ولكنه

نجلد وقال أراني كثير الفلق على ولدي ولا يهدأ لي بال حتي انقصد المكان الذي

وجدتم الفرس فيه

فقال ابوسفيان هو قريب من طربقنا الى عمان فاذا شئت عرجنا اليه وبجشاً معك

عما تريد فان أمر ولدك بهنا كما بهك

ثم ركبوا أما عبد الله فلم يشأ ان يركب فرس ابو بعد ما رآه من أمره فاركبه

غيره وساروا وهو لا يتبس ببنت شفة لاشتغاله بالهواجس ففضوا يومين سائرين وعبد الله

لأباً كل ولا بنام الآ قليلاً حتى صاروا على مفرقة من الزرقاء فقال أبو سفيان ها
اننا بقرب المسبعة فليترك القافلة وجعلها وإحماها ولتصطحب بعض الفرسان الى ذلك
السهل حيث عثرنا على الفرس بركض فيو

فخرجوا وهم عشرة رجال وفيهم أبو سفيان وعبد الله وساروا بمحاذرون ان يلقاهم
اسد او وحش آخر على انهم لم يكونوا يخافون ذلك والوقت نهار وهم كثار فله
يسروا الآ قليلاً حتى وقف أبو سفيان وقال هذا هو المكان الذي عثرنا فيه على
الفرس فقد رأيته بركض في هذا السهل

فقال عبد الله وابن هي المسبعة

قال هي الى يميننا فاذا رأيته ان نخرج نحوها فعلنا

فقال عبد الله لا اراني قادراً على العود قبل ان افني اثر حوافر الجواد
لعلي اقف على اثر ولدي فاني اخاف ان يكون قد ذهب فرسة الوحوش والعياذ بالله
فقال أبو سفيان ربما نشاء فانتا بين يديك وامر رجاله فتنرقوا بين الللال يبعثون
عن آثار الادميين وبعد رهة عاد احدثهم يسوق جواده زميلاً حتى دنا منهم فقال
رأيت آثار اماس بالقرب من شجرة هناك

فهر عبد الله جواده وتبعه أبو سفيان في أثر الرجل حتى دنوا من المكان فاذا
هناك شجرة كبيرة تحتها آثار جواد مقتول لم يبق منه الا ججمته وسرجه وبعض
عظامه فعرف عبد الله من السرج انه جواد سلمان خادمو فصاح قائلاً هذا هو جواد
سلمان فأين حمادوسلمان واخذ يبحث حول الشجرة وبالقرب منها فرأى آثار يسبح عرف
بالثأمل فيه أنها عباءة فظنها عباءة حماد قد مزقتها انياب الوحوش فلطم كنفاً بكف
وقال وهذا هي عباءة فأين ثياباه ألع الاسود أكلته كله قال ذلك وتناول قطع
العباءة وجعل يقبلها ويدرف الدموع ويصيح واولاده قد اكلتك السباع آه ابن انت
ولم يعد يستطيع الوقوف

فنادى أبو سفيان وكل من حضر من حاله ولولا خشونة البداوة ونعودهم القتل
والنهب لكانوا معه أما أبو سفيان فقال له هون عليه يا اخا لخم فاسا لم نتحقق موت
الغلام بعد وانت لم تعثر بأثر من آثار جيتيه واخذ يخفف عنه ويطمئنه مثل هذا الكلام
وهو لا يهدأ له بال ولا ينفك عن البكاء بل جعل يلطم كنفاً بكف ويقول أهذه هي

آخر حباتك با حماد آه من لي بالانياب التي نهشت جلدك الداعم فاحطها وابن تلك
المحالب التي غرست اظافرها في لحمك فأمزقها كما مزقته آه واولداه أهذا هو وفاء النذر
أهذه عاقبة الاصطبار عشرين عاماً لنص لك شعرك

فلما رأى ابو سفيان شدة اضطراب عبد الله وعظم بكائهم رقق له وخاف عليه
فجلس الى جانبه وامسكه بيده واخذ يخفف عنه بما يؤمله ببقاء ابنه حباً وقال له ان
ما رأيته من الآثار لا يدل على شيء ما خنته فلو كان الاسد فتك بالغلام لرأيت
شيئاً من ثيابه وهب ان الاسد اكل ثيابه فهو لا يستطيع ان يزدد سيفه ورمحه فلو
كان ما نظنه صحيحاً لرأيت سلاحه نافذة هنا على الاقل فلعله فرّ ونجا ولم يفتك
الاسد بغير هذا الفرس ارجع الى صوابك وتصبر في الامر فانك رجل عاقل خبير
وزد على ذلك ان البكاء لا يجديك نفعاً هلم بنا نبحث في هذا الجوار املنا نقف على
ما يكشف لنا الغامض

فقال عبد الله صدقت يا أخا قريش ان البكاء لا يجديني نفعاً ولكنني اخاف
اذا بحثت ان لا أزداد الا فشلاً وبأساً فدعني ابكي ولدي واقل عاءته في هذه
الصحراء حتى يلتاني الاسد الذي افترسه فاما ان أتم له منه او ان يتترسني فتموت جميعاً
فان ذلك خير لي وابقي

فما زال ابو سفيان يدافعه حتى سكن روعه فنهض وسار ماشياً بين التلال والصخور
وابو سفيان يصحبه ورجاله منبثون في انحاء السهل يساعدونها في التنبيه فوصل
عبد الله وابو سفيان الى غدير صغير اشرفا عليه من اكمة فانس عبد الله عند الغدير
شجراً فهرول نحوه فاذا به ثياب وسلاح فتأملها فاذا هي عباءة حماد ورمحه وسيفه فضم
السيف الى صدره وصاح هذا هو سلاحه وهذه هي عباءته لا تلك فان هو فاخذوا
يبحثون في ذلك الجوار حتى ملوا التنبيه وكادت الشمس تميل الى الاصيل ولم يجدوا
شيئاً فتخفق عبد الله ان حماداً قد ذهب فربسة الاسد فعاد الى البكاء والنوح حتى
انتظر قلب ابي سفيان له واشفق عليه فاخذ يعزبه ويخفف احزانه وهو لا
يزداد الا بكاء

فقال أبو سفيان ما يجذبنا البكاء يا أخا العرب اننا لا نستطيع رد الضائع والله لو كان ابنك اسيراً في ابوان كسرى او قصر قيصر لذلنا انفسنا في سبيل انقاذه لأن لك علينا حق الجوار وزد على ذلك انك رجل قد وقعت من نفسي موقعاً عظيماً فسررت بلفائك وها انتي بين يديك فافعل ما تراه فاني اطوع لك من بنائك فسكت عبد الله ولم يحب ولبث برهة غارقاً في بحار الهواجس تراجع في ذهنه تاريخ حياته وما جاء من أجله الى بصرى وما كان من أمر النذر ثم رجع الى صوابه وتجلد تجلد الرجال المدربين فعلم ان البكاء لا يجذب نفعا فرأى من الحزم ان يتدبر الامر بالصبر والتروي فلاج له ان يسير الى عمان يفتش فيها عن حماد فلعل أحداً يبيئه بحاله ونظر الى الشمس وقد قارت الزوال وبينهم وبين الطريق بضعة اميال ورأى ابا سفيان ورجاله واقفين في خدمته ينتظرون امراً يطيعونه فيه فحاف ان يسبب لهم بالبقاء هناك اذية فقال لابي سفيان اني يا اخا قریش شاكر لحسن صنعك واخشى ان اكون سبباً لضرر بئالك على يدي ونحن في هذه الصحراء التي شربت دم ولدي فسيروا الى مقصدكم بحراسة الله ودعوني اسير في طريقني

فاجابه ابو سفيان قائلاً دع عنك الهواجس واعلم اما لا نرح هذا المكان الا وابت في مقدمتنا فلسنا بثاركيك وحدك فاذا رافقتنا فاننا في خدمتك حتى نصل مأمنك واذا شئت المسير معنا الى مكة فالك تنزل بيننا على الرحب والسعة فاختر لنفسك

فهم عبد الله باي سفيان وضمة وبكى لما آنسه من تعزيتو وقال لقد وفيتكم الكيل واجزلتكم الجحيل أما المسير معكم فغير مستطاع ولا بد لي من النظر في الامر فاما ان اسير الى عمان او اعود الى منزلي بقرب بصرى حتى يحكم الله بما يشاء

قال اننا اذن في ركابك الى عمان ثم الى حيث تشاء قال ذلك وامسك بيده وسار به ففتش عبد الله وسيف حماد بيده يتنسم منه رائحته وعادوا جميعاً الى القافلة

وكان عبد الله في اثناء عودته صامتاً يفكر في حاله ويتردد بين ان يسير الى عمان وهو لا يدري ما يلقى هناك بعد ما داخله من الرعب في أمر حماد وهو يرجح موته على انه لما نظر في الامر طويلاً وراجع ما مر به من احوال ذلك اليوم اعترضه أمل رأى

من خلاله بصيصاً هياً له حماداً حياً وذلك انه فكر في أمر ما عثر عليه من بقاياها فلم يجد دليلاً قاطعاً بموته وهولم يعثر بشيء من جنوده فقال في نفسه لو أكلته السباع لقيت منه بقية مثل بقية ذلك الجواد من جمجمة او عظام اخرى او قطع من ثوبه ممزقة ثم فكر في ما وجد من السلاح فاذا به لم ين في الموضوع الذي رأى فيه بقايا الجواد ففضى منه بتردد بين اليأس والرجاء حتى وصلوا القافلة

فقال ابوسفيان ما ترى يا اخا لحم هل تسير معنا الى الحجاز او ترمع الى مكان نوصلك اليه في انحاء الشام أم تريد أمراً نقضيه لك

فقال عبد الله اني والله لا ادري ماذا اقول ولا أعلم ماذا أعمل فارى ان تتركوني في هذا المكان افكر في امري حتى اظم أمراً اعمله فاني لا افقه من أمري شيئاً فقال ابوسفيان لسنا ناركيك وامت في هذا الحال

فقال عبد الله لقد غمرتوني بفضلكم واسيتموني حزني تنعزيتكم أما وقد اصررتم على ذلك فاني أود الذهاب الى عمان اعلي استطلع خبراً جديداً وكانت الشمس قد آذنت بالزوال فباتوا ليلتهم هناك واصبحوا باكراً يريدون عمان فدنوا منها والشمس قد دنت من مغيبها فقال عبد الله استودعكم الله فاني معرج الى عمان انتظر ما يأتي به القضاء

الفصل التاسع عشر

* عمان *

فودعوه وانصرفوا وقد تركوا عند فرس حماد وبعض الزاد فلما انفرد عبدالله بنفسه نظر الى عمان وقد أشرف عليها من مرتفع فاذا هي مدينة خربة لم يبق من ابنتها الرومانية الا بضعة منهزمة أعظمها هيكل نخرب على تل بالقرب من غدير كاد ماء ان يجف ورأى على مقربة من ذلك المكان بيوتاً حفية يسكنها بعض الفقراء لا تكاد تزيد على قرية حفية فسار نحو الهيكل وقطع اليه على جسر يظهر من منظر انه كان

عظيماً وتهدم^(١) فوصل الهيكمل ماشياً بقود النرس ورائه وهو يحصر عليه حرصه على ابنه لأنه من آثاره

فما وصل ذلك البناء حتى غابت الشمس واغبر وجهه الافق فجلس على حجر من احجار الهيكمل ملقى عند بابيه وامسك بزمام النرس ونظر اليه فراه هادئاً كئيباً كأنه شعر بما يحامر قلب عبد الله من الهواجس فشاركه في الاسف على فتيته ثم نظر عبد الله الى ما حوله فاذا هو في ارض خالية من افاس الناس لا يسمع فيها صوت ولا يرى فيها الاشباح بعض التلال او الاحجار او الاشجار والتفت الى ذلك البناء على عظمه فرأى الذلة والمسكنة قد ضربتا عليه لما يتجلى فيه من آثار الخراب فكان له بذلك عبرة عن مصير الانسان فنذكر حالة مع حماد وما مر به في ذلك اليوم من الاهوال فغلب عليه القلق واشتد به الحزن حتى تفرقت الدموع في عينيه ثم حانت منه التفاتة فرأى بيوت القرية عن بعد فحدثته هواجسه انه سيد حماداً بين اهلها فتمض بغته يريد الذهاب اليها ثم عاد الى صوابه فقال في نفسه لا اراني الا في اضغاث احلام ان حماداً قد اصبح في عداد الاموات فعادت اليه احزانه فجلس على ذلك الحجر وعاد الى البكاء.

وقضى مدة في مثل هذه الحال يتردد بين اليأس والرجاء والليل قد سدل ثيابه وعلا نعيق الغربان وضجت اصوات الضفادع في ذلك الغدير القليل الماء فخاف ان يكون في بقاءه هناك خطر على حياته من وحش ينتسره او لصوص تسطو عليه فيقتضي نخبه قبل ان يتحقق امر حماد فعاد الى ذكرى احزانه فامسك بحسامه وقبله وأجهش في البكاء

وما زال في مثل ذلك حتى شعر بالبرد والنعاس على اثر ما قاساه من تعب المشي فاستد رأسه الى جدار الهيكمل وهو بين اليقظة والنمائم وعنان النرس في يمينه فما شعر الا والجواد يصهل ويخص الارض بجوافره فعلم ان هناك أمراً ذا بال فوقه واصاح بسمعه وحلق بعينه فلم ير شيئاً ولا سمع صوتاً فعاد الى متكاه وهو لا يستطيع الرقاد لشدته هواجسه فالتقى ناذيه الى الارض ليستطلع سبب اضطراب الجواد لعله يسمع اصواتاً او يستنبي نباحاً جديداً فسمع وقع اقدام كثيرة فعلم ان الجواد لم يجعل عدماً وان جماعة قادمون الى ذلك المكان فهباً نفسه للدفاع وصعد الى رتبة بالقرب منه

لعله يرى اشباحاً عن بعد فلم ير شيئاً لان الظلام كان شديداً فعاد الى مكانه وهو يتوقع أمراً خطيراً فشغله ذلك عن هواجس برهة ففضى بقية ذلك الليل في مثل هذه الحال حتى دنا الفجر وكان قد غمض جنه قليلاً فافاق على صهيل الجواد فرأى بالقرب منه جماعة كثيرة من الرجال في لباس البدو فظنهم لاوّل وهلة من رجال ابي سفيان لأنهم في مثل زيهم وقيافتهم ولكنه ما لبث ان سمع بعضهم يناديه منتهراً ثم همل به يريدون القبض عليه فهم بالركوب على الجواد للدفاع عن نفسه فنجهموا حوله وهم كثر فلم يستطع دفاعاً فقبضوا عليه واوثقوه وساقوه وهو يكاد يتمزق غيظاً فقال لهم ما تريدون مني ولا تأربيني ويسكم فاداه أحدكم قائلاً كيف لا ترى ثأراً بيننا وبينك وانت من رجال غسان وقد قتلتم رسولنا واهنتم سبياً

فقال لقد أخطأتم المرمى فما انا من غسان وانما انا غريب في هذه الديار فقالوا اذا كنت صادقاً فيما نقول فبرئ نفسك امام اميرنا قالوا ذلك وساقوه موثقاً واخذوا سلاحه وفرسه فمضى معهم برهة فأشرف على خيام مضروبة ورأى جموعاً كثيرة من عرب الحجاز ومعهم الاحمال والاثقال والحيول والحمال فساروا به الى فسطاط كبير علم من العلم المنسوب امامه انه فسطاط الامير وكان العلم ايضاً (١) ولم يكذب يدنو من الخيمة حتى تقاطر الرجال زرافات ووحداً وكلهم من اهل البادية مكشوفو الرؤوس تغطي ابدانهم تملات يلتحفونها الا قليلين منهم وقد لوححت وجوههم الشمس وظهرت عليهم آثار الاسفار ومعظم سلاحهم من الرماح والنبال فلما وصل الفسطاط اوقفوه خارجاً ودخل بعضهم ثم عاد ففاده الى داخل فرأى في صدر المجلس رجلاً بعمامة وجبة جالساً على بساط وبين يديه بضعة من رجال في مثل لباسه فعرف انهم امراء ذلك الجيش فاستعاذ بالله ما هو مساق اليه فخطبه الامير قائلاً

من انت يا اخا العرب أهلك من رجال الحارث بن ابي تمر
قال لست من اهل هذه الديار
فقال ألسنت من غسان
قال كلاً

قال ومن است

قال من لحم

قال وما جاء بك الى هذا المكان ولحم نقيم في العراق . أملكك من جاؤوا لنجدة
الرؤوم من لحم وجدام وياقنين فقد علمنا ان هرقل قد جند جنداً فيه اخلاط من العرب
المتنصبة^(١)

قال لست من اولئك بل جئت في حاجة ولا ألبث ان اعود

قال أصدقنا الخبر فالك اسير بين ايدينا

قال قلت لكم الصدق

قال وما دليلك على ذلك

وكان عبد الله قد عرف من لغتهم ولباسهم اهمهم من قريش فتذكر ابا سفيان
فظن استشهاده بويعه من الخطر فقال ودليلي اني كنت في الامس مع أبي سفيان
امير قريش وهو صديق لي حميم فاذا كان بينكم اسأله
فما أتم كلامه حتى قطب الامير وجهه وقال له أنت صديق لذلك الكافر
فالك لم تردنا في شأنك الا شكاً وما الذي جرّك الى صداقة هذا الزيم
فارتبك عبد الله في امره ولم يدر كيف يخلص نفسه من ذلك الاقرار ولكنه تجلد
وقال عرفته منذ بضعة ايام فقط وقد جاء لتجارة الى هذه الانحاء فاصطحبته زمناً يسيراً
ثم افترقنا بالامس

قال ذلك وقد تذكر حكاية ابي سفيان وعداونه لصاحب دعوة الاسلام فأدرك
انه بين يدي رجال صاحب الدعوة الاسلامية فلم يزد شيئاً

فقال له الامير لو اقتضرت على كوك من لحم لكان الامر سهلاً ولكك أقررت
بانك صديق لعدونا فانت مقيم في اسرنا حتى نرى ما يكون من امرك ثم امر فاخرجوه
مفخوراً الى خيمة معردة جعلوه فيها



الفصل العشرون

* غزوة مؤتة *

ولو كان عبد الله ممن لم يتعودوا الاخطار لاستعظم الامر كثيراً ولكنه لعلهم ببراءة تو صبر نفسه حتى يتمكن من اظهار حقيقة حاله على انه ما زال في ريب من امر هذا الجيش ومجيئهم من الحجاز الى الشام فاحب الاطلاع على مهمته حتى يعرف كيف يخلص نفسه فلما وصل الخيمة جاءه بعض الخفرواخذ بسأله عن أي سفبان وكيف لقيه وابن فارقة فاغنم تلك الفرصة فقال للرجل الى ابن نقصدون بهذا الجند قال نقصد مشارف الشام لحرب الروم

قال وما الذي دعاكم الى حربهم

قال دعانا الى حربهم ما رأيناه من وقاحتهم

فقال وما اوجب ذلك وانتم من قريش على ما يظهر ومقامكم في الحجاز وليس

بينكم وبينهم علاقة

فقال ان نبينا محمداً الذي ارسله الله نذيراً للناس كافة انذرهم بكتاب يدعوهم فيه الى الاسلام فما وصل الكتاب الى الغساني امير العرب المنتصر حتى مرقه وقتل رسولنا ^(١) فاشتد الامر على نبينا فبعث موله زيد بن حارثة في هذا الجند لقتال الروم

فقال عبد الله قد رأيت رسولكم الى هرقل بمنزل هذا الكتاب فلم يفعل به مثل ذلك قال ذلك كتاب غير الذي ذكرته لك ارسله قبلة أما قولك ان هرقل لم يفعل مثل فعل الغساني فلأنه هاب ملكنا وإما الغساني فقد غره جهله وسوف يلقي منا ما لقيه عرب الحجاز واليمن ممن أتوا الاسلام

فقال عبد الله ومن هو الامير الجالس في صدر الخيمة ومن هم الامراء الذين حوله قال هو زيد بن حارثة مولى رسول الله أما الامراء الآخرون فالجالس منهم عن يمينه هو جعفر بن ابي طالب ابن عم نبينا والجالس عن يساره عبد الله بن رواحة

وقد اوصي لها بالامارة على هذا الجيش اكل منها عبد الحاجة ^(١) وقد امرنا نبينا ان نأتي المكان الذي قتل فيه رسولنا وهي قرية يقال لها مؤنة فندعو اهله الى الاسلام فان ابوا قاتلناهم حتى نغنيهم عن آخرهم او يحكم الله بيننا وبينهم فأدرك عبد الله سرّ الامر . فقال للرجل وما الذي جئته انا حتى سقموتني اسيراً وما انا من الروم ولا من غسان

قال لا اظن عليك بأساً من هذا الامر ولولم نتظاهر بصدافتك لابي سنيان لكان ذنبك خفيفاً ولكنك سنبقي في اسرنا لعلنا نحتاج اليك في أثناء الحرب فسكت عبد الله وقد هان عليه ما خافه ولبث ينتظر ما يأتي به القدر ولكنه ما لبث ان هدا روعه من قبيل الخطر عليه حتى عاد الى هواجسه بشأن حماد وكلما ترجع له مؤنة تمنى ان يقتل فيلحق به

وبعد يومين من دخولوه في الاسر تميات تلك الحملة للمسير الى مؤنة فلنتركهم في طريقهم ولنعاد الى حماد وما تم له مع سلمان

الفصل الحادي والعشرون

* حماد وسلمان *

تركنا حماداً وسلمان وقد خرجا من الدبر وسلمان بفضل العدول عن ذلك الطريق لما خافه من مسيعة الزرقاء وحماد يحبب اليه المسير فيه خوفاً من طول المسافة اذا علا عنه

فلما رأى سلمان اصرار حماد اطاعه وسارا في اقرب الطرق ولكنه ما لبث خائفاً غائلة ذلك السبيل فعول على الاحتراس واتخاذ وسائل الوقاية فاعوز الى حماد فلبس درعه تحت اثوابه وسارا حتى امسيا بالقرب من غدير نزلا على ضفتيه فما لبثا ان تناولا شيئاً من الزاد حتى تعاطفت هواجس سلمان وكأن نفسه حدثته بخاطر قريب فهم بجس المكان قبل اشتداد الظلام . وكان حماد قد نزع عباؤه وسلاحه وجعلها الى

جانبه على ضفة الغدير فلما نهض سلمان نهض حماد معه وقادا فرسيهما وراءهما وصعدا الى اكمة أطلأ منها على السهل المصدق بها وجعلوا ينظران الى ما حولها من السهول وفيها بعض الآكام تترأى كأنها جماعات من الناس او اسراب من الوحوش فهالها ذلك المظهر ثم سمعا زئيراً عن بعد فأجتل الجوادان واخذوا ينحصان الارض بجوافرها فقال سلمان ها قد احدث الخطر بنا وهذا ما كنت اتخوفه يا سيدي فهل بنا الى النجاة . فقال حماد وماذا نخشينا فالتفت سلمان فرأى شجرة فقال عليك بهذه الشجرة تتسلق اغصانها فان الاسد لا يقوى على الوثوب اليها فاسرعا وقد نسي حماد سلاحه وعباءته فشد الجوادين اليها وتسلقا اغصانها والجوادان لا يفكان عن الصهيل ثم سمعا صوت الزئير يدنو منهما فتمسكا بالاغصان وهما يحاذران ان يراهما الاسد مع علمهما بامتناعهما عليه ثم ما لبثا ان رأياه وانأ عن اكمة بالقرب منهما اما الجوادان فانهما اجفلا وصهلا صهيلاً طويلاً ونفرا يريدان الفرار فاقطع زمام فرس حماد فطلب عرض الصحراء واما فرس سلمان فلم يستطع التخلص قبل ان ظفر به الاسد فقبض على صدره بمخالبه فوقع الفرس الى الارض فهمم به الاسد فمزق عقه مايباه فسال دمه فاخذ ينهش في لحمه

ثم وقف الاسد ونظر الى ما حوله فرأى عماءة سلمان فهمم بها كأنه ظنهما رجلاً فمزقها بين انيابه ومخالبه اي ممزق واخذ ينابل بمشنيه المعهودة حول الشجرة وقد نسّم رائحة الرجلين في اعلاها مع عجنه عن ادراكهما فجعل يحك جلد مجذعها ويزأر أي زئير حتى مالت الشجرة بهما وخافا السقوط فتمسكا بالاغصان وثبتتا في مكائيهما وقلماهما يخفئان خوفاً وحذراً والاسد لا ينفك عن الزئير والمسير ذهاباً وإياباً وعيابه تنالان في الظلام كأنهما سراجان منيران والدرس يخور خوار النور حتى ملّ الاسد فرأى زارة دوى لها ذلك السهل الواسع ورددت صداها تلك الآكام وارسل ذنبه فوق ظهره وعاد من حيث أتى فلما براعيابه في مسير وهو يحظر الهويما منتجعاً نيهما وعجماً حتى واره الظلام عنها ولكنهما ما زالا يسمعان زئير عن بعد وهما صامتتان لا ينيسان بنيت شفة فلما تحققتا النجاة منه وهما لا يصدقان انها نجوا قال سلمان أرايت يا سيدي ما كنت اخافه فشكراً لله الذي انبت هذه الشجرة في هذه الصحراء لتكون سبباً لنجاتنا من الموت بين مخالب الاسد

فتحقق حماد عظم المخطر الذي نجوا منه ولكنه اسف لذهاب فرسه . ففضيا معظم الليل مستترين في تلك الشجيرة يخافان الانحدار منها حتى اتلج الصبح فتزلوا ونظرا الى فرس سلمان فاذا هو مضرج بدمائه ولا حياة فيه فقال سلمان هلم بنا نطلب عمان على اقدامنا وقد كان في طاقتنا ان نذهب اليها راكبين ولكن هذه ارادة المولى فنشكره لنجاتنا من مخالف الاسد وما خسرناه انما هو متاع يسهل التعويض منه

فقال حماد ان الفرس عزيز عندي كما تعلم فهل نطلبنا نظفره بعد فقال دعنا ولا فراس فان منها شيئا كثيرا حيثما حللنا فسر بنا حالا لنقطع هذه المسبقة قبل ان يدركنا الظلام

فقال ولكنني اعزل وقد تركت السيف والرمح والعاءة على الغدير فعد بنا للبحث عنها

فقال لا اراني قادرا على تعيين المكان الذي كما فيو لان الطرق تشابهت علي واخشى اذا اطلنا للبحث ان تهوتنا الفرصة للنجاة وقد نجونا من الاسد مرتين فلا نأمن ان نجو منه في المرة الثالثة ونحن على اقدامنا فلم بنا

فاطاعه حماد وسارا الى عمان فوصلها واقاما فيها بقية الشهر المعين فلم يأت عبدالله ففضيا اسبوعا آخر وهما على احرا من الجهر فلم يأت احده فابتاعا جوادين آخرين عادا عليهما نحو بصرى عن طريق غير التي جاءا بها خوفا من غائلة الاسود وهما في هاجس على عبدالله وغيايو واخذا بدران وسيلة بدخلان بها المدينة او ما جاورها ولا يعلم بهما ثعلبة او احد من رجاله

اما حماد فكان بين هاجسين عظيمين هدد من جهة وعبد الله من جهة اخرى ولكنه شكر الله لبقاء الدرع لانها تذكر ثمين عند

فلندعها في حيرتها ولندهب بالفارسي الى بصرى وما كان من امر ثعلبة بعد ان تم له القبض على عبدالله وارساله مخفورا الى بيت المقدس كما قد رأيت



الفصل الثاني والعشرون

* عوامل الغيرة *

تركنا ثعلبة بعد ذهاب عبد الله في بصرى وفي نفسه غل على هند لا يهدأ له بال إلا بالابقاع بمهاد فبت رجاله في ضواحي المدينة للبحث عنه فلم يقف له على خبر فانفذ نفراً من خاصته سراً يتجسسون حال عبد الله بعد ذهابه الى هرقل فانبأوه بما كان من عنف الامبراطور عنه ومسيره مع ابي سفيان ولكنهم لم يعرفوا عنه شيئاً بعد ذلك لانهم لم يجرأوا على مرافقة القافلة خوفاً من انكشاف امرهم

اما ثعلبة فانه اندفع بعوامل الغيرة على الانتقام من حماد وابقاع الاذى بهند وشعر بانعطاف اليها لا حباً بها بل رغبة منه في ان يجرمها من حبيبها وقد تكون تلك الغيرة سبباً للحب الحقيقي على ما رآه عادة في الناس فقد بعاشر الشاب فتاة اعواناً لا بهممة من امرها شيئاً ولا يخطر له الافتتان بها وربما كان في نفسه ترفع عنها وقد يزعم انها لو عرضت عليه لا يرضاها فاذا آتس منها ميلاً الى غيره اورأى غيره ميلاً اليها وخصوصاً اذا كان الحب متبادلاً بينهما فان عوامل الغيرة تنور في قلبه ويتحول حبه العاتر الى شغف شديد ولا يرتاح له مال إلا ببيلها ولا يقتصر ذلك على هذا النوع من الحب ولكنه يتناول سائر انواعه فقد ترى عقاراً او متاعاً معروضاً للبيع ولا يملك ابتياعه فاذا رأيت الناس يقبلون عليه آتست في نفسك ميلاً الى شرائه والظاهر ان ذلك غريزي في الناس على اختلاف ادوار حياتهم فاذا اردت ان تطعم الطفل شيئاً لا يجبه نقر منه فاذا نظاهرت باعطاء ذلك الشيء الى سواه رأيت يطلبه بلجاجة ويتناوله بلذة

فثعلبة لم يكن بهممة امر الزواج بهند ولا هو احبها حب الزواج إلا بعد ما آتس من ميلها الى حماد فدفعته عوامل الغيرة الى الافتتان بها ولكن خبت فطرته جعل ذلك الميل مقروناً بالانتقام ولما لم يجد سبيلاً الى ذلك بالقوة عمد الى الحيلة فحدثه نفسه ان يشكوها الى والديها ويكشف لها ما كان من انفرادها بمحماد في الدهر ولكنه خاف ان تكون تلك الوشاية سبباً لغضب عمه حتى يتقلب عليه لعلمو بمنزلة هند عنه وربما صدقها وكذبها ورغب في حماد عنه فلم ير سبيلاً الى شفاء غلو إلا بخطبتها من

ابيهما وهو يعلم ان والدها لا يردّه فلما عاد ابوه من بيت المقدس بسط له عزمه على الافتتان بها لما بينهما من رابطة القرابة فسرّ ابوه بذلك ووعده ان يخاطب جيلة في الامر

فركب ذات يوم الى البلقاء في موكب وحاشيته فاستقبله جيلة بالتحلة والاكرام وان يكن في نفسو منه غيرة لاحرازه الوجاهة عليه لدى هرقل فلما التقيا ودار الحديث بينهما ذكر الحارث رغبته بمصاهرته فادى له ارتياحاً ووعده بنام الامر قريباً وهو غافل عما تضرعه هند من البغض للعلبة والاشتغال بحب حماد

فلما رجع الحارث الى بصرى خلا جيلة بامرأته تلك الليلة وذكر لها حديث الحارث فلم يسمع منها اجاباً ولا سلباً لعلها بما في نفس ابنتها من الاحقار للعلبة ولكنها استهملت ريثما تطارح الفتاة وتطلع على رأيها وان تكن عوائدهم لا تنج للسنوات حق الاختيار في مثل هذا الشأن ولكن هداً كانت متغلبة على عواطف والدتها حائرة على نفوذ بوذن بمراجعتها واستشاراتها

الفصل الثالث والعشرون

* هند وأمها *

اما هند فقد تركناها ليلة الدبر عائنة الى القصر وقد تمكنت من حب حماد والاعجاب بشهامته الى درجة لم تعد تراعي معها حقوق والدتها وخصوصاً بعد ما عاينته من غيرة ثعلبة وغدره ولكنها وصلت القصر وقلبيها لا يزال مشيعاً حماداً في عودته وهي تدبر حيلة لتخلص بها من لوم والدتها على غيابها فلما دخلت القصر رأت والدتها في قلق لغيبها فبادرتها بالعنب على تأخير الخادمة بالاساور فقالت والدة اننا استخسنا الاساور واعدنا الخادمة بها لتعجيل حضورك فادعت هند انها انتظرت رجوعها حتى حلك الظلام فلما ابطأت استصعبت بعض خدمة الدبر حتى اوصلها الى ذلك المكان فاستغربت والدتها ذلك الاتفاق وجعلت تعتذر لها عما حملتها من المشقة وقالت لعل الخادمة سارت اليك من طريق غير الذي جئت به ولا تلبث ان تعود

فنظاھرت ھند بالنعب وسارت الى غرفتها وهي غارقة في بحار الهواجس وقلبي
واجس علي حماد من غدر ثعلبة لما تعلمه من لؤم وخبائثه
ففضت تلك الليلة بمثل ھذه الهواجس لم يغمض لها جنين الى قبيل الصباح فنامت
قليلاً فلما اصبغت جعلت تنسم الاخبار ممن يذهب من خدمة صرح الغدير الى بصرى
لا يتباع حاجيات القصر

فما لبثت ان علمت بالقبض على عبد الله وفرار حماد فشكرت الله على نجاته
ولكنها ظلت في خوف عليه وهي لا تستطيع سبيلاً الى الوقوف على خسر ففضت بضعة
ايام منقبضة النفس لا يلد لها طعام ولا يهبها لها عيش حتى ظهر أثر ذلك على وجهها
والدنتها تبالغ في تسليتها ونسعر ما ألم بها وھد تعندر بانحراف صحتها على أثر النعيب
من ليلة الدير

فجعلت تصطحبها في أثناء النهار الى ضواحي القصر نفسيان الساعات معاً في
البساتين على ضفاف الغدير وھند لا تزداد الا انقباضاً وضعماً حتى امتنع لونها وقل
طعامها فارتابت والدنتها في امرها وازدادت حنقاً لها وميلاً لاستطلاع حقيقة حالها
فلم نجد الى ذلك سبيلاً . وقد قدسنا ان سعدى كانت من الذكاء والفتنة على جانب
عظيم فأساءت في ابنتها ظناً وخيل لها ان لذلك الغدير سبباً مهماً فعولت على اغتنام
الفرص لكشف ذلك السبب فلما خاطبها زوجها بأمر ثعلبة ورغبته في ھند اتخذت
ذلك الامر وسيلة لاستطلاع ما في ضميرها فدعتها ذات يوم للغروج معاً الى الغدير
على حدة فأمرت بعض الخدم فأعدوا لها وسائل الراحة فخرجنا حتى أننا ضفة الغدير
وكان الجو صافياً والنسيم عليلاً والماء يجري امامها وكانت ھند بلباس البيت وقد
ضفرت شعرها ضفيرة واحدة ارسلتها على ظهرها وشدت عصاة حول رأسها كمن يشكو
الصداع ففضت مسافة الطريق من القصر الى المكان المقصود تسير الهوينى صامتة تجر
ذيل رداءها وراءها وتنشغل نارة في رفعه عن الارض لنئلاً يعلق ببعض الاشواك
النابتة في ذلك الدستان وطوراً تلهو بالنأمل في ما يتطاير عن اشجاره من الطيور
فلما وصلت المكان انكأ على وسادة من الحرير المر كمش صنع دمشق فوق بساط
ثمين تحت شجرة ظللتها ساعة العصر وكانت والدنتها قد جمعت بعض الازهار في ضمة
واحدة جاءت بها اليها فتناولتها ھند وهي لا تتكلم فھمت بممازحتها فقالت اليك ھذه

الازهار فان لتقدمها معنى هل تنفهمه
فتناولت هند الازهار وهي لا تفهم المراد
فقالت لها والدتها ما بالك لا تحبينني على سؤالي
قالت اسأليني فاجيبك
قالت قد سألتك فأجبت
قالت لم تسأليني ولا اجبتك
قالت بلى قد أجبت
قالت كيف ذلك وانا لم أفه بكلمة
قالت ان تناولك هذه الازهار من يدي جواب على سؤالي
قالت لم أفهم مرادك يا أماء فافصحي
قالت اضمرت في باطن سرّي وانا أقدم هذه الازهار اليك انك اذا قبلتها من
يدي كان أخذها جواباً على ما في نفسي
قالت ما لي اراك تحاططينني بالرموز فاني لم اقل شيئاً
قالت ما لنا ولهذا فاني اسألك سؤالاً آخر فهل تصدقيني فيه
قالت قولي فاني طوع امرك
قالت أنحين اسن عمك ثعلبة
فلما سمعت اسمه بغتت وعلا وجهها الاحمرار ثم عفتها الاصفرار بغنة وظهر الانقباض
عليه ولم تحب

فقالت والدتها قد وعدت بالجواب ولا اراك تحبين
قالت لانني لم أر مسوغاً لهذا السؤال ولم افهم مرادك منه وانت تعلمين منزلة
هذا الشاب عدي
قالت ما لنا وللمراج فاني اسألك سؤالاً صريحاً فأرجو الجواب عليه صريحاً
فهل تحبين ثعلبة . فتجلدت هند وتجاهلت قائلة أليس هو ابن عي فأحبه محبة الاعمام
وان يكن لا يستحق هذه المحبة
قالت ولكنني أسألك هل تحبينه محبة غير هذه . فادركت هند مغزى كلام
والدتها فنرت ولم تحب

فاقتربت سعدى منها حتى احثك جنبها وقالت ما بالك لا تحببيني فان والدك كلني بالسؤال عن ذلك فاذا اجيبه

فسكنت هند ولبثت برهة تفكر في مراد امها فتوسمت من وراء هذا الكلام شيئاً قرأته على ملاح وجها ولكنها تجاهلت واظهرت عدم الاكتراث فظلت متكئة تنظر الى والدتها شذراً كأنها تقول لها كني المزاج في هذا الموضوع فكرر والدتها السؤال بهذا المعنى فاعدلت هند في مجلسها ونظرت الى والدتها والاستغراب ظاهر على وجهها وقالت افصحي يا اماء فان لسؤالك معنى اقضت له نفسي فما تعين بحبي لهذا النذل السافل غير الحب الذي اوجدته القرابة رغماً عني

فهمت والدتها ما في قلب هند من الحقد على ثعلبة وكانت قد لاحظت منها ذلك قبلاً فارادت المبالغة في التجاهل حتى تستطلع افكارها فقالت لا تسارعي الى الطعن في ابن عمك فانه سيكون أقرب اليك من ذلك

نفرت هند حتى وقعت الازهار من يدها ونظرت الى والدتها نظرة العنب وقالت لها ارجو ان لا اسمع منك يا اماء ما يكدر عواطفني فاني لا أرى مسوغاً لتكديري بهذه الالغاز فليس لثعلبة وطر عندي ولا هو من يطع بقراءة فوق هذه فوحبك لو استطعت التبرؤ منه لفعلت وانت أعلم الناس بمنزله عندي وإظنك اقدر مني على الجواب عن هذا السؤال أم أنت تمازحيني

قالت بل اقول الجمد فان عمك المحارث خاطب والدك بشأنك فاذا نجيبه فالتفت هند الى والدتها باستخفاف كأنها تقول لا اصدق ما تقولين فاجابنها بملاحع عينيها وابنسماها انها تريد الجمد وقالت لا بل اسألك سؤالاً صريحاً هل تحبين ثعلبة

فنهضت هند عند ذلك ونظارت بجميع الازهار التي كانت قد وقعت من يدها وازداد وجهها امتناعاً وظنت سكوتها جليلاً كافياً وظهها في محلو ولكن سعدى كانت تبالغ في التجاهل لعل الحديث يجرها الى معرفة سبب اقباض ابنتها بعد ليلة الدبر فقالت لها ما بالي اخاطبك فتشاغلين عن جوابي ألعل خطاي لا يستحق الجواب عندك فترامت هند على صدر والدتها بدالة الوالدية وقبلت يدها وقد خجلت لهذا التوبيخ

وقالت حاشاي ان افعل ذلك يا اماء ولكنني أعجب لسؤالك واصرارك على طلب الجواب وانت تعلمين اني اريد التبرئ من القرانة القديمة فهل اجرُّ علي عيباً آخر فليس لثعلبة وطر عندي

فقالت اُظنك شغلت عنه بغيره . قالت ذلك وتظاهرت بالمزاج ولكنها آتست في وجه هند تغيراً سريعاً فعلاه الاحمرار بغنة وسكنت

فقالت سعدى ما بالك لا تحببيني وارى وجهك يتكلم وعيناك تعترفان فما بال لسانك لا ينطق

فذكرت هند حبيبها واشتغالها به عن كل شيء . ونصورت ما أناه ثعلبة من الاذى له فاشتد بها الامر حتى تفرقت الدموع في عينيها فحوّلت وجهها عن والدتها اخفاء لما كاد يظهر من عواطفها ونشأ غزال نافرراً يئب على اللال عن بعد وظلت صامته ويكاد الدمع يتناثر من عينيها

فازدادت والدتها ارتياباً في شأنها فقالت في نفسها هذه هي الفرصة المناسبة لكشف الخبأ فقالت لها ما بالك تحولين وجهك عني يا هند ألعك تخفين شيئاً

فظلت هند ملتفتة وتمنت ان تكون في خلوة لتطلق الدموعها العمان

فأمسكتها والدتها بيدها وحاولت تحويل وجهها نحوها فافلتت هند وغطت وجهها بكما لئلا يظهر نكاؤها فحققت سعدى ان هنداً تبكي فكاد قلبها يتفطر عليها فقالت ما بالك يا هند ما الذي يبكيك ألي اصبت ظني وهل انت تخفين شيئاً عني فاوغلت هند في البكاء وهي تحاذر ان تسمع والدتها شهبها حتى بلّلت كمها ولم تستطع التسلط على عواطفها فحققت سعدى ان هنداً قد وقعت في الشراك وان قلبها في شغل ولكنها لم تفقه لحقيقة الحال فحاولت استطلاع السرّ فقالت اذن انت في شغل عن ثعلبة

فظلت هند صامته خجلاً وقد سنرت وجهها بكما بين يديها

فسكنت سعدى واخذت تنكر في من عسى ان يكون ذلك الشاغل وخافت ان تلح على ابنتها بالسؤال فتزبدها خجلاً فلا تعترف لها بالواقع

فبضعت دفتان وهما صامتتان واخيراً تظاهرت سعدى بالجد ونادت هند قائلة أما وقد ظهر منك ما ظهر فلم بعد ثمّ دأع الى الاخفاء فقد تحققت لدي انك في

شاغل ذي بال فافصلي يا ابتي وقولي ما في ضميرك فاني والدتك وانت تعلمين
حيي لك فاجعليني مكان سرّك واتخذيني صدقة لا والدك واطلعيني على مكروبات قلبك
فنحن الآن في خلوة لا يرانا احد وقد قضيت اياماً افكر في ما غيّرك وقض تنسك
وانت تخفين عني حقيقة حالك . أما ابن عمك ثعلبة فانه لن ينال منك شعرة وانا أعلم
الناس به وهي ان والدك رضي به فانا لا ارضاه لك .

ثم قمت بها وضمتها الى صدرها وقبلتها وهند تنالغ في تغطية وجهها حياء فقالت لها
سعدى افصلي يا ابتي واخبريني فقد نفذ صبري قولي ما في نفسك فاني معينة لك على مرادك
فلما سمعت هذ الكلام والدتها رفعت رأسها من بين يديها فظرت الى والدتها بعينين
قد اذبلتها الدموع وغيرها الهيام وحاولت الكلام فمنعها الحياء فاعادت وجهها الى
ما بين يديها واقتت نفسها على صدر والدتها وقد اخذ الهيام منها مأخذاً عظيماً
فرفعت سعدى رأس هند بين ذراعيها وقالت قولي يا ولداه لا تخافي فانتا في
خلوة لا يرانا احد هل تخمين احداً

فتمهدت هند تنهداً عميقاً ولم تحب فالتحذت والدتها التمهّد جواباً شافياً فقالت
ومن ذا الذي تمكن حبه ملك حتى تسلط على قلبك ونحن نحسبك اثبت جاشاً من
الرجال وما عهدي بك مسترسلة لعواطفك الى هذا الحد
فاطرفت هند وقالت لا بأس بي ولا انا احب احداً ولكني احب التخلص من
هذا العالم فاني نعيسة قد كتب عليّ العذاب من يوم ولدت . قالت ذلك وعادت الى البكاء
فانصدع قلب والدتها لذلك وجعلت تقلبها وتضيقها الى صدرها وتقول ما هذا
الكلام يا هند أعلك يئسة من تخمين

فنبذت هند الحياء عند ذلك وقالت نعم يا اماه اني يئسة فابكي على ابتك
وانديها فانه نعيسة شقية . فتخففت سعدى ظمها فارادت معرفة الباقي
فقالت وما سبب تعاستك وانت فتاة غسان وزهر هذه البلاد والاس يخذلون
بعتلك وبجسدك اترابك على مقامك
فقالت على اي شيء يجسدوني

هم يجسدوني على موتي فوا اسني * حتى على الموت لا اخلو من الحسد

فازدادت سعدى تحرقاً وتساقت الدمع من عينيها وهي تحاول التجلد خوفاً على هد وقد ادركت انها عالقة بحب رجل لا سبيل لها اليه فقالت لها لا تذكرى العاسة واست الآمنه الباهية ولا تخشي بأساً وانا الآخذة بيدك العاملة على رضاك فافضي عن ضميرك فقد كفانا بكاء واعلمي ان ثعلبة سيرتد خائباً ولو كان مستهلكاً في هোক فحرفت هند اسنانها عند ذكر ثعلبة وقالت ان الشر كله من هذا الخائن وهو وحك سبب هذا الشفاء وهل تظنين رغبته في خطتي من عظم حو لي قالت وكيف اذن

قالت انه فعل ذلك انتقاماً من ذلك الشهم الذي ابقي على حياتو كرمًا وانفة فذكرت سعدى حكاية السباق وما كان من شهامة حماد واحست كأن غشاوة انقشعت عن عينيها فايقنت ان الفتاة مغرمة بمجاد فبغنت ولم تبد جواباً لعلها ان الرجل غريب في تلك الديار وكانت قد سمعت بفراره والقبض على والك بتهمة الجاسوسية فوقعت في حيرة على انها لم تنفر من ذكر هذا الشاب في عرض الحديث بل كانت تتراج الى ذكره والتحدث عنه لما ظهر لها من شهامته وكرم اخلاقه ولكنها استغربت وقوع هند في هواء مع انتهائها وعلها بغوض حسبو وعدم سئوح الفرصة لها للاجتماع به وحسبت وقوع ذلك من قبيل التقادير الالهية فنظرت هند اليها لتستطلع ما يظهر منها بعد هذا اللميح فلما رأتها صامته قالت ألم أقل لك اني نعيسة فها ان مجرد الاشارة الى سبب بلائي اضاع حنوك والفاك في حيرة

فقالت كلاً يا ولدي فقد وعدتك بالانتصار لك ولا ازال على الوعد ولكن الخبر جاءني على حين غفلة فبغت له فهل انت تحبين ذلك الشاب انه بالحقيقة شهم كرم النفس وانت تعلمين منزلته عندي من يوم السباق فسكنت هند وكان سكوتها جواباً صريحاً

فعادت سعدى الى استغرابها واستعظمت زفاف ابنتها الى رجل لا يعرف له حسب ولا نسب فضلاً عن اتهامه بالجاسوسية والقبض على والك وغضب الحارث وثلعة عليه فلاج لها ان بقاء هند على عزمها سيكون سبباً لنفور بين زوجها وابن عمه

ولكنها لم تستطع مكاشفة هبند بذلك خوفاً عليها من سلطان الغرام بعد ما عاينت من شغلها وشدة تعلقها بحماد فعدت الى الملازمة فسايرتها في محرى عواطفها ريثما ترى ما يكون من أمر ثعلبة وقبضه على حماد فقالت لاسئما ان حماداً أهل لحبك ولكن كيف بلغت الى هذه الدرجة من الحب والرجل غريب عفاً

فقطعت هبند الكلام وقالت أم اقل لك اني صائت الى الهلاك لاني علمت بما بخامر ذهنك ولكن ما البائدة من كل ذلك وحماد في مكان لا نعرفه ولعله ذهب فريسة غدر ذلك اللئيم قالت ذلك وعادت الى البكاء

فقالت والدتها لا تجزعي يا هبند ان الله على الباغي ولكي استغرب نعد ثعلبة الايقاع بهذا الشاب وليس بينها علاقة

قالت هو الحسد والغيرة ولو لم الطبع فوالله ان هذا الخائن لا يساوي فتنة من نعل حماد قالت ذلك وهي تشرق بدموعها

فاخذت سعدى تخفف عنها وتطيب قلبها حتى سكن روعها فاحسّت الاطلاع على نار يخ ذلك الحب وكيفية وقوعه فقالت لها كيف تسلمين قلبك الى رجل لا تعرفين حسبه ولا نسبه وانت في ما تعلمه من تعقلك ودقة نظرك وحسن رويتك

قالت انه حسيب نسيب وسياه في وجهه

فقالت ان الوجوه لا تدل على الاحساب يا ولدي

فقالت قد علمت انه من امراء العراق وهذا يكفي وهي انه اقل من ذلك فقد تسلط على عواطلي بقوة من الله تجدد اسمه فما قد احاطت بك على مكشوات قلبي . قالت ذلك واطرقت حياء وقلبي يرقص فرحاً لما آستمنه من مجارة والدتها ووعدتها بالمساعدة

فقالت سعدى وكيف عرفت حسبه

فانتهت هبند لما ارتكبه من الكذب في ذهابها الى دبر بجبراء فهتت بيدي والدتها وجعلت نفلها ونقول اصغبي عن زلتي فقد ارتكبت ذنباً يوجب غضبك

فقالت وما ذا تعنين

فاحككت لها حكاية دبر بجبراء واعترفت بكل ما دار بينهما وبين حماد باختصار وحشمة وهي تطرق تارة وتسلم اخرى والدتها مدغية لتناول بعنفها حتى انت على آخر الحكاية فاحسّت كأنها اوقت من غفلة وسايرتها وطأمت قلبها ولكنها صبرتها

لتدبير وسيلة لا تشين شرفها او شرف عائلتها
 فاطمة بال همد من قبيل رضاء والدتها ولكنها ما زالت قلقة لفرار حماد بل
 صارت بعد ما آتست من تلك الملاطمة اكثر قلقاً عليه كأن خوفها من المعارضة
 كان شاغلاً لها عن التمكن بما وقع فيه حماد من الخطر فلما فرغت من ذلك الخوف
 تعاطف قلقتها . وكانت الشمس قد مالت نحو المغرب وهما لا تعلمان لو لم تربيا الرعاة
 عائدتين بالماشية من المراعي الى الرائب بالقرب من الصرح فهما بالتهوض ومشتا
 الهويناء وكل منهما في شغل فكاست همد في هاجس عظيم على حماد وما هو فيه وهما
 كثيراً البحث عنه فرأت ان تغتم تلك الفرصة للاستعانة والدتها على ذلك فدنت
 منها واستندت يدها على كتفها وهما ماشيتان وخاطبتها بدالة النوة قائلة ما الحيلة
 يا اماء لكف سعاية ثعلبة عن حماد أبجل شرع الله ان يذهب هذا الشهم
 فريسة الحسد والغدر

قالت خفتي عليك يا ولدي وكوفي مطمئنة فاني كافلة نجاته باذن الله ولا بد من
 الصبر والتؤدة لنرى ، ماذا تم من امر حماد وفراره
 قالت ذلك وهي ترتاب سقائه حياً وكانت تحبها نفسها باعظام عمل ابنتها
 وتنازلها الى حب رجل غريب وعدت نفسها مخضنة بمسايرتها في ذلك ولكن ضعف املها
 ببقاء حماد في قيد الحياة كان يهون عليها ذلك فبالغت في طمأنيتها حتى وصلت الى
 صرح الغدير وقضت بعض تلك الليلة في مثل هذه الاحاديث وفي الصباح التالي بدأت
 سعدى تشتغل باستطلاع خبر حماد فعلمت بعد ايام ان هرقل عنا عن عبد الله
 وامر له بكتاب الامان فاخبرت همداً بذلك فاطمان ما لها لعلها انه اما فرّ خوفاً من
 ثعلبة وانها مو بالجاهوسية فعدت تترقب من يعلمها بمقر حماد لتبلغه ذلك فلم تجد اليه
 سبيلاً فلما طال غيابها زاد قلقها عليه فصارت نفسها تتظلم ما يأتي به القدر وهي تنذر
 النذور سرّاً للدبر بجيرا



الفصل الرابع والعشرون

منادي دير نجران *

فَنيما هي ذات يوم جالسة في غرفتها تفكر في امر سمعت منادياً بجوار القصر يقول « من نذر نذرًا لنجران المبارك » ^(١) فاطلت من المافذة فرأت فارساً متزماً بعباءة وعلى رأسه قلنسوة الرديان وفي يده صليب من النضة فعلت انه منادي دير بجبراء بطوف البلاد والقرى يجمع النذور على جاري عادته في كل عام

فلما سمعت اسم ذلك الدير هاجت عواطفها وتذكرت حبيبها وما دار بينهما وبينه هناك فتوسمت في ذلك المنادي خيراً لعلها انه كثير التجوال فاحبت محادثته لعلها تستطلع منه خيراً سمعه عن حماد اثناء تجواله فامرت بعض الخدم ان يستقدمه ففعل فتعول الرجل ودخل القصر حاملاً خراجاً فجاء به الى هند فحياهما تحية الملوك وباوها الصليب فقبلته وقبلت به وقدمت له وسادة جلس عليها ووضع الخرج الى جاسه

وكانت امها في شاغل بعض مهام القصر وليس في الغرفة سوى هند فتأملت وجه الرجل فاذا هو غير الراهب الذي كان يرثيهم عادة فخافت ان يكون قد جاء بحيلة للسرقة او نحوها فسألته اذا كان يريد الذهاب الى قاعة الطعام فاثني على كرم الفسانيين واعذر بانها لا يحتاج الى طعام فقالت من اين اتيت يا حضرة الاب

قال اتيت من نجران في جهات اللقاء اجمع النذور فقالت هل جمعت شيئاً كثيراً

قال نعم يا سيدتي ان المسيحيين في هذا العام اكثرول من النذور حتى ملأت خرجي هذا من خبراتهم وتناول الخرج بيده وهنُ فسمعت له صوتاً يشبه صليل الحديد

فقالت ما هي انواع النذور التي جمعتها هذا العام اني اسمع لها صليلاً

(١) معجم ياقوت (ونجران اسم من اسماء دير بجبراء)

قال ان في خرجي هذا ندوراً كثيرة لم يدخل دبر بجيرا مثلها منذ عمر حتى العام
قال ذلك وتسسم فارناات هند بقوله وإدركت ان وراء تبسمه معنى خفياً
فقال وكيف تأتى لك ذلك والندور تعمل الى هذا الدبر ذهباً وفضة وحجارة
كريمة من اقاصي البلاد.

قال لم اخرج لهذه المهمة الا في هذا العام فنجت بالعجائب الغرائب
فرأت في كلامه لهجة غريبة فلم تستغرب ذلك لعلمها ان الرهبان في دبر
بجيرا اخلاط من امم كثيرة ولغات شتى ولكنها ازدادت شبهة في مغزى كلامه
فقال وما هي الغرائب التي اتفقت لك دون سواك

قال جئت الدبر بنذر لم يسبق له مثيل لا لغلاء ثمنه بل لغرابته قال ذلك
وحل رباط الحرج ويدك اليه وحاول اخراج ما فيه فسمعت صليلاً كصليل الدرع
فندكرت درع حماد فاخيل قلبها في صدرها وعلا وجهها الاحمرار ف قالت هات ما
عندك فاستخرج يد وفيها قطعة من درع لم يقع نظر هند عليها حتى امتقع لونها
وغلبت عليها البغمة لما آتست من المشابهة بينها وبين درع حماد فتناولتها وتاملتها
فاذا هي هي بعينها فالتفتت الى الراهب فرأته يتغافل عنها ولكنها قرأت على وجهه سرّاً
بمحاول اخفائه والابتسام يكاد يظهر فابدرته قائلة من اين انتك هذه الدرع ومن
هو الذي اعطاها

قال اعطائنها صاحبها

فقال هل تعرف مكانه فانها مسروقة من عندنا
فالتفت اليها قائلاً لا اظن صاحبها سارقاً بل هو رجل امين وقد ابتاعها بتمن
غال جداً

فقال ربما كان ذلك كما تقول ولكنني اعلم ان هذه الدرع كانت عندنا فلا
بد لي من روية الذي اعطاها فهل هو قريب من هذا المكان
قال هو قريب جداً واذا صدق ظني فهو في اقرب مكان منك وانت تعلمين
انه ليس سارقاً

فادركت انه يلغز بحماد وانه عالم بشيء ما بينها فتجاهلت ولكن الحمياء والبغمة
غلبا عليها ف قالت ما تعني بهذا الكلام أراك تقول جزافاً

قال كلاًّ ياسيدي اني اتكلم عن ثقة ولكنك لتجاهلين والحقيقة ظاهرة على وجهك
فتحققت عند ذلك انه رسول من حماد ولكن سوء الظن سبق الى ذهنها مخافة ان
يكون قادماً بدسيسة من ثعلبة فتجاهلت ايضاً وقالت اراك تقول كلاماً لا افهمه او
لعلك مخطيء في ظنك

فان لست مخطئاً لاني اتكلم عن ثقة وان شككت بمقالي سلي الاساور تصدقك الخبر
فقالته واي الاساور تعني

قال الاساور التي بيعت هذه الدرع بها واذا بالغت في التجاهل جئتك بتاجر
الحلى عينو

فايقنت عند ذلك انه رسول حماد اليها وحدثتها نفسها ان تسأله عنه صريحاً
ولكنها تجلدت ريثاً تخبر والدتها بذلك فتهضت للحال ولم تفتح بكلمة وسارت الى غرفة
والدتها وخلت بها واخبرتها بما كان فقالت والدتها اخشى ان يكون الرجل جاسوساً
من ثعلبة فلا تبوحى له بشيء قبل ان تتحقق رسالته

فجاءت سعدى وهند تتبعها فلما دت من الراهب وقف لها وحياتها فنظارت
بالجناء قائلة . أهلك قادم من دبر بحبراء الان
قال كلاًّ ياسيدي بل انا آت من البلقاء

قالت أرني الدرع فاراها اياها فتحققت انها الدرع التي نالها حماد جائحة سقو
يوم السباق فتناولتها من يده وقالت له ان هذه الدرع مأخوذة من عندنا ولعلها
مسروقة فهل تعرف الذي اعطاك اياها

فتبسم الراهب تبساً يمازجه ريب وقال أظنني اعرفه
فقالته وابن تركته

قال تركته في بعض قرى البلقاء على بضع ساعات من هذا القصر

قالت هل هو مقيم هناك ام راحل

قال هو مقيم ينتظر عودتي

قالت (وقد استغربت ذلك) وماذا يتوقع من رجوعك وانت تقول انه دفع
اليك هذه الدرع نذراً نذره الى الدبر فما معنى رجوعك اليه اني أرى في كلامك
تناقضاً

قال لا مناقضة في ما اقول لان صاحب هذه الدرع شرط في نذره انها لا يكون نذراً الا بعد ان اعود اليه بخبر عن امرهم قال ذلك وهو ينظر الى هند تطرف عينه كأنه ينتظر اشارة منها فأس في وجهها اشراقاً فتبسم واوماً يجنبه نحو والدتها كأنه يقول لها هل ابوح بالسرا مامها

فتحققت هند ان الرجل مرسل من حماد اليها ولكنها تجلدت ولم تنجبه .
فجلس والدرع في يده ينتظر ما تأمر به هند

أما هي فأومأت الى والدتها وخرجتا معاً وتركنا الراهب في الغرفة فلما خلا قالت هند وقلها برقص فرحاً لا ريب عندي يا اماء ان الرجل رسول من حماد ويظهر من اساليب كلامه انه آت بشري خير ولكمه لم يتجرأ على الصريح بذلك امامك لظنه انك لا تعلمين بما بيني وبين حماد ولا ريب عندي باخلاصه فاستحي لي بمخاطبته صريحاً فسمع منه الخبر الصحيح فاجابته والدتها الى ما ارادت فجلستنا في غرفة منفردة وارسلنا الى الراهب فجاءها واخرج على ذراعه فلما جلس قالت له سعدى عزمت عليك ان تخبرنا بحقيقة حالك ومن هو صاحب هذه الدرع وكان لعزمة الامراء عند العرب حق ان نطاع فنظر الراهب الى هند كأنه يستشيرها في الجواب فقالت له قل ولا تخف

فمد يده الى الخرج واستخرج الخوذة وقال اذا كنت لا تعلمين الذي المستوي هذه الخوذة بيدك فمن العثم ان اخبرك عنه

فحنق قلب هند وعلا وجهها الاحمرار وقالت نعم نعرفه فقل انت ما اسمه قال اسمه حماد يا سيدتي فارقت اسرة الفتاة اي اراق ولولا حجاب التعقل والرزاة لرقصت طرناً لذلك ولكنها امسكت نفسها فاكتفى الرجل بما قرأه في عينها من آيات البشر فشاركها في ذلك واذا نظر جوابها فقالت له صدقت هو حماد فابن هو الآن

قال هو في خلوة لا يجسر على القدوم الى هذه الديار لاسباب لا يجهلها عامة غسان فضلاً عن خاصهم

فقالت سعدى قل لما اذن من انت فاني لا اظنك راهباً فرفع الفلسوة عن رأسه وقال لا اظنكم تعرفاني ولكني اعرفكما بنفسي فاني عبدكما سلمان خادم سيدي الامير حماد

فاسناً سناً وكثيراً واخذت هند نسأله عن حال حماد وما مرّ به فنص عليها
الخبر منذ خروجها فراراً من غسان الى ان نجوا من الاسد وسارا الى عان وعادا
منها الى ان قال وقد جئت متكرراً بهذا اللباس وتركت سيدي حماداً في بعض
القرى في قلق شديد على والدك وفي شوق ولهفة لمولاتي (وإشار الى هند)
فقالت سعدى ألم يبلغكما خبر سيدك الامير عبد الله بعد .

قالت (وقد حملني عينيه ومال بكليته لاستماع خبره) كلاً يا سيدتي فما هو خبره
قالت قد علمنا ان الامبراطور هرقل عما عه وامر بصرفه مصحوباً بكتاب الامان
فانسلط وجه سلمان عند سماعه الخبر وود لو يكون طيراً فيسرع الى حماد
يشعر بذلك ولكنه استشار سعدى في الامر فقالت ارى ان تسرع الى مولاك بالخبر
وطبئته عن هند وقل له ان والدتها تهديك السلام ولكن احذر ان يعلم احد في
الارض انك جئت هذا المكان او نظفت بهذا الكلام فليبحث هو عن والدك ويستصل
الاخبار بينما عند الحاجة على مقضى الاحوال وليكن هو مطمئن البال والايام بينما .
وكانت هند تسمع كلام والدتها فلا تندي . ملاحظة ولم تكتف بهذه المواعيد العبيد
بل كانت تود ان تضرب أجلاً للقاء ولكن الحشمة امسكتها عن الكلام . اما سلمان
فسرّ كثيراً لما آتته في سعدى من الرضاء عن حماد ولكنه رأى قولها مختصراً مقضباً
لا يشفي غيلاً على انه اقنع بما لقيه وما سمعه فلبس فاسونه وودعها وخرج الى فرسو
وسار قاصداً حماداً . اما سعدى فلما تحققت بقاء حماد حياً ورأت هداً قد انتعشت
قواها وزال امتناع لونها الذي كان السبب الاول في تحريك حنوها حتى سابرتها في
ما دار بينهما بشأن حماد مع ما كانت تظنه من موته او انقطاع خبره فلما تحققت بقاءه
تمثل لها الامر مجسماً وندمت على ما فرط منها من مجارة هند بشأن حبها حماداً على
غرض حسبه مع ما تحناه من ايقاظ الفتنة بين زوجها والحارث اذ امنعت ثعلبة من ابنتها
ثم تذكرت غدر ثعلبة وكره هند له فصوبت ردها طلبه ولكنها احست بصعوبة ذلك
فابشت رهة صامته تفكر في الامر وهند تنأمل في ملائح وجهها وتنتظر ما يبدو منها فلما
طال سكوتها توسمت فيها التردد فانتفضت نفسها وعادت هواجسها اليها فتركت والدتها
وسارت الى غرفتها والفت نفسها على السرير حزينة تراجع في ذهنها حكاية سلمان وما
قالت والدتها له فلم تر في قولها ما يشفي غيلاً فاحست ان والدتها انما كانت تسابرها
ظاهراً فعظم عليها الامر

﴿ فتاة غسان ﴾ (تابع ما قبله)

وفيا هند في ذلك جاءت والدنيا وكأت لاتزال منقبضة النفس فرأت الدموع
تنلأ في عيني ابنتها فهاج حنوُّها ونسيت هواجسها ودنت منها وهي تنسم وأخفت
ما في نفسها وهند تنظر الى وجهها لعلها تستطلع شيئاً جديداً فلما رأتها تنسم اطمان
بالها ولكنهما ادركتا انها انما فعلت ذلك حنوًّا فعمدت الى اثاره شفقتها التماساً لمساعدتها
فظاهرت بالغضب دلالاً وتبهاً واطرقت هنيهة لا تتكلم

فقلت سعدى ما لي أرى الهواجس قد عادت اليك ألم يكفك ما سمعته
عن حماد

فلم نجب

فازدادت سعدى حنوًّا وألفت يدها على كف ابنتها وقالت لها ما بالك ساكنة
يا هند ألم تشكري الله على انعامه

قالت شكرته كثيراً ولكنني اراه لم يأذن بانقضاء زمن نعاسي لاني لم اكذ اسمع
ما سرِّي حتى رأيت ما كدرني

قالت وما الذي يكدرك بعد ذلك

قالت يكدرني ان ارى حبل المساعدة كاد ينقطع

قالت وماذا تعنين بذلك

قالت اعني ما أقرأه على وجهك من آيات التردد ولا لوم عليك فقد عاملتني
بما استحقته . قالت ذلك وقد رقت تشاغل بحل ضيقها وعنصها امام المرأة فرافقتها
سعدى وهي تنظر اليها وتوقع منها ابتساماً فرأته لا تزال منقبضة فخافت ان تعود الى
حالتها من الضعف فهان عليها كل ما تريد وصممت على مساعدتها فعلاً فنظارت
بالاستغراب وهمت بها فقبلتها وضممتها الى صدرها قائلة انزع عني الظنوك يا هند
فاني على ما تريدن واسوف تربين مني ما يسرك

فانعمشت هند لما سمعته ولكنها نظارت بانكار ذلك وقالت يكفيني املأ بلا
عمل فاني اراك تستغرين بي

فضحكت سعدى حتى قهقهت وظهرت المزاج قائلة ذلك خلق الهيين فانهم لا
يستفرون على حال

ف نظرت هند اليها شذراً وشعرها لا يزال مخلولاً واصابعها تخطله فلما رأت والدتها
تضحك انبسط وجهها وعادت اليها الآمال فتبسست ولكنها حولت وجهها نحو المرأة
وتشاغلت بضر شعرها

فمدت سعدى يدها الى الضيفة وتناولتها وقالت وهي تنمض ضفرها دعينا من ضرر
الشعور فاننا في ما هو ادعى الى الاهتمام

ف قالت هند لا ارى الاهتمام بشيء آخر الا عبثاً

ف قالت أمن العبث ان نتخلص من مطالب ثعلبة

فلما سمعت اسمه نفرت وانقبض قلبها ولكنها توسمت باباً للفرج فقالت يا حبذا
ذلك لو صح

وكانت سعدى قد فرغت من ضرر الشعر فامسكتها بيدها واجلستها الى السرير
ونظرت اليها نظرة فهمت هند منها انها تريد الجدة فاصغت اليها فقالت دعينا من
المهاجس يا هند ولنبحث في الامر بالتروي

ف قالت قولي ما تريدن واذكري وعدك

قالت لا اقول الا ما يرضيك ولكنني اعلم انك عاقلة رزينة ولا اظنك ترتابين
من حي لك وانعطاف والدك نحوك واذا اتينا امراً ساءك اوسرك انما نأثيو التماساً
لراحتك

فخافت هند ان يكون وراء هذه المقدمات نصيحة تمنعها من حماد فلبثت صامتة
وقلبها يخفق في انتظار ان تمام الحديث

ف قالت سعدى لا يسعني الاغضاض عن اهلك البحث عن اصل حماد وفصله
فان الحب يعني وبصم فانقدم اليك ان تستجيبني رشذك ونسألي عقلك هل هو
مساعد لك على ما رضية قلبك

قالت نعم يا اماء اني في كمال عقلي ولا ارى في عملي هذا خطأ ولا ريب عندي
اذا خاطبت حماداً واستطلعت اخلاقه واطواره انك تربين فيو مثل ما رأيت
انا فهو شاب كامل الصفات كريم الاخلاق ولا بد من ان يكون ذا حسب ونسب
فاذا لم يكن ملكاً ارضياً فهو ملاك سماوي ولا اقل من ان يكون اميراً وزد على ذلك
ان ما شهدناه من شهامة وكرم اخلاقه يؤهله لمصاهرة والدي وقد قبل المرء باصغر بوه

لا يبرده في اني غير حبيب فهو لا ريب شهم كريم . قالت ذلك وعلامات الهيام
ظاهرة على وجهها تخالطها ملامح الخجل

فكانت سعدى اذا كان الامر على ما نقولين فاني اهتلك بهذا الصيب ولكننا
يجب ان تدبر الامر بالحكمة حتى لا ينجم عن عملنا ما يضر بمصلحة والدك او بأول الى
حرب وانت تعلمين علاقتي بان عمي الحارث وما بينهما من المنافسة الموهمة بالجمالة
فتخشي ان بأول عملنا هذا الى حرب تنفذ نارها وتسفك الدماء من اجلها
فكانت أتريد ان اذن ان ارضى شعلته و

فقطعت سعدى كلامها قائلة كلاً لا اريد ذلك ولا ارضاه ولكنني اريد ان لا
تستعجلي في الامر فان في العجلة ندامة

قالت وماذا افعل اذن
قالت اتركي تدبير ذلك الي على ما تقتضيه الاحوال ولا ريب عندي انك
ستنالين منك على امدون سبيل .

قالت ها اني قد القيت حملي عليك وجعلت قيادي في يدك فافعلي ما تريد
فقبلتها سعدى وطأنها ثم تركتها وسارت الى غرفتها

الفصل الخامس والعشرون

* التفتيش عن عبد الله *

أما سلمان فعاد الى حماد وكان في مأمن خفي ينتظر عودته بفارغ الصبر فلما لقبه
استطلعه الخبر فاجابه وامارات الانبساط ظاهرة على وجهه وبشّره بالنعو عن والدك
وبقاء هند على حبها ورضاه والدتها بذلك فلم يكن يوم اسعد على حماد من ذلك
اليوم فابرقت اسرته وتمثلت له السعادة خادماً مطيعاً وقضى بقية يومه ببرد حديث
سلمان عن هند وما ينطوي تحت كلام والدتها لكنه ما لبث ان عاد الى ذكرى والدك
وقد خاف عليه طول الغياب فاستشار حماداً في امره فقال اري ان نبحث اولاً عنه
فاذا التفتينا به تركنا تدبير ذلك اليه

فقال حماد أسير الى بصرى متسكرين

قال لا خوف علينا بعد ما صدر من العفو ولكن ثعلبة ثعلب لا يركن اليو فامكث
انت هنا ودعني اسير بنفسى الى منزلنا في غسام ومتى وصلت المكان سلمت حقيقة الخبر
فقال وكيف تعلمه

قال انى ذاهب للبحث عن الحبأة التى تركناها بجوار منزلنا لا يعلم بها احد سوانا
فاذا لم اجدها علمت ان سيدي اخذها فنعلم أنه عاد من سفرته فنبعث عنه في بصرى
وجوارها والآ فنعلم انه لم يعد بعد فاسير الى بيت المقدس للتفتيش عنه

فاستحسن حماد الرأي فأتوا ليلتهم ولما أصبحوا ركب سلمان لباس الرهبان وترك
حماداً في منزل رجل من نقايا الاسباط الذين كانوا يقيمون في جنوبي البلقاء . وكان
الانباط في الزمن القديم أمة عظيمة ذات عز ومجد وكانوا واسطة عقد التجارة بين
مصر والشام والعراق وبلاد العرب بقمون شرقي العقبة بين مصر والشام وبلاد
العرب ولا تزال بعض آثارهم باقية حتى الآن في ما يسمى ناترا او بطرة ويغلب على
الظن ان اصلهم من انباط ما بين النهرين . وما زالت دولتهم قائمة حتى غلبهم الرومانيون
في اوائل القرن الثاني للميلاد فتشتت شملهم وثرقوا في البلاد واخناطوا بقائل العرب
الاخرى . ومن طرق معائشهم التخم وقد حملوه معهم من بين النهرين ^(١)

وكان صاحب المنزل المشار اليه طاعناً في السن لم يرزق اولاداً يعيش من
زراعة بقعة من الارض صغيرة ولم يكن يحب الغسانيين لانهم على زعمو احدث نعمة من
الانباط وان الانباط اولى منهم بالسيادة وسبب بغضو لم الحسد وذلك طبعي في من
كان من سلالة الحكماء ثم رأى السيادة في غير اهلها فانه لا يستطيع حبهم او الاذعان لهم
الآفراً فاذا خلا بنفسه ندد في حكومتهم وعدد معائبهم وهو من أدلة الضعف في بني الانسان
وكان سلمان لما عاد بحمد من عمان قد عثر على هذا الرجل واستطلع حاله فعلم انه
احسن لمجاء يلجأ سيد اليو ربنا يعود اليو بخير هند فلما عاد بخبرها كما تقدم وانفقا على
ذهابه الى غسام سارا اليها وهو مطمئن البال ولكنه غادر حماداً على مثل الحمر في انتظار
رجوعه

فلم يمض يومان حتى عاد سلمان ومعه الخف والنفود التي كانوا قد خبأوها بجوار

(١) الانسكوا يذبا وغيرها

متزلم فدفعها الى حماد وهو منقض النفس كاسف الببال فسأله عن أمره
قال اني خائف على سيدي من دسيصة ابن الحارث واخاف ان يكون قد غضب
لما ناله من العفو فانهذ اليو رجالاً اغتالوه
قال وما الذي حملك على هذا الظن
قال اني تدرت الامر واستطلعت الخبر من اهل بصرى سرّاً فعلمت ان الخبر
بالعفو وصلهم من عشق ايام وان سيدي خرج من بيت المقدس مع قافلة سارت الى
الحجاز رأساً فهل تظنه سار معها
فقال حماد وكيف بعقل ان يسير الى الحجاز ونحن على موعد من لقاء في عمان فلا
يعد ان يكون قد رافق القافلة الى جوار عمان ثم عرج اليها
فقال سلمان ولكنه يعلم ان موعدنا فرغ اذ قد مضى الشهران او اكثر منذ افترقنا
فقال حماد لعله اراد المرور بعمان لينتقم عودتنا منها فلا يلبث ان يعلم بذلك
حتى يعود فلنصبر قليلاً نتسم اخاره
فصمت سلمان وهو لا يزال خائفاً على سيده ولكنه نظاهر بالافتناع تخفيفاً عن حماد
وكان لا يزال يري الرهبان وقد غشيهم الغبار فتزع ثيابه وغسل وجهه وكان صاحب
المنزل قد خرج في بعض المهام وترك كلبه يحرس المضارب ريثما يعود
فاغتمنا تلك الفرصة واخفيا ما جاء به سلمان من الاموال فجعلنا بعضه في جيوبهما
وبعضه بين الثياب

الفصل السادس والعشرون

* الخطبة *

تركبا هندا في صرح الغدير وقد املت الحصول على حماد ولكنها كانت ترى
اظلالاً من الرب تعترض آمالها لان ذكاءها ودقة نظرها اوحيا اليها شكاً في
رضاء والدتها عن حماد اما هذه فكانت تحاول اقناع نفسها في صلاح ما وعدت
هنداً به ولكنها ما زالت ترى في ضميرها ما يعترض مقاصدها على انها كانت تغلب
على ذلك الضمير ارضاء لابنتها وتنتظر ما يأتي به القدر

وفيا هي جالسة ذات يوم في الصرح جاءها بعض الخدم ينيها بقادم من البلقاء
فهرولت اليه لعله جاء بخبر من جبلة وقد طال أمد غيابها فرأت فارساً رجلاً وقيل
يدها فعرفت انه من رجال زوجها فاستطلعت الخبر فقال ان الامير جبلة قادم اليكم
في صباح الغد وهو يقرئك السلام
فقالت أهلاً ومرحباً فاما استعد لاستقباله ثم دخلت وقد علمت انه آت ليساً لها
بشأن هند وثعلبة

فانقبضت نفسها وشعرت بحرج المقام وجعلت تفكر في حل ذلك المشكل وفيما
هي غارقة في بحار الهواجس جاءت هند وكانت قد رأت النارس وعلمت سبب
محيئته فحنق قلبها لما بعرض آمالها من الشكوك وتوقعت ان ترى والدتها في ارتباك فلما
علمت بخلوها دخلت غفلة فرأتها في ما تقدم من الانقباض فحييتا فانبهت سعدى لحالها
فحاولت الانسجام لتخفي ما يخامر قلبها فاندبرتها هند بصوت مخنق فاثلة لا يشغلك
شاغل يا أماء فاني الامر ما يدعوا الى هذا الاهتمام
فقالت سعدى لست في اهتمام يا ولدي ولكنني اشعر بالخراف في صحي
فقالت صدقت ولكن سببه هند هه

قالت حاشا وكلاً فانك تسليتي ومنشأ سعادتي ألا تربيني حالماً وقع نظري عليك
انشرح صدري وانبسط وجبي

قالت ارى ذلك ولكنني أرى عليه صبغة التكلف فلا تربيني ولا تنهر نفسك فان
كل حال تزول . وارادت هند ان تخنبر والدتها وتستعيد وعداها لها قبل قدوم
والدها لان على اجتماعها هذا يتوقف مستقبلها

فقالت سعدى ما بالك تكلميني بالرموز ألم تخفني حتى الآن اني على ما وعدت
قالت قد تخففت ذلك ولكنني اراني سببت لك تعباً وارتيباً

قالت ان نعلك راحة فاقلي عن هذه الظنون وهلم بنا ندر الامر فنتفق على
خطة نسير عليها . لأن والدك قادم غداً ولا أظنه إلا فاتحاً حديث ثعلبة فما ظنك
فيما نجيته به

قالت انت تعلمين ما في قلبي فاجيبني بمنضى حكمتك أما انا اذا سئلت فلا
جواب عندي غير السلب ولومها كلني ذلك

فقالت هي انه سألنا عن سبب هذا الرفض فهل اذكر لك حكاية حماد
قالت لا ادري ما نقولين ولكنني اخبرتك بمكنونات قلبي وقد وعدتني بتدبير
الامر فافعلي ما تشائين

فسكنت سعدى وقد وطنت نفسها على مجاورة ابنتها وخرجت من الغرفة وامرت
اهل النصر بضرب المضارب واعداد الذبائح لاستقبال جيلة وحاشيتو في صباح للغد
فاصبح الصباح وقام الخدم لاعداد ما يلزم ففرشوا البسط ونصبوا الخيام وذبحوا
الذبائح واوقدوا النيران ولبست سعدى وهدأ حسن ما لديها ونهيا للاستقبال فلما
كان الضحى ظهر الغبار من جهة اللقاء فعلم اهل النصر بمجيء جيلة ورجالو فخرجوا
للملاقاة واطلت سعدى من بعض النوافذ المشرفة على ذلك السهل أما همد
فاستلقت على سريره وفرائصها ترتعد لهول ما تصورته من غضب والدها اذا علم بها
في نفسها ثم ما لبثت ان سمعت قرعة اللجم وصهيل الخيل يحوار النصر فعلمت بوصول
والدها وفسانته فحقت قلبها ولكنهما تجلدت واطلت من الشرفة فرأت الفرسان قد تحولوا
الى الخيام المضروبة لم هناك وترجل والدها امام الحديقة ودخل بلباسه الفاخر وقد
لف رأسه بكوفية والعقال حولها والنف بالعباءة فوق الطيلسان فاستقبلته سعدى
بوجهه باس بخامر بعض الانقباض ثم جاءت هند فقبلت يده فضمها وقبلها واستغرب ما
راه في وجهها من الغول فسالها عن سبب ذلك فاجابته والدتها بانها تشكو من ألم
عارض فساروا جميعاً الى قاعة مفروشة بالبسط والسجاد والوسائد فدخل ثعلبة ممسكاً
هنداً يدها حتى جالس في صدر القاعة واجلسها الى جانبه وقد تنهت فيه عن لطف الشبهة
والحو. لما آتته فيها من الضعف فما صدق انه خلا بها وبوالدتها حتى سالها عن شكوى
هند منه فظاًناه وألحنا عليه ان يبدل ثياب السفر ويستريح ففعل وقد اوصى الخدم
باصلاح ما يحتاج اليه رجاله من الزاد

أما سعدى فآتت في وجه زوجها انقباضاً لم تعه فيه وخصوصاً عند مقابلته
هنداً بعد غياب طويل فعولت على استطلاع السبب بعد الغداء والاستراحة ولكنهما لم
تستطع ذلك لانشغاله بشاهدة غرف النصر وزولو الى الاسطبل يتفقد افراساً له كان
قد تركها هناك ولكنهما لاحظت انه انما كان يتلأه بذلك تخلصاً من سؤالها واستمهاها
فلما كان المساء جلسوا للطعام وكل منهم في هاجس فلم يدر بينهم حديث غير ما لا

بد منه على المائدة كالنفس الآتية او استبدال بعض انواع الطعام او الشراب ونحو ذلك فلما فرغوا من العشاء تفرق الخدم يهيمون بشؤونهم وتقي جملة وزوجته وابنته في القاعة على حدة وكان جملة متكئا على وسادة وهند الى جاسو والدتها بين يديه

فيظن الى هند وتأمل وجهها ثم التفت الى سعدى وقال لها لقد اطلنا الغيبة عليكم هذه المرة لشواغل ابنتي وكنت أعد النفس بالقدوم اليكم منذ ايام فلم استطعه الا اليوم وكنت احسب مجيئي هذا يفرج كربتي فلم أرا الا ما يزيدني انقباضا فنتطاولت سعدى بعنفها نحوه قائلة

ليس في هند ما يدعو الى الانقباض فقد برز على الانسان ايام يتوكل بها مزاجه لغير سبب يعرفه ولكني توسمت في وجهك انقباضا منذ قدومك هذا الصابح وكنت اغاظ نفسي واحسبني مخبطة أما وقد اقررت به من فيك فارجوان تنصح عن السبب قال ليس في ما تشاهدينه من الانقباض ما يهيك الاطلاع على اسبابه فهو امر عارض لا يدعو الى بحث فقلت لا اظن امرا يهيك لا يهينا ومهما كان من شأنه فان بالنا لا يهدأ الا بمعرفته

فقال دعينا من الخوض فيه وقد يكون سخابة صيف تنفث ولا تمطر فاشتاقنت سعدى الى استطلاع الخبر وعلمت انه منقبض من خبر سمعه ولم يتحقق صدقه . فقالت هب اليك لم نتحقق ما سمعته فاطلعا عليه قال جاءنا قادم من الحجاز يجبرنا بقدوم جد من العرب لمحاربنا فبلغت سعدى وقالت وما سبب قدومهم ولا تعرف بيننا وبينهم ما يوجب حربا

فهز رأسه واعتدل في مجلسه وجعل يمشط لحيته باصابعه وقال ان هؤلاء العرب عصاة قوية برئاسة بني ظهر بينهم يدعو الناس الى دين جديد وقد بعث كذابا يدعوننا فيه الى دينه فوصل كتابه الى الحارث فمزقه وامتنع حامله فشق ذلك على صاحب الدعوة فانفذ جدنا من رجاء لمحاربنا فبثنا العيون والارصاد لمراقبة مسيرهم ولا نعلم متى يصلون « سنأتي البقية »

فبغنت هند عند ذكر الحارث وقالت في نفسها « قد كتب علينا الشقاء على يد الحارث وابني فلا حول ولا » ولكنها نظرت الى والدها وقد ثارت فيها الحمة وقالت وما يجئنا من قدوم هؤلاء العدنانيين ونحن بني غسان رجال اشداء لا نرهب القتال فانشرح صدر جبلة لما اظهرته هند من الشهامة وقال نعم اننا لا نخاف حربهم ولكننا كنا في غنى عن حشد الرجال واعداد معدات الدفاع وحصونتنا لا تزال مهدمة على اثر حروبنا مع الفرس سأل الله الحارث لما جرّه علينا من البلاء

فقالت سعدى يظهر ان هؤلاء العدنانيين انما يريدون قتال الحارث لافئادنا قال نعم ولكننا جميعاً نحت سيطرة الروم فاذا احتاجوا الى دفاع استنجدونا بجيلاً ولا يسعنا الا الاذعان . فقالت هند انخطئ الحارث ونحن نحارب عنه قال ذلك ما لا بد منه اذا دعت الحالة اليه وسنرى ما يكون من امر هذا الجند ولكن الحارث جاءني بالامس وتداولنا في الامر ملياً واخذنا في حشد الرجال واعداد معدات القتال وعلى الله الاتكال

فلما سمعت سعدى باجتماع الحارث بزويها ايقنت انها تداولوا في شأن هند وتوقعت ان تسمع حديثه من جبلة ولكنها علمت انه لا يذكر ذلك وهند حاضرة فمظاهرت بالملل وقالت اظنك تعباً من جراء السفر في هذا الصباح فهل تريد الذهاب الى الفرس . فادرك مرادها فاجاب دعوتها ونمض ونهضت هند ولم يفتها امراد من ذلك فانصرفت الى غرفتها بدعوى الرقاد وقد نظرت الى والدتها بعطف خفي كأنها تذكرها بوعدها فافتروا وخلت سعدى بزوجها في غرفة الرقاد وقد اعدت له الخدم ثياب النوم فبدل ثيابه وبدلت هي ثيابها وكلاهما صامت يفكر في جهة والموضوع واحد

الفصل السابع والعشرون

* كشف السر *

فانكأ كل منها على سريره والسريران متقابلان وفي الغرفة شمعات مضيئة على مائدة وقد هدا الليل واستولى السكون على ذلك الصرح لذهاب الناس الى منامهم الا

ما كانوا يسمعون من صهيل خيول في معسكر حاشية جيلة عن بعد
فبدأ جيلة بالكلام قائلاً عهدت اليك مهمة منذ ابام وكنت اتوقع قدومك إلينا
نحبر انماها فابطأت حتى استبطأ الحارث جوابي فجاء يستعجلي فيو وقد آنست منه
تغيراً لما كان يتوقعه من سرعة الاجابة وخصوصاً بعد ما سمعته من قدوم هؤلاء
العدنانيين فانه يرى التعجيل في الافتران قبل وصولهم
فاحست سعدى بما جرّته على نفسها من المشاق ؛ اكدت لهند من الوعود فترددت
برهة في الجواب

فابتدرها جيلة قائلاً ما بالك لا تخبيني ألع في الامر مندوحة للتردد
قالت لا أعلم ذلك ولكنني اعلم ان هذا لم ترصحه منذ ذكرت لها هذا الامر
فقال وماذا كان جوابها
قالت لا سلباً ولا ايجاباً
قال اذن هي راضية
قالت لا يدل السكوت على الرضاء في كل حال
قال وقد بغت وماذا اذن العلك فهمت ما يدل على الرفض
قالت لا ادري ولعلي مخطئة في ظني
فقال وقد استغرب جوابها قولي افصحي فاني ارى وراء توقفك ما بأول الى
خطر جسم

فقالت واي خطر نخافه
قال ألا تعلمين ان رفض هذا الامر بأول الى نفور بيننا وبين الحارث
فقالت وهي تجهل مراده واي علاقة بين الامرين ا يكون الزواج قسراً
فهب من مجلسه وقد زاد استغراباً وقال أبلغ من هند ان ترفض ما اختاره لها والداها
قالت لا نقل (والداها) بل قل (والداها) فقط
فحملني وقال وقد علا صوته العلك مجازية لها على تحنها يا سعدى
فاجابته بصوت خافت قائلة لا لم اجارها في شيء ولكنني خفت عليها الموت فاذا
كنت نرى ان نجود بهند فريسة لذلك الرجل زوجها به . قالت ذلك واطرقت
وقد شرقت بدموعها

فبهت جبلة عند سماع تلك العبارة وليث رهة بحسب نفسه في منام ثم قال وماذا تعنين يا سعدى ألعلك تنكلمين عن ثقة

قالت لم اذكر لك الا ما تحفته بعد جدال طويل واذا كنت لا تصدق مقالى فهذه هند ادعها اليك وخطبها وجهاً لوجه فقد نددت حيلتي فيها

فرجع جبلة الى صوابه وتذكر حبه هذا وما يعجب به من شهامتها وتغلغلها ولكنه ما زال على ما يخافه من عواقب ذلك الرفض فقال لها ادعها الى لاخطبها واسمع اعتراضها

فوقفت سعدى وهمت بالخروج الى غرفة هند ولكنهما علمتا ان مجيئها وجبلة في حال غضبه قد ينتهي الى عاقبة وخيمة فرأت من الحكمة ان تخفف من غضبه وتهدئ روعه قبل مجيئها فتقدمت منه والدموع ملء عينيها وقالت ها اتي ذاهبة لاستقدامها ولكنني انبهك الى امر ارجوان لا يبرح من بالك
قال وما ذلك

قالت انت تعلم شهامة هند ورقة احساسها وخصوصاً بعد ما عانت من الضعف على أثر حديثي معها بشأن ثعلبة وتعلم ايضاً ان ثعلبة كما نعرفه نحن ليس كفواً لها مع ما خبرناه من خساسته وغدره ولا نظنه يجيها بل هو يريد قتلها فاذا علمت ذلك تدرى الامر بالحكمة وخطبها بالحسنى ولا تطمع في اكرامها لئلا تسوقها الى حنظلها فنندم حين لا ينفعنا الندم فمن الحكمة ان ناخذها باللين والمطل ريثما تتغلب على عواطفها

فقال جبلة لقد نطقنا بالصواب ولكنني لا اراني قادراً على التخلص من شر أنوقعه بسبب ذلك على اني لم ادم سبب رفضها اياه وهو ابن عمها ولا اعرف في غسان من هو اقرب نسباً منه ولا أليق بمقامها فما سبب هذا البغض

قالت اما كرهها له فبسبب دناءته وخساسته فقد عاشرته اعواماً طويلاً فلم نجد فيه شيئاً من انفة الرجال وكرم اخلاق بني غسان وطالما حدثني بذلك عن هذه الاعوام وكثيراً ما كنا نذكر سيئاته بحضورها فلا يسعنا بعد ذلك اقناعها بتزاهنو وكرم اخلاقه فقال جبلة لا انكر عليك ذلك يا سعدى ولكنك تعلمين ما بيننا وبين ابن عمنا

المحارث من المنافسة المستترة برداء القرابة تحت ظل الجاملة ولا ريب عندي ان رفض طلبه يجرئنا الى حرب ونحن في حال تدعو الى اجتماع الكلمة لما سمعناه من اخبار الحجاز

فقلت اني موافقة لك على ما نقول ولكنني على ثقة ما قلته لك واقوله ايضا وهو ان اصرارنا على اقترانها بعلبة يقودنا الى ما نندم عليه ساعة لا ينفعنا الندم فهي لا تحبه ولا ترضاه ولا يمكن ان ترضاه فهل يهون علينا ان نخسر هندا وهي ثمن حياتنا ومرجع آمالنا أنضعها بين يدي ذلك الجبان الخسيس وهو لا يجبرها قالت ذلك والدموع تنائر من عينيها

قال اراك وانفة بعدم حيولها ولو كان كذلك لم يطلبها
قالت انا متحقة ذلك ما سأقصه عليك في فرصة اخرى اما الآن فاني داعية
هندا اليك لتسمع كلامها شفة لشفة والتمس منك ان ترفق بعواظها ما استطعت لان
العنف لا يجدينا نفعاً

قالت ذلك وخرجت والمصباح بيدها حتى أتت غرفة هند فرأت الباب موصداً
وآمنت في الغرفة صوتاً فاصاحت بسمها فسمعت بكاءً يتخلله شقيق فعلت ان هنداً
تبكي فدارت الباب ونادتها باسمها فابطأت قليلاً ثم فتحت فأدنت سعدى المصباح من
وجه هند ونظرت اليها فاذا هي ذابلة الاجفان محمرة العينين كاسفة البال فانظر قلبها
لذلك المنظر المريع فوضعت المصباح على الارض وهمت بها وجعلت تقبلها ودموعها
تساقط حنوً وشفقة وهي تقول لا تنكي يا ابنتي لا تنكي ولا تحزني فلا يكون الا ما يسرك
فالت كفاني يا اماء تعزية ومسايرة فقد سمعت غضب والذي باذني

قالت وما الذي اسمعك كلامه وانت هنا
فالت مررت بالباب فسمعت بنبهرك وهو مصرّ على قوله وما ذلك الا لتعاسي
فاذا كان لا يزال على عزمه فاستودعك الله . قالت ذلك وعادت الى البكاء
فابلتها سعدى وقالت لقد أخطأ ظنك يا هند فان والدك يكاد يسلم معي برفض
ثعلبة وهو انما ينتظر مخاطبتك في شأنه لسمع الجواب من فيك فهياً بنا اليه فانه
ينتظرنا في الغرفة . وارادت سعدى ان تدخل على زوجها بهند وهي باكية لعله يبرق
لها فيجاريها على مراحها .



الفصل الثامن والعشرون

* موقف هائل *

فاحبت هند الانتظار رهة ريثما تجف دموعها فلم تمهلها فسارتا حني وصلنا انقرة
وجبله متكى على فراشه وقد استبطاً امرأته واحب البقاء متكئاً اظهراً لما في نفسه
من العتب على هند اما هي فدخلت مطرقة وقد تكسرت اهدابها وذبلت اجفانها
واحمرت عيناها وتوردت وجنتاها واسترسل شعرها على ظهرها ومشيت حتى اقتربت
من سرير والدتها فوقفت وأسندت كتفها الى الحائط ذليلة كئيبة ولبثت مطرقة
فلما رآها جبله على تلك الحال حن لها ونسي غضبه ولكنه ما زال مكبراً عليها
فخطبها قائلاً ما رأيك يا هند

فظلت صامته تتشاغل باهداب ضفيريها بين اناملها
فقال ما رأيك ما من علك ثعلبة

فلما سمعت اسمه ارتعدت فرائضها وعاد البكاء اليها فامسكت نفسها عن الشهيق
ولكنها لم تستطع امساك دمعها عن الانحدار فلما شاهد جبله تلك الدموع تنقطر عن
خديها شعر كأن قلبه يتقطر دماً عليها
فقال ما بالك لا تحبينني ونحن انما بعثنا اليك لسمع الجواب من فبك قولي ما
جوابك على طلب ثعلبة

فلم تعد نمالك عن الشهيق ففحوت من الغرفة وارادت الخروج فامسكتها سعدى
بيدها وهتت بارجاعها فألقت نفسها الى الارض واخذت في البكاء حتى كاد
يغى عليها

فجعلت سعدى تخفف عنها واومأت الى زوجها ان يكف عن السؤال وجاءتها
بماء رشنا به وسقنها منه فطرق حتى هدأ روعها وجبله صامت ينظر اليها وقلبه يكاد
يتقطع وقد هان عليه كل صعب فقال لها قد فهمت يا هند انك لا تحبين ثعلبة فهل
تحبين والدك وعشيرتك

قالت وهي تشرق بدموعها نعم احبك واحبها وان كنت ترى في تسليمي لذلك

المخائن راحة لك ولعشيرتك فاني راضية بالموت فداءً عنك وعنهما وهنّ روعي بين
يديك فافعل بي ما تشاء

قالت ذلك وترامت على والدها فضمها الى صدره والدموع تتساقط من عينيها
رغمًا عنه وجعل يقبلها ويحنف عنها وهو يقول لا تجزي يا هنداني على ما تريد بين
فهوئي عليك واستجعي حواسك . قال ذلك واجلسها الى جانبه فجلست وهي تجمع
شعرها وترسله الى ظهرها وكان قد مال الى الامام عند استلقائها على والدها ولما رأت
في والدها هذا الانعطاف تذكرت ما لا يزال في طريقها من العقبات بشأن حماد
لعلها ان والدها سيعظم امر حماد اكثر ما أعظم امر ثعلبة فعولت على اغتنام تلك
الفرصة وهو في حال الانعطاف لئيل رضاه عنها فعادت الى البكاء

فحسب لبكائها بعد مجاراته لها في العدول عن ثعلبة وكان بطن ذلك كافياً
لزلزال كل احزانها فلما رآها تكي ظنّها لم تفهم مراده فقال كفي البكاء فقد اغفلنا
ثعلبة وطلبة فهدئي روعك . فلم تردد الا بكاء فادركت والدتها ما في نفسها فأومأت
الى والدها ان يكف عن السؤال هنيهة ودنت من هند وجعلت تمسح دموعها ببديها
وتقبلها ثم امسكتها بيدها وخرجت بها الى غرفتها فلما خلت بها سألتها عن مرادها
بذلك فقالت دعيني يا اماء دعيني ابكي على صباهي فقد ادركت ما جررته على نفسي
من البلاء

فعلت انها تشير الى امر حماد وما تخافه من غضب والدها اذا علم بمجيئها
فقالت اشكري الله يا هند اننا قطعنا نصف الطريق بامان والله يساعدنا على الباقي
فقالت هند لم تقطع الا السهل منها وقد بقي الوعر يا اماء

قالت ان الذي نجاما من ثعلبة لا يخجل علينا بمحامد طبيي نفساً وقرّي عيناً
قالت لا بطيب لي عيش فقد زهقت روعي قبل ان اقطع السهل الهين وكيف
وقد وصلنا الى العقبة التي لا ارجو اجنيابها فقد رأيت ما اعظمه والذي من امر
ثعلبة وهو يعلم خساسته ويعنفد بانّه ليس اهلاً لي فمن يجرأ على ذكر حماد امامه وهو
رجل غريب يقول انه لا يعرف اصله ولا فصله آه يا لتعاستي وسوء حظي
وكانت سعدى تعنفد مثل اعتقادها وربما خافت اكثر من خوفها ولكنها لما
رأت حال ابنتها هان عليها ركوب ذلك المركب الخشن فجعلت تخفف عنها وتنشط

آمالها وهند نبالغ في اظهار بأسها
 فقالت سعدى خفني عنك ولمضي الى فراشك وعليّ تدبير ما تريدني ولك
 عليّ ان لا يصبح الصباح الا وقد رضي والدك بكل ما تريدني
 فلما سمعت هند ذلك شعرت بانتعاش واحست كأن قلبها انفتح وقد انفرجت
 الازمة ولكنها استبعدت ذلك كثيراً فالتفتت الى والدتها شذراً ونبتت نسيماً طفل
 نال امراً كان يتطلبه باكيّاً فقبض عليه وهو لا يصدق انه ناله فلما رآها سعدى في
 تلك الحال زادت انعطافاً اليها ونبتت لها والدموع ملء عينها وقالت هوّني عليك
 فقد قلت لك اني ضامنة لك ما تريدني ألا يكفيك ذلك
 قالت يكفيني يا اماء ولكنني ارى والدي صعب المراس فلا اظنه يشفق على قلبي
 قالت لا نستعظي امراً تريدني والله قادر على كل شيء فاذهي الى فراشك وها
 اني ذاهبة الى السعي في مراحمك والله يفعل ما يشاء

الفصل التاسع والعشرون

* الاستغراب *

فسكن روعياً وعادت اليها آمالها والفث حملها على والدتها وسكنت ثم نمت
 ومشيت الى الفراش وقد انهمكتها التعب وخارت قواها من هول ما فاسته تلك الليلة
 ولما رأت والدتها بهم بالخروج استخلفتها ان تبذل جهدها في اقناع والدها فاكدت لها
 الوعد وخرجت حتى انت غرة زوجها فاذا هو في انتظارها ليسنطلعها سبب ما شاهده
 من هند فلما دخلت ابتدرها بالسؤال قائلاً

انظنين هنداً تنفي على عزمها من رفض ثعلبة فقد رأيت اني جاريتها في امر
 ربما آكل الى حرب دموية بيني وبين الحارث ولكنني فعلت ذلك مدفوعاً بشفتي
 على الفتاة وانا ارجوان اعود الى اقماعها في فرصة اخرى لا تساعدني على ذلك
 فانبتت واظبرت الاستغراب قائلة انظنين جاريت هنداً في عملها هذا عبثاً الم
 أقل لك اني انما فعلت ذلك رغماً عني وقد خفت على حياة ابنتنا ولو علمت ان

الاصرار ينفعنا شيئاً ولو بعد حين ما سمعت منها قولاً ولكنني رأيت ذلك لا يجدينا
غير خسارة لا نعوض . أليست هند ثمة حياتنا ومرجع آمالنا وزهرة عمرنا اليست
نعزيتنا في شيخوختنا لم نقاخر بها ملوك العرب ونفضلها على خيرة البنين اليست هي فتاة
غسان ومضرب امثالهم اليست هي افرس فرسانهم ولا كرم كرامهم انسيبت وقد رأيتها
تبكي كالطفل انها تجاري فرسان غسان في حومة الميدان واذا ركبت جوادها نطاولت
اليها الاعناق وحامت حولها القلوب ألم تكن هند اذا وفقت في حومة الوغى واستنحت
الرجال على دفاع الاعداء انهضت همهم واثارت حميتهم اغرك منها ذلها وانكسارها
الليلة فنسيبت هنداً وما هي امثل هذه الفتاة يسهل التسليم بها لرجل لا يساوي قدة من
نعلمها . ثعلبة وما ثعلبة اليس هو ذلك الجبان الغر الذي رأيناها بمجد كالنيل وبجئال
كالثعلب وبغدر كالعقرب انسيبت يوم السباق وما كان شأنه مع ذلك الشاب
الغريب يوم سيفة مرتين حتى اذا سافقة ثالثة عاد من حلبة السباق وفي يد قصبة السبق
مبرية بري الفلم الا تذكر انك رأيت القصبة مبرية

وكان جبلة في اثناء ذلك صامتاً وقد اعجب بفصاحة سعدى وانسجام حديثها فلما
ذكرت القصبة تذكر انه رآها مبرية فقال نعم اذكر ذلك

قالت اندري سبب برىها فولله وشرف بني غسان لو اطلعنك على سر الامر
للعنت الساعة التي ولد فيها ثعلبة بسي غسان ولوددت لو ان حماداً مكانه لانه اشبه
بشهامتهم وكرم اخلاقهم

فال جبلة الى استطلاع السبب فقال وما سبب برىها فسرت سعدى لاصفاء
زوجها الى حديثها فقصت له حكاية القصبة وبانغت بما اظهر حماد من الشهامه وكرم
الاخلاق وما كان من دناءة ثعلبة وخساسته فلم تكد تفرغ من حديثها حتي انقبض
وجه جبلة لما جرّه ثعلبة من العار على الغسانيين واحسن بارتياح الى حماد فقال نبأ
لثعلبة ورعيّاً لذلك الشاب فيا ليتة قتله ولم يسمعا هذا الحديث عنه

فتمست سعدى من جبلة اصفاء لحديثها فقالت اما وقد فسخ الحديث وجرتنا
الكلام الى هذا الحد فاسألك مسأله ستكون جواباً لسؤال سألتنيهِ الليلة

فقال وما ذلك

قالت أندري ما الذي حمل ثعلبة على خطبة هند بعد ما علمته من تباعد عنها
قال وما نعين بتباعد

قالت ألم تكن هند ابنة عمو منذ ولدت

قال بلى

قالت ألم يكن يجدر به ان يخاطبها لنفسه منذ اعوام وقد يخاطب ابناء الم اطفالاً
قال بلى

قالت اندري ما الذي امسكه عن خطبتها حتي الآن

قال وقد بهر قولها ونطاول بعنفو لاستكمال حديثها لا ادري وما ظنك بذلك

قالت لأنه بحسب نفسه ارفع منها مقاماً او لعله كان يتوقع ان تعرضها عليه فاذا
قبلها اذ ذاك انما يقبلها كرمًا ومنه

قال جبلة وقد اقطب وجهه وتعاضم غضبه خسىء النذل وخسىء أبوه قبله
قالت بل خسىء كل من يقول قوله فقد علمت ان ثعلبة لم يكن عازماً على خطبة
هند لو لم يحدث ما حرك غيبرته وهاجه على الانتقام واذا اذنت ان اكشف لك
الغطاء فعلت

قال وقد مال بكليتي الى استطلاع السر نعم اني شديد الميل الى معرفة ذلك قولي
قالت ولكنني استخلفك بحبك هندياً ان تبقي على حبها ونشفي على صباها ونعذرهما
في ما رأيت أو تراه من حالها

قال لقد عذرتناها من قبل فلا حاجة الى الاستخلاف

قالت انما استخلفك على امر لم تعلمه بعد

فازداد شوقاً وقال قولي لقد نفذ صبري

قالت قد علمت حسد ثعلبة حماداً على أثر ما ناله من قصب السبق عليه وقد
تعاضم حسد لما رأى هندياً تلبسه تلك الدرع وهي انما فعلت ذلك بأمرك

قال نعم

قالت وقد رأيتك وانت رجل معجباً بشهامة ذلك الشاب ولا يخفى عليك
ان النساء اكثر اعجاباً بشهامة الرجال وخصوصاً من كانت مثل هند في مقتبل العمر

وربعان الشباب . قالت ذلك وهي تراعي ما يبدو من جيلة ولم تكن تتوقع إلا استغرابه فحملني جيلة ونظر اليها والشرر يكاد يتطاير من عيني وقال وماذا تعنين
قالت وهي تتردد بين ان تصرح له او تبقى على الكتمان « اعني انه لما رأى هنداً
معبجة بحماد ثارت في قلبه نيران العيرة والحسد والاشفاق و »

فقطع عليها الكلام قائلاً اظنك تعنين اكثر من ذلك
فراأت سعدى ان تصرح بالحقيقة لترى ما يكون فقالت ربما اعني انه ظنها تحب
حماداً فاراد خطبتها ليحرما منه فينتقم منها جميعاً
فبهت جيلة وقد ارتاب من كلام سعدى بعد ما آتس من تردها ولكنه استزادها
ابضاحاً فقال هل كان ذلك منه على سبيل الظن فقط
قالت لا ادري اذا كان يتجاوز الظن

فقال اراك تدافعينني وتكتمين شيئاً آخر فاصحي عما في ضميرك
فسكنت وقد خافت التصريح

فالح عليها وهو في ريب من امرها وقال افصحي
فقالت وهب اني اكتم شيئاً آخر فما النائدة من الافصاح
فادرك ان في ضميرها سرّاً تخاف افشاءه فراراً من غضبه فقال وقد اشند قلته
وحى غضبه قولي افصحي فهل علمت شيئاً ان هنداً تحب ذلك الشاب
فاطرفت ولم تحب ولكنهما أشارت بكنهها وحاجبها انهما لا تعلم
فقال بالك لا نجيبين ألعها تحبة

فنظرت اليه وقد عولت على التصريح فلما رأته تطب حاجبوه وحلقة عيني
خافت اشتداد غضبه فنهضت ونظارت بتأجيل الحديث الى وقت آخر وقالت وهي
مهممة بالخروج « لا اعلم وسأبحث عن ذلك واخبرك »

فامسكها بيدها واقعدتها وقال لما بكفي مدافعة فانك تعلمين فقولي ولا حاجة الى
التسويق بعد ان فهمت ما فهمته من خلال حديثك
فقالت فاذا كنت قد فهمت فلماذا تستعبدني ما قلته

قال اذن هي تحبة وتريد الاقتران به
قالت ربما كان ذلك . واعرضت عن جيلة متشاعلة باصلاح فراشها واظهرت

عدم الاكتراث

فحمي غضبه وامسكها بيدها وجذبها اليه بعنف وقال ما بالك تستخفين بقضي
كأنك لا ترين في الامر ما يستحق الاهتمام الا بهمك ان تقترن ابنتك برجل غريب
لا نعرف أصله ولا فصله وقد يكون من السوقه

فنظرت اليه عاتبة لما اظهر من العنف وقالت بصوت منخفض وهذا الذي حملني
على الكتمان لعلني انك ستلتقي المحر بما اعلمه من تعاطفك بشرف الغسانين
وانكارهم مثل ذلك على بنات ملوكهم على ان حماداً ليس من السوقه بل هو من امراء
العراق بني لحم

فحجل لما كان من خشونته في خطابها والغضب يمنعه من الاعتذار ولكنه
امسكها بلطف وقال لها ألا تنكرين انت ذلك ايضاً . وهي انه امير فيينا
وبين العراقيين عداوة لا تؤذن بالمصاهرة

قالت لا اخني عليك اني استعظمت الامر عند سماعه لاوّل وهلة ولكنني تلتفتيه
بالحكمة والصبر لارى حيلة في تديبه ولو علمت انت حال هند كما علمنا انا لفعلت
مثل فعلي ولكن ما الفائدة من الكلام وقد نسيت حنوك وشفتك فافعل ما نشاء
واذا ماتت هند فاللوم لاحق بك . قالت ذلك وهي تنظر اليه والدموع ملء عينيها
فلما شاهد ذلك منها سكن غضبه وصبر نفسه ونظر اليها بطرف يكاد يدمع وقال
وما الحيلة التي تربتها والحال كما قالت

قالت اذا اذنت ان ننظر في الامر بعين الحكمة دبرت لك حيلة يتصرف بها هذا
المشكل على اهون سبيل والاّ فالامر لك
فبهت وقال ما الرأي قولي

فجلست الى جانبه وخاطبته باهتمام قائلة أما الرأي فهو ان نظاهر بالرضاء عما
ارادته هند ثم ندير حيلة نتخلص بها من حماد لا يكون فيها ضغط على عواطفها .
فقال وكيف ذلك

قالت سأخبرها غداً ان حماداً اذا طلبها منك لا تمنعه منها ثم ابين لها ترفع مثلها
عن الاقتران برجل غريب لم يثبت لنا نسبة وهي لا تنكر ذلك ثم احبب اليها ان
يعمل عملاً تقترحه عليه يكون له بؤخر يغنيو عن النسب فاذا قبلت ولا اظنها

الآ قابلة لعلني بعزق ندها اقترحنا على حماد امرأ يقرب من المستحيل فاذا استطاعه
كان اقترانه بهند امرأ مقضياً من الله سبحانه وتعالى فلا مندوحة لنا عن القبول به
فارتاح جبلة الى هذا الرأي وسأها عما تنوي اقتراحه فقالت سنتظر فيه ونقر
عليه ريثما يبين الوقت

فصرّ لتعقلها وإثني على ما أظهرته من الروية والحكمة فقالت له عند ذلك دعني
اذهب الى هند وإطننها قليلاً لنفسي الليلة ساهن فتمود الى الضعف قالت ذلك وخرجت
فراّت هنداً في انتظارها على مثل الجهر

اما هند فلما رأت والدتها قادمة بهضت للملاقاتها وهي تنظر الى وجهها تنبأ
بما تقرأه عليه من آيات البشر فراّت أنها تنبسم فسكن بلباها فاستطلعتها الخبر فطمأنها
واكدت لها ان والدها لا يمانعها في ما تريد فلم تصدقها حتى اقسمت بحبها لها فانبط
وجهها ولم تتالك عن الابتسام وكان سرور والدتها اكثر من سرورها ولكنها ما
زالمت تفكر في الحيلة ثم ودعت ابنتها وخرجت ولم تنم هند تلك الليلة من شدة الفرح

الفصل الثلاثون

﴿ اليأس من وجود عبد الله ﴾

تركنا حماداً في انتظار خبر والد سلمان بتردد الى بصرى وضواحيها يسأل عنه
حتى يثسا من العثور عليه هناك ففلق حماد لذلك كثيراً وخاف من سوء بصيبه
وكان سلمان في مثل قلقه فعاد ذات يوم من بصرى وكان قد ذهب اليها للبحث عن
سيده ولم يقف له على خبر فوصل خيمة حماد فراه غارقاً في بحار المواجهس فلما دخل
ناداه حماد ما وراءك يا سلمان

قال ما زلت على ما فارقتني ولا اراني قادراً على الصبر بعد هذا الانتظار فأذن
لي بالمسير الى بيت المقدس او عمان للفتيش عن سيدي فقد مللت الانتظار

فقال حماد ألا ترى ان أسيرانا معك

قال لا حاجة الى ذهابك فامكك هنا ريثما اعود

فقال هل تسير الى بيت المقدس ام الى عمان
قال أرى ان أسير الى بيت المقدس أنتبع خطوات سيدي منها حتى أقف على
خبره فضلاً عما في الطريق من هنا الى عمان من الاخطار التي لم ننسها بعد
قال سر بجراحة الله ولا تطل الغياب فاني في انتظارك وانت تعلم حالي من القلق
فودعه وخرج على جواده وقد لبس ثياب السفر وسار قاصداً بيت المقدس
فوصلها بعد ايام فجال في شوارعها حتى انتهى الى خان علم من قيافة صاحبه انه
عربي فدخل والنس مبيتاً عنده فأعد له غرفة نزل فيها وارسل جواده الى الاسطبل
ثم بدل ثيابه وجاء الى صاحب الخان فجلس اليه وجعل يحادثه في مواضع مختلفة حتى
نطرق الى حكاية هرقل وما كان من مجيئه الى هناك فأخس في الرجل علماً ببعض
الحكاية فقال له وهل رأيت القيصر يوم مجيئه

قال رأيتُهُ ماراً بموكب يوم وصوله ثم تراكمت علينا الاشغال لنقاطر اهل القرى
والبلاد الى بيت المقدس لمشاهدته
فقال وهل يرد عليكم كثير من العرب ام كل زائريك من الروم والسريان
واليهود من اهل هذه البلاد

قال فلما يرد علينا قوافل من العرب اما في هذا العام فقد جاءنا كثير منهم
فقال وما سبب ذلك

قال لان القيصر بعث الى امير من امراء الحجاز يقال له أبو سفيان فحاجه برجاله
وحاشيته وقافلته فنزلوا جميعاً في هذا الخان ومكثوا مدة بيننا فانفتحت المدينة بقدمهم
لما يتناغون من الطعام لهم والعلف لحبولهم ويظهر انهم من اهل الرخاء خلافاً لما
نعودناه من فقر اهل الحجاز وقلة اموالهم كما هو مشهور من جذب ارضهم

فقال سلمان كثيراً ما سمعت بابي سفيان هذا وعهدي به من اعظم امراء
مكة وانه كثيراً ما يقدم برجاله الى الشام وضواحيها للانحجار
فقال ولكنه فلما يأتي بيت المقدس اما في هذا العام فقد جاء بأمر من
الامبراطور

قال وما الذي دعا الامبراطور الى استفداه ومن يكون ابو سفيان حتى يهتم
امبراطور الروم باستدعائه

فأحكى له حكاية الكتاب الذي ورد على هرقل وما كان من امره حتى انتهى الى سفره من بيت المقدس

فأراد سلمان ان يستطلع خبر سيده فقال اظن العرب الذين يأتونكم كلهم اى اكثرهم من الحجاز ويندران يأتىكم احد من اهل العراق

وكان الخاناني قد علم من لهجة سلمان انه عراقي فقال كثيراً ما يأتينا فجار من العراق ايضاً ولكن قدومهم يكون غالباً في أزمته المواسم والاعياد عند ما يكثر الواردون الى القبر المقدس لان الناس يحجون الى اورشليم من جميع اقطار العالم فيأتي الباعة والتجار من سائر البلدان ايضاً لعرض سلعهم وبضائعهم واهل العراق يحملون اليها مصنوعات الفرس كالسجاد ونحوه شيئاً من محصولات العراق كالتمر وغيره فقال هل جاءكم احد منهم في هذه الاثناء

قال رأيت كثيرين ولكن لم ينزل منهم احد عدي الا اميراً جاءنا يوم سفر ابي سفيان وسار معه

فتوسم سلمان من ذلك خيراً فقال وهل عرفت اسم ذلك الامير قال أظني سمعتم بنادونه عبدالله

فتحقق سلمان انه سيده بعينه فقال هل تعرف شيئاً عن هذا الامير بعد سفره فأطرق الخاناني هنيهة ثم قال لقد أذكرتني من شأن هذا الامير ما يتفطر له القلب

فأقشعر بدن سلمان عند سماعه ذلك حتى ظهر الارتباك على وجهه ونطاول بعنفه نحو الخاناني وقال لقد شغلت بالي يا اخا العرب بما أشرت اليه فهل اصيب الامير عبد الله بسوء

قال كلاً لم اسمع عنه شيئاً من هذا القبيل ولكني علمت انه اصيب بفقد ولد له أكلته السباع في مسبعة الزرقاء

فحجب سلمان والتفت الى الخاناني باهتمام وقال اعترف لك يا سيدي ان امر هذا الامير بهمني كثيراً لانه سيدي وانا انما جئت للتفتيش عنه فهل تفضل بتفصيل حكايته وما تم له ومن انبأه بمقتل ابنه

قال لا أخفي عليك شيئاً اعرفه من هذا القبيل فقد جاءنا هذا الامير يوم سفر

أي سفيان ولحظت انه سار في ضيافته فلما خرجت القافلة ارسلت معها بعض خدمة الخان ليشيعوها لعلها تحتاج الى ارشاد في اختيار بعض الطرق دون غيرها وكان مع القافلة جواد عثروا عليه شاردًا في بعض السهول أثناء مجيئهم الى الشام فلما همت القافلة بالمسير قدم ابو سفيان ذلك الجواد للأمير عبد الله ليركبه فلما رآه هذا عرفه انه جواد ولد له كان قد فارقته في بعض جهات الزرقاء فالتبس عليه أمر الجواد وفراره وأحكى حكايته هذه لابي سفيان فرافقه هذا مع بعض رجاله الى المكان الذي رآوا الفرس فيووا بلغني انهم عثروا على بقايا فرس آخر تحت شجرة واشياء اخرى استدلو منها على ذهاب الغلام فريسة السباع فبكى ذلك المسكين بكاءً مرًا وندب ابنة وبالغ ابو سفيان بتعزيته فلم يتعزَّ

وكان سلمان أثناء هذه الحكاية مصغيًا وقلبه يخفق فلما وصل الخاناني الى هذا الحد أحس سلمان بشعر يرق وقف لها شعره وقال للرجل وماذا تم لك بعد ذلك قال سمعت انه لما تحقق موت ابنه لم بعد بحلولة الذهاب الى منزله في بصري فسار مع القافلة الى الحجاز

فقال سلمان وهل تحققت انه سار الى الحجاز

قال هذا ما سمعته ولا أدري اذا كان قد عدل عنها بعد ذلك

فقال سلمان وقد ظهرت البغنة على وجهه اني اعترفت لك باهية هذه الحكاية عندي واشكر الله لنزولي عليك حتي سمعت هذا الحديث منك ولكنني أرجوان بزيدي ايضا ما استطعت

فقال الخاناني لقد رأيت من اهتمامك وظهور البغنة على وجهك ما حرك في الاهتمام لمعرفة مصير هذا الامير فلندع المكارى الذى قص الخبر على بعد عودته لعله يزيدنا ايضا قال ذلك ونادى المكارى وكان مشتغلاً ببعض شئون الخان فجاء فسأله عما يعلمه من تفاصيل حكاية عبد الله

فأحكى القصة كما قالها الخاناني مع بعض التفصيل حتى انتهى الى مسير القافلة بعد الرجوع من مسبعة الزرقاء فقال رأيت ذلك الامير عائداً على قدميه يحمل سيف ابنه وعباة وكان قد عثر عليها عد ضفة غدير هناك فاستأنس بهما واشتم رائحة ابنه منها ولما الجواد فكان مسوقاً وراءه كثيراً كأنه عام بمصير صاحبه فلما

وصلوا الى الطريق دعاه أبو سفيان للمسير معه الى الحجاز او ان يوصله الى منزله في بصرى فقال انه لا يريد العود الى بصرى ثم تردد في الذهاب الى الحجاز ولكنه رافقه وساروا جميعاً وعدنا نحن ولا نعلم ما تم له بعد ذلك فقال سلمان ألم نسمعه يذكر عمان وعزمه المسير اليها قال لا أذكر اني سمعته يقول شيئاً من هذا القيل

فبهت سلمان برهة يفكر في ما سمعه وقد علم ان سيد لا يصبر على ما ظنه من ذهاب حماد فربسته للسباع وخاف ان يكون قد حملته ذلك على مهاجرة الشام والمسير الى الحجاز مع أبي سفيان ولكنه رأى ذلك اذا فعله سيد لا يخلو من المسارعة وهو يعلم ان عبد الله عاقل لا يأخذ الامور بمظاهرها فلبث برهة يفكر ثم استأذن الخاناني في الذهاب الى غرفته ليتبصر في الامر بعد ان شكك لما فصة عليه

فلما خلا في غرفته اخذت تتقاذفه الهواجس وهو يفكر في الامر وقد انقضت نفسه خوفاً ما قد يصيب سيد من عواقب اليأس وعظم عليه الرجوع الى حماد بهذا الخبر المشوم فضلاً عن انه لا يفكر شيئاً ففقد بقاء ذلك النهار وطول الليل في مثل هذه الهواجس فلاج له بعد اعمال الفكرة ان يتبع خطوات سيد بنفسه فيسير الى عمان لعله يقف على ما يحلوه الحقيقة

فلما اصبح سار الى الخاناني واطلعه على عزمه واستأذنه في مسير ذلك المكاري معه فاطاعه فركب سلمان والمكاري في ركابه وكلما مرّا بمكان احكى له المكاري واقعة حاله حتى تجاوزا طريق المسبعة ووصلا الى النقطة التي عاد المكاري منها فقال سلمان الا نسير معي الى عمان لعلنا نسمع هناك خبراً جديداً

قال اني في ركابك الى حيثما تريد ولكنني سمعت منذ ايام ان بالقرب من عمان جماعة من قريش جاؤوا لمحاربتنا فلاناً اذا رأونا ان نفع في ايديهم غنمة باردة فنذكر سلمان انه سمع مثل ذلك قبل خروجه من بصرى ايضاً فتردد في الامر ولكن نفسه لم تطاوعه على الرجوع قبل الوصول الى عمان فقرر رأيه على الذهاب اليها من طرق مجهولة لا بطرقها الا القليل من الناس والمكاري يعرفها فساروا حتى انتهيا الى عمان فلم يجدوا فيها اثرًا ولا خبرًا

فعاد سلمان يتسأ حزينا لا يدري كيف يقابل حماداً بهذا الخبر لا يتبر على انه كان
يتوهم ان سيدك ولو اطاع عواطفه في حال تأثرها وسار الى المحجاز لا يلبث ان يهدأ
روعة ويعود الى البلقاء للبحث عن ابنته ولا اقل من يرجع الى بصرى بعد ان غني عنه
فينتقد ما اذخروه من المال والمثمنات في منزلهم بغسام

ففضى سلمان طول الطريق في عودته وهو يفكر في ذلك وكثيراً ما حدثته نفسه
ان يتأثر سيدك الى المحجاز لولم يعترضه الشك في مسيئه اليها وعول اخيراً على الرجوع
الى حماد والمداولة معه في هذه الشؤون فاذا تحقق ذهابه الى المحجاز سار للتفتيش عندها
فلما وصلا الى منعطف من الطرق يؤدي الى البلقاء رأساً اثني على المكاري
واكرمه وودعه وسار قاصداً حماداً

الفصل الحادي والثلاثون

* حماد في خيمته *

لم يكد يتوارى سلمان عن حماد يوم خروجه الى بيت المقدس حتى أحسن حماد
بالوحشة لانفراده في تلك الخيمة بعيداً عن حبيبتو فلما على والدك فجلس يفكر في ما مرّ
به ذلك العام من الاهیال وما رآه من حوادث الايام وتذكر حاله قبل قدومه البلقاء
يوم كان خلي البال لا يعرف الهواجس فعلم ان السبب في ذلك كلو الحب فتذكر
هنذا وما ناله من رضاء والدتها فرقص قلبه طرباً ونسي ما ينتابه من الشواغل والحب
مع ما وصفه به امام العاشقين بقوله

فمش خالياً فالحب راحته عني * فأوله سقم وأخره قتل

فهو اذا رضي الحبيب تعزية للحمين ينسبهم المهوم ويخفف عنهم الاحزان
فلم يكن لحماد تعزية في غربته وهواجس الرضاء حبيبتو فاذا تراكت عليه
الاحزان تذكرها ونصوّر قربها فتنتعش جوارحه وتثوب اليه آماله فينجي صدره
وتبسّط نفسه

فلبت في خيمته برهة يتردد بين اليأس والرجاء بنفص تارة وينسبط أخرى حتى كان المساء فسمع خوار ثور بين الخيام فعلم ان مضيفة عائد من مرعاه فحسده لسذاجته وقلة شواغله ولبث يفكر في أمره وود لو انه في مثل حاله خلي البال قليل الليلال لا يهمة من دنياه الا ما يرجوه من غلة ارضه او نتاج ماشيته ولكنه تذكر ان ذلك الشيخ لا يعرف الحب ولا شعر بلذته فخيّل له انه اشبه بالحيوان الاعجم منه بالانسان

وفيما هو يتأمل سمع وقع خطوات بالقرب من الخيمة علم من خفتها انها خطوات الشيخ لأنه كان لا يمشي الا حافياً فاحترق لاستقباله فاذا به قد دخل الخيمة والنخل لا يزال في يده وقد كسا لحينه وعمامة الغبار وانفخ قميصه عن صدره فبان الشعر منجعداً كأنه نبت الربيع بعاقى بعضه بعضاً فلما رآه حماد وقف له وحياء اكراماً للشيخوخة فالتقى الشيخ النخل عند باب الخيمة ودخل وعلى وجهه ملاحح البشر حتى كاد ينسم وكان قد عاشق اياماً لم يرتفع باسماء قط على انه فلما رآه منقبضاً او مهتماً فلما رآه ينسم احس بارتياح وسرور ودعاه الى جانبه واخلى له مجلساً على البساط فاني المجلوس الا على الارض فجلس وهو يحك احدى كفيه بالآخرى ليتزع ما لصق بها من التراب فلما تفتت التراب عنها جعل ينفض لحينه البيضاء ليتزع عنها ما علق بها من الاتربة

فبدأ حماد بخطابه قائلاً كيف انت اليوم ايها الشيخ ارجوان تكون في خير وعافية فتزع الشيخ عمامته وتشاغل بنقرها لينفض غبارها وقال نحمد الله على خيراته فقد سرفني اليوم ان بقرتي ولدت عجلاً ابلى ولا يمضي عليه العام او العامان حتى استقدمه في الحراثة فيغنيني عن تربية البنين وهوومهم

فحجب حماد لسذاجة البداوة وقلة هوم اهلها فاراد مداعبته فقال له ايكفيك من دنياك رعاية الماشية وتربية العجول والغسانيون ممتعون بالسلطة والسيادة وكان حماد عاباً بما يتقوله الانباط على الغسانيين كما تقدم

فضحك الشيخ مستهزئاً وقال لا يغرنك من دنياك يوم نعيم فانها لا تحسن يوماً حتى نسي اياماً فلا تنرح للهارث الغساني من اجل يوم استبدّ فيه فقد جاءه من ينزع عنه السيادة ويلحقه باجداده اصحاب سبل العرم الذين انما جاؤوا فراراً من الفقر بعد ان كانوا يقيمون في ارض تستفي من مستنقعات يجمعونها من مياه الامطار وراء

سد من حجر فلما انهدم السد سال الماء فاغرق السهول ولم يعودوا يستطيعون بناء السد لضعفهم وقلة تديرهم فاجديت ارضهم ففروا في جملة من فر منها الى هذه البلاد منذ قرون متطاولة وقد تهرم الملك عن غير استحقاق فجاءهم الآن من يتزع الملك منهم ويكسر شوكتهم ويعلمهم ما لم وما عليهم

فعلم حماد ان الشيخ يشير الى حكاية سيل العرم في جهات اليمن وما كان من تفرق بني قحطان بعد الغسانيون في جملتهم ولكنه لم ينفه ما اراده من قولوه بقرب زوال ملكهم فقال له وما تعني بزوال ملكهم ونحن لا نراهم يزدادون القوة ومنعة قال ألم نسمع بالعدنانيين الذين قدموا من الحجاز في هذه الاثناء فقد جاؤوا جماعة كبيرة ليقتصلوا من الغسانيين ويبيدوهم عن آخرهم

فقال وما اوجب الاقتصاص واي علاقة بينهما والحجاز على مسافة ايام من الشام والناس هناك في شغل باصلاح دينهم فقد ظهر فيهم من يدعوهم الى دين الله وقد سمعت بانه انشأ فيهم دولة جديدة دانت لها كل بلاد العرب فاهل الحجاز في شغل عن هذه البلاد

فضحك الشيخ وقال كل ذلك من تدير الله . واما ما اوجب مجيء العدنانيين فهو وقاحة الحارث الغساني وكبرياؤه فقد انبأ في بعض المارين من هنا ان نبي قریش الذي ذكرته كتب الى الحارث كتاباً يدعو فيه الى دينه فبدلاً من ان يقرأه ويتأمله ويرد الرسول ردّاً جميلاً مزق الكتاب واهان الرسول فشق ذلك على صاحب الرسالة فانفذ جنداً لحرب الحارث وفتح بلاده

فاهتم حماد بذلك الخبر كثيراً لعلو ان الحرب اذا قامت عرقلت مساعيهم وحالت بينه وبين ما يريد فضلاً عما يخافه على هند من الخطر لان جبلة لا بد له من نصرة ابن عمه الحارث على انه لم يكن يخاف انهزامهم او خذلانهم لما كان يتوهمه من ضعف اهل الحجاز وقلة خبراتهم كما هو مشهور عن تلك البلاد منذ القدم ولكن خوفاً على هند من عواقب الحرب همه كثيراً فلبث برهة يفكر في امر ثم قال للشيخ وهل انت واثق بمجيء هؤلاء الحجازيين

قال لا ريب عندي من ذلك

قال العلك سمعت الخبر عن ثقة

قال سمعته من خير وهمي أمن كثيراً حتى تحفته اذ بسرني خذلان الغساسنة فقد
قلبت لك انهم اعداؤنا . وكان ذلك الشيخ البطي يظن حماداً يفرح بسقوط دولة بني
غسان لانه من الحن ولم يدر من له في صرح الغدير

فليت حماد صامتاً لا يدري ماذا يعمل وتذكر سلمان واليك فتراكت همومك فالتفت
الى الشيخ فاذا هو قد ذبلت عيناه وغلب عليه النعاس شأن المشتغلين مثل شغلهم على
خلو باهم وخصوصاً من كان في مثل سنو فانك بينما انت مخاطبة في شأن لا تلبث ان
تراه ينام فتتركه حماد واشغل بهوا جسو

ثم افاق الشيخ مدعوراً لصوت ثيرانه وهم بالخروج من الخيمة وهو يقول لقد
تقاتل الثوران فخرج حماد في اثره وكان الليل قد سدل نقابة فسارا حتى دنوا من
مربط الثيران فاذا هي لا تقاتل ولكنهما شاهداً بينهما جملاً غريباً تقدم الشيخ اليهما مسكه
بعنفه وابعث عن ثيرانه حتى دنا به من نار موقد يستضاء بها وحماد براعيه بعينيه ولم
يكذ الشيخ بتأمل ذلك الجمل حتى ضحك وقال وهذه ناقة من نوق اهل المدينة قد
تخلعت عن جند انجاز الذي قلت لك لنهم جاؤوا لحرب الغسانيين

فقال حماد وما الذي ذلك على ذلك

قال دلني عليه شكل الرجل فانه خاص باهل المدينة وكثيراً ما رأينا من امثال
هذه النوق مارة بنا الى الشام وغيرها

فقال حماد بظهران هؤلاء العدنانيين قد اصبحوا على مقربة منا
فقال الشيخ لا اظنهم قريبين فقد يكون بيننا وبينهم مسافة ايام ولعل هذه الناقة
قد ناهت منذ بضعة ايام قال ذلك وهو يعقلها ويأتي لها بالعلف
فتركه حماد وعاد الى خيمته وقد تميل له الامر بجسامته فعظم عليه ان يذهب
أمله ادراج الرياح لاشتغال جملة بالحرب فشعر باحتياجه الى سلمان فصبر نفسه ريثما
يعود اليه بخبر واليك



الفصل الثاني والثلاثون

* سلمان وأخباره *

وبعد أيام عاد سلمان كاسف البال لحبيرة مسعاه في التفتيش عن سيدك وكان حماد قد ملّ الانتظار فاستطلعه كنه ما علمه فاحكى له ما سمعه ثم قال يلوح لي ان سيدي رافق أبا سفيان الى الحجاز اذ يظهر ما سمعته انه تحقّق هجر مقتلك فلم يبق له وطرف في الحياة ولعل ابا سفيان حبيب اليو السفر ورغبة في المسير الى الكعبة فجاراه فقال حماد لا أظنه يفعل ذلك قبل ان يأتي بصرى ويستخرج الحبة التي خبأناها في غسام

فقال وما أدراك ان لم يأت اليها بعد ان استخرجناها اولعله أرسل من يبحث عنها فلم يظهرها وعلى كل حال ان سيدي ليس في فلسطين ولا البلقاء ولا عثرت عليه في عمان ويؤخذ من مجمل ما سمعته انه سار الى الحجاز فلم تأذن لي في الذهاب الى مكة للتفتيش عنه

قال لو كنّا على يقين من ذهابه اليها لسرت انا بنفسي ولكننا انما نرجم بالغيب وزد على ذلك اننا في حال تدعو الى القلق من امر الحرب المنتظرة بين الحجازيين والفسانيين وقد سمعناك تشير اليها في أثناء حديثك وكنت في ريب من امرها مع اني سمعنا من شيخنا النبطي منذ ايام

فقال سلمان أما مجي هوؤلاء الرجال فلا شك فيو لاني شاهدت معسكرهم شهادة عين بجوار عمان واما سيدي فالارجح انه سار الى الحجاز اولعله أُصيب بما عاقه عن المجيء الى بصرى ولا يلبث ان يأتي اليها فاذا لم يبق بعد ايام علمنا انه سار مع أبي سفيان الى مكة

فلم ير حماد بدا من التربص لما سيظهر من هذا القليل ولكنه عاد الى امره مع هند وما عسى ان يكون من شأنها بعد طول الانقطاع وخاف ان يتغلب الفتور على قلبها فيذهب سعيه هدراً

فقال عليك يا سلمان ان تتردد الى بصرى لملك نسمع شيئاً عن والدي ولا

تسّر البحث عن هند ووالدها فقد علمت ما دام الغسانيين من امر الحرب على حين غفلة واخشي اذا حي وطيستها ان تذهب آمالنا كلها ادراج الرياح فقال سلمان والقلق ظاهر على وجهه وما ادراك انني غافل عن هذا الامر وهو شاغل فكري ليلاً ونهاراً وكنت عازماً على استئذائك في الذهاب الى بصرى في صباح الغد فقد سمعت الناس يتفولون اقوالاً لم اصدقها

فبغت حماد وقال وماذا عسى ان يكون نقولهم وعن يتفولون قل ما الذي سمعته قال لم أسمع شيئاً بوجب قلقاً لاني على يقين من حب هند وثباتها في حبك فازداد حماد اندهاشاً وقال هند؟ وما شأن هند وماذا يتفول الناس عنها قل يا سلمان

قال هدي روعك فاني لا اخفي عنك شيئاً وخصوصاً ان ما سمعته لا بوجب قلقاً ولا يجرّ الى خوف

فقال حماد وقد نفذ صبره قل ماذا يقولون قال سمعت الناس يتحدثون في بصرى وضواحيها ان ثعلبة طلب الاقتران بهند فلما سمع حماد اسم ثعلبة مفروناً باسم هند وقف شعره واقشعر بدنه وقال وكيف طلب ذلك ومتى

قال سمعت انه طلبها بواسطة والد الحارث وان والد خاطب جيلة فوعده فصاح حماد وبماذا وعده قال سلمان وهو ينسم ما لي اراك قليل الصبر خفف عنك واصغ الى ما اقول فقد عهدتك صبوراً حازماً

قال اني صبور على كل شيء الا على هند قل ما كان وعده قال وعده بخاطبة الفتاة او بالبحري بمشاورة والدتها اذ لا تجهل ان اقتران البات قلما يتوقف على ارادتهم فقال حماد وماذا كانت النتيجة

قال لم أتحقق الخبر بعد فقد قال بعضهم انه خاطبها ولم تقبل وقال آخرون انه لم يخاطبها بعد ولكن صديقاً لي من اهل بصرى صادفته على أثر هجوم ثعلبة على منزلنا يوم قبضوا على سيدي الامير واظنه أعلم الناس بحقيقة الواقعة انبأني امس وقد

لثينة في الطريق بجوار بصرى ان الحارث استبطاً جواب جبلة بشأن هند فسار اليو
ثانية يستجمل في الجواب على أمر قدوم هؤلاء المحارزين لانه يريد التجميل في
الافتران قبل انتشاب الحرب

فخفي قلب حماد كمن أخفى مسعاه ووقف وقد امتنع لونه وقال ما هن
الاحاديث يا سلمان فاني اراني في حلم انظن آمالنا ومساعدتنا قد ذهبت عبثاً وهل
ترضى هند باین عمها ثعلبة . قال ذلك والدمع يكاد يتناثر من عينيه

فانقدت الشهامة والغيرة في قلب سلمان وهم بمجاد فضمة الى صدره وقال له خسي
الذل ان هنداً أرفع من ان تدنس قلبها بمحبته وانت اعلم مني بانفتها وعرق نفسها
وكرها لثعلبة وياوح لي ان البطء في جوابها ناتج عن تمنعها

فانتعش حماد لذلك الكلام ولكنه ما زال خائفاً من ان تؤخذ الفتاة قسراً فقال
حاشا لقلب هند ان يحب ذلك الخائن ولكنني اخاف ان تحمل على التبول بمراعاة
لعلاقة أبويها لما بينهما من النسب وما يخشى من عواقب الرفض فقد بصعب على هند
ان ترفض ما يريد ابوها

فقال سلمان لا يصعب عليها ذلك والدتها نصيرة لها فقد آمنت من هذه المرأة
يوم قابلتها وانا في زي الراهب ما دلني على دهائها وقوة جنائنها فهي اذا ارادت
تحويل زوجها عن امر لا يصعب عليها

قال حماد ومن يبيننا ببقائنا على ذلك ونحن لم نرم من حديقها في ذلك اليوم ما
بدل على اخلاصها لنا وزد على ما نقدم ان مجارة جبلة في رفض ثعلبة لا يضمن لنا
رضاءه بسواه (يريد نفسه)

فادرك سلمان وغورة المسلك ولكنه أظهر الاستغفاف به وقال دع ذلك الي
فاني ذاهب في صباح الغد لاستطلاع الخبر وتدير الحيلة والله يفعل ما يشاء
فسكت حماد لا عن اقتناع ولكنه صبر نفسه ينتظر ما يأتي به النذر



الفصل الثالث والثلاثون

✽ وعند جهينة الخبر اليقين ✽

وبانتوا تلك الليلة وحمام لم يبق الا قليلاً لما تراكم عليه من الهواجس أما سلمان ففضى ليلته بفكر في سبيل بوصله الى المراد فنهض في الصباح التالي وفي نيتو الشخص الى صرح الغدير لا اعتقاده ان الخبر اليقين عند هند فليس ثياب الرهبان وركب جواده وسار حتى اذا أتى الصرح سأل عن بقيم فيه فقيل له ان جبلة برحه منذ ايام بعد ان جاءه لزيارة . فنقدم الى باب الحديقة فاستقبله بعض الخدم وسأله عن غرضه فقال انه جاء بهمة من رئيس دير بجبراء الى الاميرة سعدى وطلب مقابلتها فسألوها فاذنت بدخوله فلما خلت به عرفته فسأله عن حماد فأبأها بحالها وأنه جاء يستطلع ما تم من امره فاستدعت هنداً وكانت في غرفتها تفكر في حماد وهي لا تعلم من هو فلما سمعت بجيء سلمان خفي قلبها وأسرعت اليه وامارات البغنة تلوح على وجهها فلما رآها سلمان قام لها وسلم عليها وطأها عن حماد وسألها عن صحتها فطمأنته وكان سلمان في أثناء الحديث يراقب حركات سعدى لعله يلاحظ فيها ما كان يخافه من اخلافها فأانس منها ما حقق آماله برضاها ولكنه ما زال قلقاً لما عساه ان يكون من أمر تلبية وطلبه فجعلوا يتجادلون اطراف الحديث وكثر بين سلمان وسعدى فعلم سلمان ما كان من عدول جبلة عن تلبية ورضائه بحماد فسرّ سروراً لا يزيد عليه حتى رقص قلبه من المرح وود لو ان له أحجة ليطير بها الى حماد يبشر بذلك

ثم قال لسعدى وما هو موعدا من مخاطبة سيدي الملك بهذا الشأن

قالت نحن على موعد من مجيئنا اليها بعد ايام فاذا كان يوم مجيئنا يتقدم حماد في طلب هند فينال مبتغاه وكانت هند في أثناء ذلك مطرقة حياء لا تتكلم وقلبا يرفض طرباً . فقال سلمان ومن ينشأ بذلك اليوم ونحن بعيدون عن هذا القصر

قالت نبعث معك من يعرف قركم فاذا كان اليوم الميعود ارسلناه في طلبكم

قال حسناً وهم بالخروج فوقتنا له فودعها وخرج وهو لا يصدق انه سمع ما سمعه ولكنه لم يعلم بما سيؤول في سبيل سيده من العقبات ورافقه خادم اتدبوه له المهمة على ان يكتبها

ولا نسل عن فرح حماد بلفاء سلمان وما كان من سروره لما سمعه حتى تمثلت
له السعادة عبداً رقيقاً ونسي والده وضياءه لا عن عنوق ولكن الحب تغلب عليه فوجد
نفسه بالبحث عن والده بعد ان يصير صهراً لملك غسان فيكون اقدر على ذلك لما
يرجوه من مساعدة عمه .

فلتركه في فرجه وانرجع الى جيلة وما كان من امره بعد رجوعه الى صرح الغدير
فانه ما لبث ان توارى عن الصرح حتى انجلى له خطاه وما كان من تهوره في
مجاراة امرأته بشأن حماد ولم يعلم كيف يجيب الحارث عن طلبه وقد عظم عليه ان
يرده خائناً بعد ان وعد لما في ذلك من ضعف الرأي ففضى معظم الطريق في مثل
هذه المواقف فلاج له اخيراً ان يكتف حقيفة الامر ويجعل جوابه تأجيل الخطبة الى
ما بعد انقضاء الحرب على نية ان يبعث حماداً في مهمة لا يعود منها واذا عاد انما
يعود خائباً فلا يستطيع طلباً ولا بنال وطراً

الفصل الرابع والثلاثون

❖ ثعلبية ❖

أما ثعلبية فدير ما دس وهو على ثقة من رضا همد بو ولو قسراً ثم علم بضياح عبدالله
وترجح لدهو مقتل حماد ما نقله اليه جوابه الذي انقذه في اثر عبدالله عند خروجه
من بيت المقدس وذلك ما كان يتمناه فهدت غيرته على همد لانه انما طلب الافتران بها
ليمنعها من حماد فلما علم بمقتله ود الرجوع عن طلبه لتبقى منفصة العيش فتخسر الاثني
معاً فاخذ يترقب فرصة بوجل بها الافتران ثم بسى في سبيل يتقم بو من همد وكانت
تحدثه نفسه انها اذا قتلت هي « اجابها بالنأ حيل والوعود حتي تموت كمداً الا اذا علم
بعد ذلك ان حماداً لم يقل فعود الى طلبها

ولم يكر والده علم بحقيقته مراده فكرر يستعمل جيلة في أمر الافتران ظناً منه ان
ذلك بسرأبه ويحمل عيشه سعيداً فلما سمع بمجيء الحجازيين الى عمان سار بنحو

الى جبله والحق عليه بامر الافتران قبل انشاب الحرب كما تقدم ثم تواردت عليهم الاخبار بافلاخ اولئك العرب من عمان وشيوخهم الى النفا. وبلغ ذلك ثعلبة فجاء الى والده وتداولوا في اعداد المعدات وتوصين الحصون في حدود البلقاء فجزهم الحديث الى هند والافتران بها فاخبر والده انه استعجل جبله في استجواب هند بشأن الافتران وانه لا يشك بهولها واوعز اليه ان يستعد للافتران على ايسر الطرق بلا احتفال الى ما بعد انتصارهم فيكون الفرج مزدوجاً

فصمت ثعلبة رهة بمن يفكر في أمره ثم قال ان حالنا الحاضر يا أبتاه لا تؤذن لنا بالاحتفال كما قدمت فلا ارى ان نستعجل بالافتران ولا بأس من تأجيله حتى تنقضي الحرب . فحجب والدك لجوابه بعد ما آسسه من الحاحه قلاً ولكنه حمل ذلك منه على رغبته في الحرب فاستخسسه وقال له اراك تنضل الاشتغال بدفع الاعداء على نيل ما طالما كنت تنمناه وهي شهامة غسائية نذكرها لك

وكان الحارث يفضل التأجيل ايضاً ولكنه كان يلح على جله رغبة في إرضاء ابوه على انه خاف ان يكون في ذلك ما يسيء جله أو يكسر العلاقات بينها فقال وماذا نجيب عمك لو اجابنا بالقول

قال نجيبه انا في حال حرب لا تؤذن بالافتران

قال ولكننا كنا في مثل هذه الحال يوم جئته وانحمت عليه بطلب الفتاة وقد اعنذر التي بحال الحرب فاجبته انا سود المراع من الافتران قبل انشابها فكيف نعود اليه بهذا العذر الا تظن في ذلك ما يجعله على اساءة الظن

قال لا يهمننا ساءه هذا الامر اوسر فاننا نريد التأجيل

فحجب الحارث لطيش ابوه وتغافلوه عن حقيقة العلاقات بينه وبين عمه فقال له الا تعلم يا ولدي ان مثل هذه الظنون تسوق الى حرب بيننا وبينه فاذا كنت غافلاً بمن ذلك فما انا بغافل وعلى كل فان المسألة دقيقة نحتاج الى دقة نظر وحسن اسلوب

فلت ثعلبة رهة يفكر وقد اتبته لخرج المقام وكانت الغيرة والانتقام قد غشيا بهصر فقال لو والد ولكن حال اليوم غير ما كانت عليه يوم استعجلت جله في الافتران فقد كان الاعداء اذ ذاك في عمان وهم قد اقلعوا الآن من هناك ونحركل نحو البلقاء

فاجعل ذلك سبباً للتأجيل

فرأى الحارث في كلام ثعلبة بعض العذر فعول على الانجاء اليو في مخاطبة جبلة وفيما هما في ذلك جاءها رسول من جبلة يستقدم الحارث للمداولة بشأن الحرب فقال الحارث لها اني ذاهب الى اللقاء لنرى ما نتم من رأي جبلة بشأن الحرب واذا خاطني في أمر هند عمدنا الى التأجيل كما قدمنا فاشتغل انت بتدبير الجند واكتب الى الامراء ان يجمع كل منهم رجاله تحت رايتي وبنيها ولحرب عند الحاجة واذا رأيت فيهم نقاعداً استغنهم ولا تنهض همهم وادفع اليهم ما يحتاجون اليو من المال ولا تنشر في ذلك الطريق روء نوس فانه قد اوعر لي ان اجمع عشائر غسان النابعين للوائنا ولا بد من انه قد كتب الى حيلة بمنزل ذلك ايضاً فكن على استعداد وان تكن حالامع اولئك المحجازيين لا تستدعي كبير اهتمام

فقال ثعلبة اني عامل على ما تريد ولكنني ارجوان نتم ما تكلمنا فيه من تأجيل الاقتران فوعد بذلك وركب وركبت حوله رجال حاشيتو وسار فاصداً اللقاء

الفصل الخامس والثلاثون

* جبلة والحارث *

تركنا جبلة في حيرة من أمر الاقتران وتأجيلو وهو في طريقو من صرح الغدير الى اللقاء فلما وصل اللقاء سمع بخبر المحجازيين من عمان فقال في نفسه هذا عذر يساعدني على ما اريد فان زحف الاعداء الينا عذر كف للاشتغال به عن كل شاغل فكتب الى الحارث يستقدمه اليو لان اللقاء اقرب الى عمان من بصرى ولح عليه في الحجبي. وذكر في كتابو انه يريد المداولة معه بشأن الحرب توصلاً بذلك الى تأجيل الاقتران فسار الحارث اليو كما تقدم

فلما التقيا سلما واسرعا الى خلوة تداول فيها سرّاً فقال جبلة قد دعوتك يا ابن العم للبحث في الوسائل التي يجب اتخاذها لدفع هؤلاء القادمين فقد علمت انهم تحركوا من عمان شمالاً فهم بلا ريب يقصدون هن

الديار ولا يلبثون ان يأتونا وقد بعثت العيون برافقون حركاتهم لينبئونا بمسكرم
فاعدد رجالك وما اني قد اعددت رجالي

فقال الحارث قد شاهدت العشائر في الطريق يستعدون المسير اليكم واوصيت
ولدنا ثعلبة ان يكتب الى العشائر الاخرى لتجتمع بجوار بصرى فاذا اجتمعوا وعلنا
معسكر لإعداد حملنا عليهم معاً ولا أظنا نلقى مشقة في دفعهم لقاتهم وفقرهم فندد
علمت انهم حفاة الاقدام لا يلبسون الا ثملات يلغنون بها كما يفعل سائر اهل الحجاز
لا يكاد يميز اميرهم من صعلوكهم^(١)

ويلوح لي اسنا اذا رأينا منهم ما أنعمنا أرضيناهم بهال ندفعه اليهم ولا نظنهم جاؤنا
الا طعماً بذلك لعلهم بخيرات الشام وغنى دولة الروم

قال ذلك ليوم جبلة ان مجيئهم ليس مبنياً على سوء معاملتي لحامل كتابهم اليه
فقال جبلة لا نرى ان نعرض عليهم ذلك الا بعد ان نرى منهم مقاومة ولكني
لا اظنهم يقفون امام جندنا يوماً واحداً

ثم تذكر جبلة امر ثعلبة وهند فقال قد ذكرت ان ولدنا ثعلبة يهتم بمكاتبة العشائر
فهل هو في بصرى الآن

قال نعم هو هناك وقد أسفت لهذه الحال التي سقول بيننا وبين الاحتفال
بزواجه بيننا هند

فقال جبلة (وقد سر بهذا العذر) بالحقيقة انه موجب للاسف على اني لا ارى
مانعاً من تأجيل الافتران الى ما بعد الحرب فان فرحنا اذ ذاك يكون مزدوجاً
والانثان ولدانا والامر معقود لهما منذ ولدا

فابتسم الحارث فرحاً لما ناله من تأجيل الافتران عتواً فقال لجبلة مورك
فيك فقد كنت اميل الى ذلك واستحسنه واخشي اذا ذكرته لك ان نظن سوءاً
فنشكر الله على توارده رأينا ولا بد من ان يكون ذلك هو الصواب

فقال جبلة نعم انه الرأي الصواب وسأسير الى صرح الغدير فارى سعدى وأنبتها
بأنتم عليه الامر لئلا تكون مشتتة في الاستعداد بعد ان خاطبتها في التعجيل على أثر
تعجيلك فلا بد من ابلاغها خبر التأجيل ولا أحب ان يكون ذلك على يد احد سواي
(وهو انما يريد المسير بنفسه للداولة بشأن المهمة التي يريد ارسال حماد فيها)

فقال المحارث افعل ما بدالك وفقنا الله لما فيه الخير ثم خرجا وسأل حنة عن سائر انفق حركات الاعداء فقالوا انه جاء فاستقدمه وعادوا والمحارث معها الى مكان منفرد وكان الرسول من خالط الحجاز بين واحسن تقليدهم فاختره جملة ليحيط بهم ويستطلع حالهم فانابها بانهم قاموا من عمان وساروا يريدون مؤنة عند الكرك^(١) وانهم سيصلونها قريباً

فقال المحارث انظنهم يصلون اليها قال حنة ربما فعلوا ذلك ثم تحوّل نحو الرسول فقال له وهل عرفت عددهم وقواتهم قال اظنهم لا يتجاوزون ثلاثة آلاف مقاتل وليس معهم من العدة والسلاح الا شيء قليل لا يقاس بعتة رجالنا وسلحهم فصعك المحارث مستهزئاً وقال اثلاثة آلاف فارس جاؤوا من اقاصي الحجاز لجاربى الروم وجنودنا نجازمة الف^(٢) ومعها الجبول والسلاح فقال الرسول وقد علمت انهم ادركوا ضعفهم وقتلهم وربما وقتلوا هنيئة ريثما يستقدمون مدداً لهم من الحجاز

فقال المحارث أعلمت انهم ينعولون يستقدمون المدد قال الرسول كلا ولكنهم تداولوا في ذلك والارجح انهم لا يفعلون فقد سمعت مداواتهم وانا جالس بين جماعة منهم كانوا احدثهم فقتل قاتل من بينهم « كيف نهاج بلاداً لا يفل جنبها عن مائة مقاتل وقد يبلغ المئتين فليطلب المدد » فقام رجل من كبارهم اسمه عبد الله بن راحة فقال لهم « يا قوم والله ان الذي نكرهون للذي خرجنم له خرجنم نطردون الشهادة ونحن ما مقاتل الناس بعتة ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم الا بهذا الذي اكرمنا الله تعالى به فانما هي احدى الحسنيين اما ظور واما شهادة » فسمعت الناس يصيحون قائلين « صدق والله بن راحة » فلا اظنهم بعد ذلك يستمدون اهل الحجاز

فقال حنة وهل سمعت شيئاً من اهل انقرى التي مرثوا بها فلا بد من انهم تعرضوا لهم وقطعوا اشجارهم واودم قال لم اسمع منهم تشكياً ولقد عجمت ل حال هؤلاء الحجازيين فانهم على فقرهم وما

يظهر من ذلك احوالهم لم يوذوا احداً من اهل القرى الا الذين اعترضوهم ولقد سئ
في دبرين عان ومؤنة وسمعت حديث الرهان بشأنهم فرأيتهم يشنون على حسن
نصرتهم فقدموا بهم ولم يكلموهم امرأ غير ما احتاجوا اليه من ماء او علف
فقال الحارث الظاهر انهم يلتمسون ثقة الاهالي حتى لا يكونوا عوناً عليهم
أنشاء الحرب

فقال الرسول لا اظن ذلك غرضهم ولكني سمعت من رجل جالسته بالامس
فاتخذني صديقاً وقص علي قصصاً كثيرة هو معجب بها عن النبي الذي قاموا بنصرتي
وما قاله لي انه لما خرج لوداعهم في ثنية الوداع خارج ثرب وسلم الالوية اليهم اوصاهم
فتلاً « اوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو
الله وعدوكم بالشام وسجدون فيها رجالاً في الصوامع فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة
ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً » (١)

فأعجب الحارث وجملته هذه الاقوال ثم قال الاول أما وقد اقترب هؤلاء
من اللقاء فلبعثت الى دمشق نستعجلي الحد الرومي وليكن لفاؤنا اياهم دفعة واحدة
نصدهم ونعبددهم من حيث أنما فوافقه جملة على ذلك ولكنه ما فتى بكر في هند وحماة
وما صدق ان عاد الحارث من عده حتى ركب فاصداً صرح الغدير لا يصعب الا
فارسان فوصل القصر على غير انتظار فلما علمت سعدى قدومو انشعل بالها ولكنها
ما انت ان علمت بسبب محبته فحلاها واطلعتها على ما تم بينة وبين الحارث ثم قال
ول أنت على ما علمت من أمر ذلك الشاب أم تمكنت من تحويل هند عن عزمها
فرجعت الى صواحبها

قالت قلت لك قبل الآن ان من يحاول تحويل هند عن حماد فانه يلتمس
امرأ مستحلاً

فتنهت أسناً لما فرط منه تلك الليلة من القول بمشورة سعدى بشأن هند وحماة
ثم قال فالي بالحملة التي وعدت بتديرها للتخلص من هذه الورطة



الفصل السادس والثلاثون

* قرطامارية *

قالت اري ان نطلب اليو شيكاً صعب المذاق يقدمه مهرباً لهند فاذا لم يستطع ان
الجاني على نفسه وكما براء من لوم هند وقد كلمتها بهذا الشأن فرأيت فيها مبالاة
ذلك فهي تحب ان نعلو منزلة حماد في عيون اهلها فاذا اقترحنا عليه عملاً بعمله في
سبيل الحصول عليها فانها تزداد افتخاراً به كلما زاد ذلك العمل عظماً وخطراً
فقال وهل خاطبتها في ماهية ذلك الاقتراح
قالت كلاً

فقال وهل عينت الاقتراح في ذهنك أم انت تتنظرين البعث في شأني الآن
قالت أظني عينه وسأعرض عليك اهلك نستحسنه والآفاننا نظري سواء
قال وما هو قولي

قالت لا يخفى عليك ان جدتنا مارية بنت ظالم اخت هند الهندو امرأة حجر
آكل المزار الكندي هي جدة ملوك غسان كافة

قال نعم واعلم انها صاحبة الفرطين اللذين يضرب المثل بهما
قالت لقد نظقت بالصواب نعم اياها اعني فلا يخفى عليك ان قرطيبها اللذين
ذكرتهما لم يلبس ملوك الارض مثلها لان فيها درّين كيبضي حمام لم ير الناس مثلهما
ولم يدروا ما قيمتهما^(١)
قال نعم انهما ثمينتان

قالت اندري ابن قرطاهما الآن
فيهن جيلة مدّة ثم قال نقل لي والدي عن جدي عن فيلة ان جدتنا مارية اهدت
قرطيبها الى الكعبة في مكة على سبيل الذرو بظهرانها كانت وثنية ولولا ذلك لم يهد
مفل هذه الخف الى الكعبة

فقلت لها ما يمكن من امرها فان قرطبيها لا يزالان في الكعبة (١)

قال نعم

قلت فاري ان تقترح على حماد الا تيان بها مهرًا لهند تلبسها في زفافها فما قولك
فغضب جيلة نذكاه سعدى وحسن اختيارها ودقته، نظرها وتسم وقد أقرقت
اسرته كما رأى باب الدرج قد فتح فقال نورك فيك ونعم الرأي رأيك انه اقتراح
لا يتأتى لشران يأتي بمثلوا لانه بعيد المال واذا فرضنا ان حمادًا استطاع فانه
يكون املاً لهند فلا نفعه منها فهل تظنين هندًا توافقنا في ذلك

قلت لا أطعها الا موافقة والا فيكون لنا عذر في رد حماد

قال ها قد نقرر الامر فما هي هدا بشاء فاذا قبلت استدعي الشاب ونوبي عني
في ابلاغه ذلك فاني في شاغل عن هذه الشؤون بما نحن فيه من امر الحرب المنتظره
قلت حسناً وخرجت

وكانت هند في أثناء ذلك تمشي في الحديقة وقد علمت بمجيء والدها وتبينت
انه لما جاء لها الشأن وخصوصاً بعد ان رأتها اخذت بوالدتها فلبثت تخطر في الحديقة
وقلبها يحظر في صدرها وافكارها تجول في ماذا عسى ان يقر عليه القرار فلما رأت
والدتها خارجة اسرعت نحوها وهتت بالاستهتام فأومأت اليها ان تصبر ريثما يعود
والدها فانه سيسرع الى المنقاء حالاً

وسارت سعدى الى الخدم فأمرتهم باعداد الطعام ثم خرج جيلة الى الحديقة. منظاراً
بالبحث عن هند فلما لا فاما فلما وسلم عليها وهو يهش لها وعلامات الانسباط بادية
على وجهه فوسمت بذلك خيراً فمشت معه وهو يسألها عن صحتها وحالها وبجاذبها
بشؤون مختلفة الا الاقتراح فانه لم يدركه قط . أما هي فقد منعتها الحياء عن ذكر
رفعها ان تناول جيلة الطعام ودفع امرأته وابنته وعاد الى البقاء ولم يكذب بخبر
من الحديقة حتى أسرعت هند الى والدتها تستطلعها الخبر

(١) ذكر بعض مؤرخي الاسلام في عرض وصفه ملابس جيلة ان في تاحه لؤلؤتي قرطي
مارة ولا يزال ذلك لم يكن الا على سبيل التمثيل فقط اي ان يكون في تاح جيلة لؤلؤتان كبيرتان
تشبهان لؤلؤتي ماريه وخصوصاً انهم لم يدكروا احداً استرجعها من الكعبة

* فتاة غسان *

فأجابها وهي تبسم قائلة أشرك ببقاء والدك على عزمي فقد رد الحارث وابنه وقبل بحباد كما قلت لك ولكنه يرى وارى أنا ايضاً ان فترج عليه عملاً بسد ما يتنوله الناس من غموض أصله وفصلوه فانه كما لا يخفى عليك بطل باسل لا يرى الواشي سبيلاً الى الطعن فيه الا من جهة نسبه فاذا عمل عملاً تتردد هو فيه كان ذلك داعياً الى رفع منزلته وسكوت الناس عن الطعن في اصله

وكانت هند قد سمعت مثل ذلك من والدتها قبلًا فقالت ان ذلك يا أماء ما يوجب لي الغر ايضاً واعلم ان حماداً لا يتوقف في سبيل هند عن عمل يستطيعه الناس فهل قرر رأيكما على اقتراح نقترحاه عليه قالت لقد رأيت ان يكون في اقتراحنا ما يربن برأسك فضلاً عن شرفك قالت وما هو

قالت رأينا ان نطلب اليو الاثبان بقرطبي مارية من الكعبة واحكت لها حكايتها فبهتت هند برهه وقد هالها ذلك الاقتراح ولكن اغتها منعنها من اكباره قالت لا أظن حماداً الا فاعلاً ذلك باذن الله

قالت هلم بنا نستقدمه ونعرض عليه الامر فلما سمعت باستقدمه ورخص قلبها فرحاً ببقاءه وقالت استقدميه والاتكالا على الله قالت ذلك وقد شغلها الفرح فرب مشاهدته عن تقدير تلك المهمة حقاً رها فنادت الخادم الذي رافق سلمان الى مقر حماد واوعزت اليو ان يستقدمه الى الصرح

الفصل السابع والثلاثون

* حماد وآماله *

تركنا حماداً وسلمان يفكران في عبد الله وما بين الرجاء والرهوط من أمر ففضي سلمان اياماً يتردد الى البلقاء وبصرى للبحث عنه فلم ينف له على خبر حتى ترجع لديه اخيراً انه سافر الى الحجاز

وأما حماد فكان بين شاغلين عظيمين هند من جهة ووالد من جهة أخرى وكلما رأى قادراً ظنه رسولاً من هند جاء يستقدمه إليها أو يبعثاً يبعثه بخبر والد

حتى كان اليوم الذي تقرر فيه استقدامه وأبقي أنه أفاق في صباح ذلك اليوم منشراح له در واسع الآمال وكان فلما أصبح الأستقصاء كئيماً لما يتولى على ذهنه من المخاوف تارة على والد وطوراً على حبيبته حتى أثر ذلك في صحته فرق جسمه قليلاً على أنه كثيراً ما كان يخرج للصيد ونحوه لترويح النفس ولولا ذلك ما نجا من غائلة المرض

فلما أصبح في ذلك اليوم على ما تقدم عجب واستبشر ولست يتوقع خيراً مفرجاً وكان سلمان قد خرج من الخيمة لبعض المهام وهو على غير ما كان عليه سيد من الانشراح والابتنشار ولكنه ما لبث أن رأى فارساً قادماً مسرعاً فلم من جهة مسيره أنه يقصد ضربهم ففترسه عن بعد فعلم أنه من رجال صرح الغدير فتوسم بقدموه خيراً فحلف للملاقاة فلما دأبته عرفة وراه ينسم فعلم أنه إنما جاء لبشرى خير وقبل أن يصل الفارس إلى سلمان ترجل ومشى وزمزم الفرس بين ومشى سلمان حتى التقيا فتصافحا وتعاظما فاستطلعه سلمان الخبر فقل جئت استقدم الأمير حماداً إلى سيدتي الأميرة سعدى في صرح الغدير لأنها تريد مخاطبة في شأن

فقال سلمان وهل تدري ما هو ذلك الشأن . فضمك الخادم وقال لا أدري ولا بد من أن تكون أعلم بي . وأما أهل البصر عندما فقدوا حظوا من بعض ما سمعوه سرّاً وإدركوه ضمناً أن مولانا هند ستخطب وكما ننظر ذلك اليوم فانه سيكون يوماً سعيداً لم ير غسان أسعد منه لأن مولانا جبلة كرم النفس سيجزع علينا خلعة فاخرة ويثرب علينا الذهب ثراً

فتبسم سلمان وقال وهل علمت من هو خطيبها
قال نعم هو ابن عمها ثعلبة إذ ليس من أبناء عمها من هو أقرب منه إليها وقد طلبها ولكنني علمت من بعض الخدم أنها لا تحبه ولا تقبل به
قال سلمان وهل يمكنها رفضه

قال لا أدري والظاهر أنها رفضته . وكان الخادم قد سمع بأمر حماد ورغبة هند فيه ولكنه تجاهل لئلا يقال أنه باح بالسر وود أن يكون سلمان البادئ بالخبير

وأما سلمان فلم يعد يستطيع صبراً على كتمان هذه الاخبار عن سيده ولكنه اراد معرفة ما دعا الى استفدام حماد فقال وهل سمعت امراً حدث قريباً في القصر
قال لم اسمع شيئاً ولكني رأيت سيدي الامير جبلة جاء بالامس فمكث عندنا بضع ساعات فضاها في المسارة هو والاميرة ثم عاد الى البلقاء وفي حال خروجه استفدمني سيدتي وامدني اليكم

فادرك سلمان ان مجيء جبلة لم يكن الا لامر الخطبة وترجع عند انه رضي بحماد ولولا ذلك لم يكن ثمة داع لاستفدام حماد على اثر رجوعه حالاً فدخل على سيده وكان متكئاً على اثر عودته من صيد قريب وقلبه يطفح سروراً ودلائل الانسباط ظاهرة على وجهه لسبب لا يعرفه احد فدخل عليه سلمان وحياه وهو ينسم فقال له ما وراك يا سلمان اني اراك مبشراً
قال عساها ان تكون بشري خيراً يا سيدي
قال وما ذلك

قال ان اهل صرح الغدير بعثوا يستقدمونك اليهم فهل تذهب ام انت في شاغل الآن . قال ذلك وهو يضحك

فجلس حماد وهو بظلمة مازحاً وقال لا ابالي دعاني اهل الصرح ام لا فاني اراني سعيداً منذ فتمت عيني في هذا الصباح
قال وما يضرك ان تم سعادتك فان انشراح ددرك ان هو الا فاتحة السعادة وهذا خادم القصر قد جاءنا فهل ادخله عليك ليهبئك بهبهتو
فقال ليدخل

فدخل الفارس وهو لا يزال بلباس السفر فحيا الامير وابناه بهبهتو فقال حمادها فارقتم جميعاً في خير

قال فارقتم يدعون لسيدي الامير بالصحة والعافية ويرجون لقاءه قريباً انتم سرورهم بزوتو . فاستبشر حماد بها وراء ذلك

وقال اهدم سلامي وقل اننا سنصحهم غداً ان شاء الله

فقبل الخادم بك وخرج فخرج سلمان لوداعه ودفع اليه عشرة دنانير وقال هذا ثمن علقى الفرس وسترى منا ما يشرح صدرك فسر الخادم بالهدية وبالوعد وودَّ

ان تم خطبة هند لحامد لما ظهر من سخاء ورقة جانيو خلافاً للعلبة فانه لم يكن احد من أهل الصرح بحجة لعجرفته وبخاءه

فلما سار الخادم عاد . ان الى حماد فرآه مطرقاً يفكر

فقال ما بال . سي بكسر العلة بغت لتلك الدعوة علي . غير انتظار

قال كلاً . سلمان فقد كنت اتوقع خبراً مفرخاً منذ الصباح ولكنني افكر في والدي وما به فانه طالما تمنى ان يزوجني ويفرح لي وقد كان يجب ان يسير هو معنا في هذه المهمة . ولكن من يبيننا بمكانه

فقال سلمان دع علك المواجه يا مولاي فقد نقرر في ذهني ان سيدي سار الى انجاز ومتى فرغنا من مهمتنا هذه اذهب اليه بنسبي ولا ازال ابحث عنه حتى آتي به باذن الله فلمستعد الآن للذهاب الى صرح الغدير

قال أرى ان نبرح هذا المكان قبل الفجر حتى نصبح في الصرح كما قلنا للخادم . قال حسناً واخذنا في الاستعداد وحماد كلما تصور لافانه هذا خفي قلبه وهاله الموقف وتذكر اجتماعه بها في دير مجبراً . ولكن سروره لم يكن تاماً مخافة ان لا تكون دعوته علي ما يؤمل من الفوز بما يتمناه ولكن الامل غلب عليه فتصور انه انما دعي لانتماء عقد الخطبة ففضى بقية ذلك اليوم في مثل هذه الافكار

الفصل الثامن والثلاثون

* ساعة اللقاء *

أما هند فلما عاد الرسول وانبأها بمجيء حماد في صباح الغد خفي قلبها ولبثت تعد الميعات والدقائق فقضت ذلك اليوم ولم تنم من شدة الفرح فلما أصبحت سارت الى والدتها وسألتها عن المكان الذي سيجتمعون فيه فقالت قد امرت الخدم ان يعدوا غرفة الضيافة ولا يدخلوا اليها احداً في هذا اليوم وان يذبحوا الذبائح ويدلوا الاسطة فلبست هند ثوباً ساموياً جليلاً خاطئه لها احدى خياطات دمشق وكانت قد خبأته لئلا ذلك اليوم ومشطت شعرها وضرته وجعلت تشاغل ببعض المهام اخفاء لما

نار في قلبها من الفواعل المتضاربة بين الفرح بلفتها حبيبها وهول موقفها ساعة اللقاء وخوفها عليه ما اعدوه له من امر الكعبة

وكانت سعدى قد انذرت جماعة من أهل انقصر لاستقبال الفاديين قبل وصولهم فلما كان الضحى ودنا الوقت جمعت هند نطل من الدار فظنوا الى ساحة الميدان التي جرى فيها السباق منذ بضعة أشهر ووراءها الآكام والغياص وكلما رأته غباراً او آتت اشباحاً ظلت حماداً فادماً فيخفق قلبها رثتورد وجناً حتى كانت الظلمة فاذا بالغبار يتصاعد من بعض جوانب الافق ثم بان من تحته فرسان يسرعون وفي مقدمتهم فارس عرفت انه من أهل النصر وأنه نندم الجماعة لبشر مقدمهم فارداد خفتان قلبها ثم شاهدت الفرسان يقتربون ويتقدمهم حبيبها حماد ملثماً بالكوفة فابكرته في بادئ الرأي اركوب فرساً غير فرسه . ثم غلب عليها الضعف النسائي فاعطكت ركبناها واستعظمت ساعة اللقاء فتحولت عن البانة ولكها ما انكست تنظر اليه خلسة حتى دنا من النصر وكانت والدتها واقفة الى جانبها وقد لحظت ما هي فيه من الهيام فقالت لها امكثي ها ريثما استقدمك الى دار الضيافة

وخرجت الى الحديقة وقد جل الفرسان وتركوا خيولهم في عهدة الخدم ودخلوا الحديقة وفي جملتهم حماد ملثماً بعباءته وقد حوّل اذيال كوفته عن وجهه وارسلها الى كتفيه فبان ملامح محياه وتقدم وسلمان الى جانبه حتى دنا من سعدى فتقدم سلمان اليها واخبر انها هي الاميرة سعدى امرأة الملك جبلة فعلم انها والدة هند فسلم عليها وهي يتوقع ان يرى هنداً فلم يرها فعلم ان الحياء منعها من القدوم لفتائه وانها لا تلبث ان تأتي فاستقبلتها سعدى وسارت بها الى غرفة الضيافة فجالسوا الخدم وقوف بين ايديهم فقالت سعدى هل يأذن الامير بماه ليغتسل ويبدل ثياب السفر قبل تناول الطعام فاجاب وغسل يديه ووجهه وجاءه سلمان برداء حريري وكوفية فلبسها وجلس وعيناه شائعتان نحو الباب وكلما سمع وقع اقدام او رأى شيئاً ظنه هنداً فادمة

أما سلمان فانه ترك سعدى وحيداً في الغرفة وخرج يبيت عن هند وكان قد عرف غرفتها في مجيئه اليهم قبلاً كما علمت فاذا هي واقفة هناك تنلاني بالاساور تدبرها حول معصمها وافكارها ناتمة وقد علت وجهها امارات البغنة فلما رآها نظاها بالسمال ليستلنت انتباهها وقد كانت لعظم تأثرها لا تمر نومة الا سمعت لها صوتاً

وكيف بسعال سلمان فانه ذعرها فالتفت اليه فرأته ينسم فانسمت ولكنها شعرت
 بشعيرتين خفيفتين ثم شئت وهي تحاول اخفاء ما بها فتقدم نحوها وهو يجاذران يدخل
 الغرفة لئلا يكون دخوا. مخالفاً لمقتضيات العادة فمشت في نحوه وسلمت عليه
 فقال هل رضىت مولاتي عن راهب الدبر جامع الدور
 فتبسمت ولم تجب

فقال ما قد جئت بك بالاص الذي سرق الدرع فهل تريد من مفاصله ولكني
 ارجو ان لا تخمكي عليه بالسجن
 فذكرت زيارته اياها بباب الرهبان فضحكتم ولكنها ما زالت تنظر الى معصمها
 وتبلاهي باساوتها

فدنا منها وقال ما بالك لا تتكلمين يا مولاتي ألهي أذنت لاني تركت
 صاحب الدرع (اولص كما ترعين) وجئت وحدي . فهل استدعيوك
 فلم تجب ولكنه كان يقرأ آيات المرور على وجهها

فقال أراك تنظاهرين بان حبيبة لا يهيك ولكني افرا على وجهك عبارة يكاد
 ينطق بها لسالك فقد فهمت مرادك بدون ان تتكلمي فيها اني ذاهب لادعو الرجل
 اليك فرفعت نظرها اليه كأنها تلومه على هذه المداعبة أما هو فغول عنها ضاحكاً
 حتى دخل غرفة الضيافة فرأى سعدى وحامداً جالسين وليس في الغرفة سواهما فدنا
 من سعدى وقال وهو ينظاهر بالمزاج . ما بالي ارى هذه الغرفة قليلة النور كأنها
 بعيدة عن موقع أشعة الشمس

فقالت سعدى ألا ترى الاشعة داخله من هذه النافذة
 قال وهو يضحك لا أرى نوراً قط ويظهر لي ان شمسكم تشرق من الجنوب
 (وأشار الى غرفة هند) فادركت سعدى مراده فتبسمت واطرق حماد خجلاً ولكنه
 ود أن يلج سلمان باستفهام هند

فقال سلمان أراكم تضحكون من كلامي واراني اعلم منكم بمشرق شمس فصرخ . ألا
 أذنت مولاتي بقدوم شمس هذا القصر بل شمس بني غسان اليها فاني أرى
 الاسطة قد مدت وكأني بكم تنهأون للغداء ولكن الطعام حرام علينا قبل مجيء
 سيدتي هند فانها محور انسا ولا أظنك تنكرين علينا ذلك

ف قالت سعدى . أراك لجوجاً يا سلمان ولا مأرب لك في الامر
فضحك سلمان وقال لا مأرب لي صدقت لا مأرب لي ولكنني اعبر عن عواطف
اناس آخرين وأشار بطرف عينيه الى حماد فبسم حماد وقد توردت وجنتاه ونظر
الى سلمان نظره التوبيخ .

فالتفت اليه سلمان وقال بظهر امك لا تريد مقابلة فتاة غسان فاذا كان هذا هو
مرادك (أستغفر الله) فما كان اغنانا عن تكبد هذه المشاق وهجرنا الحجرة والعراق
فظرت سعدى الى سلمان والرزاة والتعقل يتدفقان من وجهها وقالت لم بدع
ولدا حماداً الا ليرى هنداً وترآه فانها ولدانا ولا نجعل انها بسرّان بالمقابلة فلا
تكن عجبوا ان هذا لا تلبث ان تأتني وتناول الغداء معنا
ثم وقفت وقالت وها اني ذاهبة لاستفداهما . وخرجت
فلما خرجت التفت حماد الى سلمان واراد معاتبته لما ابداه من الجراءة في خطاب
الاميرة سعدى

فقال ولولا ذلك لاطال زمن الالمنة جئنا لنا كل ونشرب
ثم عاد حماد الى الافكار في هند وقرب مجيئها وما سيكون من امرها ساعة اللقاء
فما لبث ان سمع وقع اقدام علم من ائزدوا حها ان سعدى وهذا فادمان فغمر للقيام
أما سلمان فوقف بالباب فراها فادمتين فتبسم ونظر الى حماد
ثم وصلنا الى باب الغرفة فدخلت سعدى وهدت رجليها مطرقة

فوقف حماد ومشى لاستقبالها وهو مطرق ايضاً ولكنه لم يجزأ على مهاجمة ولا هي
فعلت ولكن قلبها كالما ولا ريب بخندجان فرحاً وكل منهما ينظاهر بالتجلد فتشاعل
هو باصلاح ردايه وارسال كوفتيه الى كندو وثلاثه هي باصلاح قرطها في اذنها ولا
نسل عن تورد وجنيها واعطتك ركنيتها واخلاق قلبها . وحالما دخلت اشارت اليها
والدتها ان تجلس على وسادة بالقرب منها فجلست وجلس الجميع ولشوا رهة لا يتكلمون
وحامد بنظر الى هند محاذراً فراها قد تغير حالها عما كانت عليه يوم دبر مجيها فذل
ورد وجنيها وخف عضلها ولكنه رأى ذلك قد زادها جمالاً رهية وكانت هي تخلص
النظر اليه ولا تكاد تصدق ان والدها رضي لها يوم ثم بمريضها امر قرطي ماريا
فتوجس خيفة

فتحت سعدى الكلام فائلة وماذا تم من أمر والدك هل التقيتم به أم عرفتم مقرو
فقال حماد كلاً يا مولاني فقد شغل بالناس تأخر ولم ندع مكاناً لم نسأل فيه عنه
والفضل في هذا السعي كلوا لهذا الرفيق (وإشاراً الى سلمان) فاته لم يأل جهداً
في البحث والاستطلاع فلم تنف على خبر يقين

فقال سلمان ولكنني أرجح ذهاباً الى المحجاز لما سمعت من حكاية صاحب الخان
واخذ بقص عليهم ما سمعه من الخاناتي في بيت المقدس وما كان من امر ابي سفيان
وجواد حماد الخ

فاستنهت عن حكاية الاسد فقص عليهم ما لقوه في مسبعة الزرقاء وكانت هند
في أثناء الحديث شاحصة حتى سمعت ما لاقياه عند تلك الشجرة من غائلة الاسد وما
كانا فيه من الخطر فلآلات الدموع في عينها فلما رأى حماد منها ذلك اوشك ان
بيكي ليرط ما آتس من رقة عواطفها ثم أتم سلمان حكايته حتى انتهى الى آخرها
والجميع مصفون لا ينوه احدهم بكلمة

فلما فرغ من كلامه قالت سعدى بوخذ من مجهل ما سمعناه ان والدكم سافر
الى المحجاز مع ابي سفيان ولو كان باقياً في البلقاء لجاء للبحث عنكم بعد ان نال العفو
الامبراطوري ثم تبسمت وسكنت كأن في نفسها شيئاً نكتة فبقي الجميع صامتين
لعلها يقول شيئاً وفيما هم في ذلك دخل بعض الخدم وسأل الاميرة سعدى اذا كانت
تأذن بهد الساط لان وقت الغداء قد أرف فثالت هاتوا الطعام والتفتت الى حماد
قائلة هلم بنا الى الغداء ونتم حديثنا بعد

فمدت الاسمطة وحملت الذبايح وجلسوا على المائدة وحماد بمكر في ماذا عسى
ان يكون وراء تسم سعدى

فلما فرغوا من الطعام عادوا الى الاستراحة وجلسوا ينتظرون حديث سعدى
الآنهياً فانها لم تكن معهم لان والدتها اشارت اليها ان تخلف هنيئة ريثما يخادثون
في شأنها

فلما استتب بهم الجالوس قالت سعدى أظنكم تنتظرون مني كلاماً ظهر لكم من
نبيسي الآن اني اكنته

فقال حماد هو ذلك يا مولاني فانحنينا به

قالت نبيئت لما اتفق من ذهاب والدكم الى المحجاز وما نحن عازمون ان
نعرضه عليكم ما يأول الى اجتماعكم و هناك

فجيب حماد لكلامها ولم يفقه مرادها فقال وما ذا عسى ان يكون اقتراحكم
قالت لا يخني على ولدنا حماد ان ما عرفناه من شهادته وكرم اخلاقه يكتفي
لافتناعنا باستغفه فو هذا وانه جدير بالحصول عليها دون ابن عمها . ولكننا معاشر العرب
نحافظ على الانساب ونحترم القرابة ولا يجلو ان يكون قد بلغكم ان الحارث بن الي
شمر قد طلب هذا لابن ثعلبة وهو ابن عمها واولى الناس بها . ولكننا اثرا البقاء على
ما ارادته هند ورضينا بحماد لما آتسنا فيه من كرم الاخلاق وعلق الهبة وعدلنا عن
ثعلبة على كونه ابن عمها

فنجبل حماد لهذا الاطناب واخراج قلبه فرحاً لما نوسه من رجوع الارباب وفتح
امانيه فاطرق صامتاً

فقالت سعدى ولكن والدهما رأى رأياً اذا وافق عليه حماد كان فيه دفع لنقول
الناس وعتاب الاقارب وفخر لنا جميعاً

قال حماد مري يا مولاتي اني رهين اشارتك

قالت رأينا ان نعمل عملاً ننترحه عليك لا بعظم على باسل نظيرك فاذا
فعلته قطعت السنة المعترضين وزدتنا اعجاباً وفخراً

فزارت الحميمة في نفس حماد فقال قولي يا سيدتي اني فاعل ما تقولين وهل ينقل
علي امر ترضى به هند

قالت ننترح عليك ان تلبس هنداً يوم زفافها قرطين فيها لؤلؤنان كـ لؤلؤة
منها قدر يبيض الحمام

فقال الملك تعين قرطي مارية

قالت اياها اعني وهل تدري مكانها

قال سمعت ان ماريـا جدتك اهدتها الى الكعبة منذ اجيال فهل ما باقيا
هناك حتى الآن

قالت اظنها لا يزالان هناك وفي استغراجها من جوف الكعبة بسالة واقنذار
جديران بكم

فلما سمع سلمان ذلك اضطرب فؤاده خوفاً على سيدنا لعلوا ان الكعبة امنع من
عقاب الجوق قد يستقبل الوصول اليها
فقال هل تأذن سيدتي بكلمة افوها
قالت تنصّل

فقال هل تريد ان لبس مولائي هنداً قرطي مارية عينها ام قرطين آخرين
مثلها

قالت لا نلتبس شيئاً بقدر المال يا سلمان فاننا من نعم الله في سعة وبسطة عيش
ولكننا نريد ان نفاخر اعمامنا باننا لم نرض لهند الا رجلاً استخرج قرطي مارية من
جوف الكعبة وهذا ما اضحكني لما سمعت حكاية الامير عبد الله وذهابها الى الحجاز
فقلت في نفسي ان الله قد اذن بذهاب حماد ليلتي نايو هناك لان مقام اي سفيان في
مكة حيث الكعبة ايضاً

فالتفت حماد الى سعدى وملاحم السالة فنجلى في وجهه وقال لقد طلبت امرأ
بمحر كثير في سبيل مرضاة هند ولست فترين من فوق ذلك باذن الله واما سلمان
فانه استعظم الطلب ولكنه لبث صامئاً احتراماً لمقال سيد

أما هند فانها كانت جالسة في غرفتها وهي تعلم بما ستقوله والديها فلما تصوّرت
الخطر المحقق بهذه المهمة ندمت لحرارة والديها في ذلك وادركت انها انما درأ حيلة
للتخلص منه فعظم الامر عليها حتى نكت

وفيما هي في ذلك دخلت الحادمة تدعوها الى والديها فسمعت دموعها وسارت
والكآبة ظاهرة على وجهها فلما دخلت الغرفة رآها حماد على تلك الحال اثر منظرها
في نفسه وماجت فيه حمية الرجال وقد ادرك انها انما تبكي جزعاً عليه فقال لها لا تجزعي
يا هند انك ستلبسين قرطي مارية وتناخرين بها اهل الخافقين

فصمتت هند ولم تنجب ولكن كلام حماد أثار فيها ساكن الغرام وماج عواطفها
فازدادت اعجاباً بشهامته وحموه على ان خوفها عليه اعترض مجرى عواطفها فهبت
الحرارة في جسمها كأنك كشفت الغطاء عن نار منقذ في فؤادها فانبعث لميها الى سائر
اطراف البدن وتلاّات الدموع في عينها فاطرفت وجعلت تلاحى بثنية اطراف
أكامها مخافة ان يظهر اضطرابها لحامد

أما هو فلم يفته حديث قلبها ولا غل عما تضارب في ذهنها من العوامل ولكنه أراد تشجيعها فالتفت الى والدتها وقال طالما سافرتي المسير الى الكعبة لمشاهدة ما سمعته عنها من حج الناس اليها من افطار العالم وكثيراً ما سمعت حديث والدي عن الاصنام القائمة فيها وما يقدمه لها من العرب من الضحايا وقد قرأت في بعض الكتب انها قديمة البناء جداً وانها كانت حجاً يأمله الناس من اطراف الارض وقد بنيت في احدى الرأي لعبادة الله ثم جعلها بعض العرب مجسماً لاوثان حملوها اليها من انحاء شتى من العالم الوثني وفي جملة ذلك صنم حملوه اليها من هذه البلاد (البلفاء) اسمه همل وكان قبل ان حملوه اليها من البلفاء يسمى (همل) وهو لهظ عبراني معناه البعل اي الاله ^(١) يشبهه في لغة الكلدان جيراننا بالعراق لهظ (ل) وقد حملوا اليها اصناماً اخرى من مصر واسور وغيرها فاجتمعت فيها مئات منها فاصبح ذلك البيت مجسماً للاصنام

فاتبه سلمان وكان تائهاً في بحار الهواجس خوفاً على سيد فلما وصل حماد الى حكايات اصنام الكعبة قال سلمان نعم ان الاصنام كثير في الكعبة ولكن كثيرين من عقلاء قريش لا يحترمونها وقد سمعت كثيراً منهم يخاطب سيدي الامير عبد الله في بعض سفراتنا الى مكة بشأن تلك الاصنام فأكد له ان جماعة كثير من عقلاء مكة وهم من قريش انما يزورون الكعبة لعبادة الله وان الاعتقاد بالله قد انصل اليهم بالتلفين من سيدنا ابراهيم ولكن بعضهم ضل عن سواء السبيل بما زين لهم من عبادة الاوثان ^(٢)

فالت سعدى ووجهت خطاياها الى حماد بظهر ان والدكم الامير قد سافر الى الحجاز قبل الآن

قال نعم يا مولاتي انه زلها مراراً ولذلك ظننا انه سار اليها هذه المرة ايضا فقالت ان ذلك لما يؤكد ذهابه اليها الآن فعسى ان تلتقي به هناك . قال اني ارجو ذلك واتمنى لكم به سعادي . ثم فكر قليلاً وقال بنى تظنين يا مولاتي اننا سنبرح البلفاء

قالت متى شئتم وخير البر عاجله

(١) اديان العرب قبل الاسلام في الهلال من السنة الخامسة (٢) تاريخ الأنبياء

قال ارى ان نودع سيدي الملك جبلة قبل السفر فلنمس دعاءه بالتوفيق
 قالت ذلك راجع اليك اما هو فقد فوض اليها ان تبلغك رضاه وما تمّ عليه
 الاتفاق فاذا شئت مقابلته فلا شك انه بسرّ بلفياك
 كل ذلك وهدى مطرقة وعيناها تكادان تدمعان لولم يشغلها حديث الكعبة
 فلما تحول الحديث الى والدها استحسن رأى حماد في زيارته على امل ان يتحول
 عزم والدها عن اقتراحه . فقالت تفعل حسناً بزيارة والدي قبل سفرك
 فازداد حماد رغبة في ذلك فقال غداً نصباح مجلس الملك ان شاء الله فنسلم عليه
 ونودعه . هل تعرف الطريق الى اللقاء باسلمان
 فقالت سعدى سنرسل رجالاً يسبرون في ركابكم اليها
 اما اسلمان فما انتك منقبض النفس من امر هذه الهمّة اعلو انها شديدة الخطر
 جداً ولكنه سلم امره الى الله
 وقضوا بقية اليوم في صرح الغدير ولكن هبداً لم تنهأ بذلك الاجتماع لحوفها
 من الفراق العاجل وقرب الخطر الشديد على انها شغلت بمحديث حبيبها ولمت
 بروئيتهم عن كل المخاوف فلم يكن يوم اسعد عليها من ذلك اليوم وودت لو انه يوم
 يشوع بن نون خوفاً من انقضائه ولا تسل عن حماد وسروره وقد سهل عليه المسير
 الى الكعبة امله بقاء والدك هناك

الفصل التاسع والثلاثون

* الوداع *

وفي الصباح التالي اصبحت هند كئيبة حزينة واحست بلهفة وجزع لم تشعر
 بها قبلاً فكانت كلما نظرت الى حماد خيل لها ان احداً يحاول اخطافها من بين
 ذراعيها فيضطرب قلبها وتسود الدنيا في عينيها فحدثتها نفسها لاول وهلة ان يتواطأ
 على رفض امر القرطين ولكن الالهة وعنة النفس اعترضتها فصبرت نفسها متعللة بالآمال
 فلما اشرقت الشمس كانت الخيول قد اعدت لركوب حماد وسلمان الى اللقاء
 مع بعض الفرسان من اهل النضر فنهض حماد لوداع هند والديها وكانتا تنتظرانه

في غرفة الضيافة فدخل وهو في لباس السفر فوقفت له هند وركبتها ترنجان
فمد يده اليها فمدت يدها فامسكها فاحس بها باردة كالثلج ونظر الى وجهها فاذا به
قد امتنع لونه فلما خاطبها خطاب الوداع تناثر الدمع من عينيها بغنة وجذبت يدها
من بين اناملو بلطف واطرقت ولم تجب فعلم انها انما فعلت ذلك خوفاً عليه من هذا
السفر الخطر .

فالتفت اليها منسياً وقال ما بالي ارى هنداً خائفة وعهدي بها تنافس اشجع الرجال
وتسابق افرس الفرسان

ف نظرت اليه بطرف عينيها وتهدت تنهداً عميقاً ولبنت صامته ولسان حالها يقول
« ان مسابقة الفرسان شيء ومفارقة الاحباب شيء آخر »

فادرك حماد مرادها ولكمة خاف اذاً طال وقوفه ان يخرجها الغرام عما يليق به
في ذلك الموقف فتحول لوداع سعدي ثم عاد الى هند فودعها وتسم لها فتبسمت بمجاعة
له ولكن قلبها لم يفرج فقال لها ادعي لنا بسلامة العود فاذا عدنا كما اردنا كان حماد
اهل هند فلا نخشى هي ان تذكر ولا نخجل اذا ذكر سواها ولما اذا لم
فقطعت هند كلامه على عجل وقالت وهي تتلجلج بكلامها لا نقل (اذا) فالك
ستعود الينا سالمًا باذن الله ثم غلب عليها الضعف فتناثرت الدموع من عينيها وهي
تحاول اخفاء عياطها امام والدتها

أما سعدي فرأت من الحكمة ان لا تطيل الوقوف على هذه الصورة فقالت سر
يا ولدي بحراسة الله وهو ببيتك بغبتك على اهون سبيل فتعود الينا سالمًا وقد
التفتت بوالدك

فأثني على لطفها وودعها وقبل يدها وخرج الى الحديقة وكان سلمان في
انتظاره هناك وقد هب الموكب فلما خرج مولاه وسعدي وهند تسعانه تقدم اليها
وودعها وهو على غير ما آتساء منه صياح الامس من انبساط النفس والمجون ولكمة
تظاهر بالامتنان والانساط واركب حماداً ثم ركب هو وباقي الموكب وخرجوا
قاصدين البقاء وهند وسعدي واقفان تنظران اليهم اما هند فلم يكدها بدبر عنان
جواده حتى غلب عليها اليأس وشعرت بما دبر والدتها فتحولت الى غرفتها واخذت
في البكاء وجعلت تندب سوء حظها وحظ حماد فتبعتها والدتها وهي تَخَف عنها

وتصبرها بالوعود

فقلت دعيني يا اماء ما قد نفذ السهم وقضي الامر ان حماداً قد سار الى مكان
لا يرجو عوده منه وقد كان الاجدر بكم ان ترفضوا طلبه بدلاً من ارساله في هذه المهمة
فالت ذلك وهي تبكي

فالت سعدى خلي عنك الالهام ان حماداً شجاع باسل وخادمه سلمان خير
بكل شيء فلا يعسر عليهما العود بالفرطين وفي ذلك فخر لك ولدا ومنجاة من انقار
ثعلبة وابو على الافل . .

فلما سمعت اسم ثعلبة تذكرت ما قاسته من مساعيها فها ان عليها ما يقاسيه حماد في
سبيل افاذهما منه فسكتت والهواجس تتقاذفها
أما حماد فما زال حتى اتى اللقاء وسلمان صامت لا يفوه بكلمة وكان حماد يبائع
في اظهار ارتياحه الى تلك السفرة وآماله في عواقبها

وكانت البشائر قد سبقنها الى جيلة تنبئة بجي حماد والناس بحسونه اميراً جاء
لغرض يتعلق بالحرب لان الروم كانوا قد خابروا كل القبائل المجاورة يلتصقون
بخدمتهم في حرب الحجاز بين

أما جيلة فلم انه جاء لامر يتعلق بخطبته فاذن بدخوله عليه في خلوة فلما انقيا
به هم حماد تنقيل يدي جيلة فانخى جيلة انقبيلو ثم جلسا وجيلة يرحب به فقال حماد
قد جئت يا عماء اشكرك على ما نكرمت به علي من الرضا والنس دعاءك في ذهابي
الى مكة فاني شاخص اليها على عجل

فقال جيلة رافقتك السلامة في المسير والاقامة وجعل الله مسيرك سعيداً ولا حرمك
ما تريد ولكنني اوصيك يا ولدي ان تبني ما دار بشأن هند مكتوماً حتى تعود لئلا
يسبب لنا ذلك مشقة وربما حال دون ما نحن ساعون فيه

فاذرك حماد مراده فوعده بالكتمان ثم قال معي خادم بل هو رفيق بود ثقيل
بدلك قبل السفر لانه سهرافني ويكون عوناً لي فهل يا ذن مولاي بمنولو بين يديه
قال ابدخل

فخرج حماد ثم عاد وسلمان معه فتقدم سلمان الى جيلة وقبل يده ولبثوا هنيهة
يحدثون في ما لم يخرج عن الموضوع من تشجيع حماد ونحيب الامر اليه ثم نهض حماد

وسلمان وودعا جبلة وخرجا بريدان خيمتها عند الشيخ النبطي وكل منهما في هاجس
اما سلمان فلم يكن راضياً بما رآه وسمعه ولكنه رأى حماداً راضياً به مصمماً على
تنفيذ فلم يشأ تثبيط عزائم وعول في باطن سر على ان يبذل جهن في مساعدته الى
آخر نسمة من حياتهِ .

الفصل الرابع

* السفر الى الحجاز *

فوصلا الخيمة في المساء وكان النبطي قد استبظاًهما لقيامتهما يومين كاملين فلما
عادا رحب بهما فنزلا وهما يفكران في امر السفر والاستعداد له والعمدة في ذلك على
سلمان فابتاع جملين لحمل الماء والذباب والزراد وسألا الشيخ النبطي عن رجل خبير
بالطرق يرافقهما الى مكة باجره ترضيه فسألهما عن سبب السفر فانخلا سبباً اسكته

فقال اما الدليل فاني ادلكما على رجل من اهل بئر وهو المدينة التي جاء منها
الحجازيون الذين قلت لكم انهم سيخرجون هذه البلاد من ايدي بني غسان وقد جاء في
امس بهمة من بعض امراء ذلك الجيش فدلتهم على بعض الاماكن التي يمكنهم الحصول
فيها على زاد لم يسمعه يقول انه لا يلبث ان يعود الى تلك فاذا رافقكما اليها كان لكم
يو خير رفيق ومتى وصلتم بئر هان عليكم الوصول منها الى مكة

فقال سلمان والظاهر ان صاحبك هذا من اتباع صاحب الدعوة الاسلامية
بالمدينة

قال نعم هو مسلم وقد جاء في جملة المسلمين الى عمان وسيعود بهمة خصوصية فهل
استقدمه اليكم

قال سلمان استقدمه

فخرج من الخيمة ونادى « أبا سعيد » فسمعوا صوتاً يقول « لبيك يا اخا
العرب »

فقال النبطي هلم اليّ

فجاء دوي طويل القامة عريض الاكتاف خفيف اللحية يظهر من ملامح وجهه
البنّي الاربعين من العمر عاري الرأس والقدمين ملتحف شملة من نسج ابيض تغطي
بدنه فيلف بعضها حول عنقه ويترك منها زائدة ينشرها على رأسه اذا اشتد عليه الحر
وفي يد رمح ونبلة

فلما رآه سلمان عرف من شكل ملابسه وملامح وجهه انه حجازي من اهل
المدينة فلما وصل ابو سعيد الي حماد بهن ما عليه من اللباس الياخر من الخز والديباچ
والحرير فعلم انه امير ولكفة ظنة من امراء غسان فلم يمش له فابتدره النبطي قائلاً
» ان الامير ايس من غسان كما قد يخال لك بل هو من العراق فلا تنقبض
نفسك لرؤيته

فقال ابو سعيد لا بأس من ان يكون غسانياً فاننا تجاوزنا في منزلك فحن
الآن اخوة

فقال حماد بورك فيك يا اخا العرب من انت

قال من اهل يثرب

قال سلمان ان اهل يثرب اكثرهم من اليهود

قال نعم فيها كثير منهم فهل قدمتها قبل الآن

قال نعم جئتها منذ عشر سنوات

قال لقد تغيرت حالها عما كانت عليه في ذلك الحين باسراق نور الاسلام

فقال سلمان العلي نبي الاسلام منكم ام من قريش في مكة

قال لا ليس منا ولكنا قمنا بصرته وفتحنا له صدورنا ومازلنا فهو يقيم في مدينتنا

وقد سمانا الانصار

قال سلمان اذن انت سائر الى المدينة

قال نعم والي اين انتم ذاهبون

قال الى مكة فهل ترافقتا اليها

قال الرجل يا حبذا لو كان ذلك في الامكان
فقال سلمان وهل يمنعك من ذلك بعد المسافة ام انت سائر في مهمة على عجل
قال نعم اني سائر في مهمة على عجل ولكن ذلك لا يمنعني من المسير الى مكة لولم
يكن اعداؤنا لنا فيها بالمرصاد

فقال سلمان واي الاعداء نعني

قال اعني بني قريش اعمام نبينا فانهم لا يزالون يتوقعون فرصة للفتك به وهو
انما جاء المدينة مهاجراً فبصرناه كما قدست وقد تبعه اليها نفر من ذوي قريباء اما
الباقيون فلا يزالون في مكة وقد تحالوا على عدوانه وفي مقدمتهم ابو سفيان الامير
التاجر الشهير

فقال سلمان في نفسى ان تلك مشكلة لم تكن من حسابنا ونصور ان في الطريق
بين المدينة ومكة خطراً لما بين اهل البلدين من العداوة فنظر الى المدني وقال هب
انا تركناك في المدينة فهل في طريقنا الى مكة من خطر

قال لا خطر عليكم اذا سرت في طريق معروفة ولو كنتم من دعاة الاسلام مثلنا
لكان في مسيركم خطر ولكتم غرباء سائرون في سبيلكم ولعل الافضل ان نسيروا في
قافلة لانكم تكونون في كثرة فلا خوف عليكم من طارق باذن الله قال ذلك وصحت
واطرق كأنه يفكر في امر طرق ذهنة بغنة

فنظر سلمان الى حماد كأنه يستطلع رأيه بعد ما سمعه من ذلك البئر في فقال
حماد اري ان نرافق الرجل الى المدينة ثم نطرحه ما يكون من امرنا ثم التفتا الى الرجل
فاذا هو مطرق يتلاهي باصلاح ثنيات ثوبه فابتدره سلمان قائلاً ما بال اخي قريش
مطرقاً يفكر العمل رأياً جديداً ففزع عليه يو

قال لم يخطر لي رأي جديد ولكنني تذكرت امراً ذا بال اظنه بهمكم ايضاً

فتطاول سلمان بعنقه وقال وما ذلك

قال تذكرت حديثاً سمعته من معسكرنا في عمان فاذا صح مسيرنا الى مكة قريباً
فندخلونها آمنين مطمئنين

فلم يدرك سلمان كه كلامه فقال وماذا نعني بمسيركم الى مكة

قال اعني ان نبينا (صام) سيجعل على مكة رجالاً فيفتحها ويكسر اصنامها
فنصبر في حيازتنا فاذا دخلوها كنتم آمين

فقال وهل است موقن بهذا الخبر وهل المسير اليها قريب
قال اني واثق بصدق الرواية ولكنني لم اتحقق الزمن الذي ينوي فيه المسير وعلى
كل فاننا مني وصلنا المدينة علما حقيقه الحال فهلهم الى الاستعداد
ثم تركها وذهب فنظر سلمان الى حماد وقال له لم يسرني الخبر كثيراً لان
وصولنا الى الكعبة وبجنتنا فيها عن الفرطين قد يكون اسهل علينا قبل ذلك النفع
منه بعد

فقال حماد لا ارى رأيتك في ذلك اذ ربما كان لنا بعد النفع سبيل اسهل
وطريق اقرب وسندى ما يأتي به الغد فعليك الآن باعداد حاجيات السفر من الجمال
والمياه والزاد ونحوها

فقال سلمان ارى ان نركب خيلنا وتأخذ جملين لحمل الماء والزاد على ان
يكونا ذخراً لنا في حال الاضطراب الى الركوب لان الجمال اصبر على العطش من الخيل
قال ذلك واخذ في الاستعداد

وفي صباح اليوم التالي استعصروا جملين وخادمين وساملي احمالهم ما خفت وغلا
وتركوا ما بقي من الثياب وغيرها عند الشيخ السلي وساروا ببلادهم المحجاز
ولما تبطنوا الصغراء وبعدوا عن الملقاه احس حماد بالوحشة وتثل له خطر
المسير وتحقق كلام سلمان ولكنه تجدد والثى اتكأه على الله

وبعد مسير بضعة ايام اشرفوا على جبال المدينة فقال اليتري ها نحن على مقربة
من يثرب ولا تلبث ان نشرف عليها

فقال سلمان اني اعرف المدينة وطرفها فقد نزلتها منذ اعوام
فقال اليتري لا تلبث ان نشرف عليها فترى فيها تغيراً طراً عليها بعد نزول
النبي فيها فقد بنيت فيها المنازل وكثرت البيوت وتعدد السكان لكثرة من هاجر
اليها من اصحاب الرسول وغيرهم

وبعد هجرة اشرفوا على المدينة فاذا هي في منبسط من الارض تحديق بها البسانين
والغياض فقال اليتري ههنا يثرب فهل تنزلان فيها ريثما تصطحبان من يرافقكما الى مكة

او تريان رأياً آخر

قال حماد اني افضل النزول هنا منك لاشاهد المدينة واهلها وارى صاحبكم واصحابه بعد ما ملأت اذني من احاديث حروبهم واصافهم

فانحدروا حتى سارط على مقربة من السور لا يستغشم احد من رؤوسهم لان بينهم احد الانصار وقد ظن كثيرون انهم انما جاءوا يلتصقون الاسلام لكثرة من كان يند على المدينة من القبائل في تلك الايام واكثرهم كانوا يجيئون رغبة في الاسلام فلما دنوا من السور قال سلمان ارى ان نضرب خيامنا هنا فنستريح هنيهة ثم نترك ديارنا ومضنا في عهد الخدم ويدخل المدينة خفافاً

فقال اليثري اما انما فلا استطيع صبراً عن المسير الى المدينة الساعة لاني في مهمة فارجو ان نلتقي هناك

فقالا سر بحراسة الله

فودعهم ومضى

فلما خرج النفت سلمان الى حماد وقال له اراك راغماً في دخول المدينة

قال نعم

قال ولكني لا ارى ذلك

قال ولماذا

قال لاسا لم تترك البلقاء وتنجش الاسفار لتقيم في هذا المكان فضلاً عن الخطر الذي قد يبتانا لجرّد دخولنا المدينة

فقال واي خطر علينا من ذلك

قال احاف ان يرانا هناك احد من عيون أبي سفيان فاذا رآنا في مكة عرفنا فيجسبنا من المسلمين فيعرف قتل مساعينا

قال اذا رأينا ابا سفيان فلما له ان عبد الله والذي اوربنا رأينا والذي معه فنا من الخطر

قال لو كنا على يقين من وجود سبدي والدك عند هاهنا العسير ولكننا انما قلنا ذلك على سبيل الظن

فلبث حماد برهة يفكر فتذكر والدك وخطيبتك وحاله فرغب في اتمام مهمته بالمسير

الى مكة فقال اراك مصيباً في رأيك فالأفضل لنا ان نسير الى مكة لنبحث عن
الفرطين فاذا ظفرتا بها هان علينا كل ما يريد
وكانت الشمس قد مالت الى الاصيل فارسلا خادماً يبتاع زاداً وعلفاً فعاد عند
الغروب فاكلوا اطعما الجميلين والجوادين
وباتوا تلك الليلة واصبحوا في الغد باكراً فلأول الغرب وركبوا يريدون مكة
وكان سلمان لا يعرف الطريق اليها ولعله كان يعرفها ونسيها ولكنه كان لا يزال يذكر
طريقاً تؤدي الى مكة عن طريق آبار بدرعري المدينة فضل المسير الى تلك الآبار
ليبتلى عندها ثم يلاون قريتهم ويسرون نحو مكة . اما حماد فلم يكن يعلم شيئاً من
تلك الطرق وكان اعتماده على سلمان في كل شيء .

الفصل الحادي والإربعون

* البحيرة *

فساروا طول ذلك النهار سيراً بطيئاً لعلمهم ان الآبار غير بعيدة عنهم وانهم
بائنون هناك لا محالة فلما كانت الظهيرة حطوا رحالهم للاستراحة فحلقوا الاحمال
وجلسوا للطعام ثم توسدوا العشب تحت شجرة كبيرة بلمسون القيلولة واشغل الخادمان
برعاية الجميلين

فأفاقا عند العصر والنفتا فلم يريا الجميلين ولا راعييهما فبغت سلمان ونهض للحال
ونظر الى ما حوله فرأى كل شيء في مكانه كما فارقته فاخذ يتشوف عن اللال لعله
يرى اثر الجميلين فلم يرها اثرًا ولكنه رأى اثر خفافها على الرمال فهم يتبع الاثر وقال
لحماد تربع هنا ربنا اري ما تمّ لما فمكت حماد وسار سلمان حتي غاب عن النظر
ومالت الشمس نحو المغرب ولم يرجع سلمان فقلقى حماد كثيراً وخاف ان يدركه
الظلام وهو منرد في تلك الارض

وفيما هو في ذلك رأى اشباحاً تقترب فتفرسها فاذا هي ثلاثة من الابل ومعهما
الخادمان وسلمان ففجّب للجمال الزائد فلما وصلوا استظلمهم الخبر

فقال سلمان أرأيت هذه الناقة

فنظر حماد اليها فاذا هي مشقوقة الاذنين فعجب لحالها وقال وما خبرها وما الذي جرى لها

قال هذه هي الناقة التي بسميها الحجازيون البجيرة فان من علمائهم التي قد اخذت ثلاثي بعد ظهور الاسلام ان الرجل منهم اذا ولدت ناقة خمسة ابطن وكان الاخير ذكراً بحر اذنها اي شقها وامتنع من زكاتها واطلق سراحها لا يمنعها من ماء ولا مرعى فكان خادمينا رأيا هذه الناقة سائبة فارادا القبض عليها فهم لما احدها فنفرت منه فظن انه اذا ركب احدى نافتينا ادركها فتعقبها بها فلم يدركها فاستطاعه رفيقه فركب الجمل الآخر ولحق به حتى لحقت انا بهما فرأيتهما قد قبضا عليها بعد جهد شديد وعادا وقد وبختها على ما ارتكبا فوعدا ان لا يعودا الى مثل ذلك من اخرى

الفصل الثاني والاربعون

❖ آبار بدر ❖

فعجب حماد لحكاية البجيرة ولكنه ناسف لضیاع الوقت حتى دنا المغيب ولم يصلا الآبار فقال ارى يا سلمان ان تترك هذه الناقة وشأنها لاننا لسنا في حاجة اليها ولا عندنا من علف نطعمها اياه ولهنم بالمسير لكي ندرك الآبار فهل نحن بعيدون عنها فقال سلمان اننا على مسافة قصيرة فهل بنا اليها قال ذلك وامر فركبوا جميعاً وساروا يقطعون السهول والادوية حتى خيم الغسق وقد نفذ ماؤهم ولم يصلوا الآبار فقلق سلمان وخاف ان يكون قد اخطأ الطريق فساق جواده الى اكمة أبطل منها على على منخفض علم مما يحيط به من الجبال انه المكان المقصود ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك لبعده المكان وظلامه فعاد الى حماد وابناه بما كان فاتق رأيهما على ان يتركا الخادمين والجبلين هناك ويسيرا على النرسين ليتفقدوا المكان فاذا كان هو بعينه شربا وسقيا النرسين لان الخيل لا تصبر على العطش ثم يناديان الخادمين فهما المجاوبان فسارا في ارض وعرة والجو هادئ لا يسمع فيه غير وقع الحوافر

على تلك الصخور وكان الظلام آخذاً في الاشداد ولكن القمر كان قد ارسل أشعة ضعيفة تبشر بقدومه قبل طلوعه فلما وصلا الى قمة الجبال المحيطة بمكان الآبار اخذا في الانحدار وهما ينتظران طلوع القمر فارغ الصبر ليساعدها على تعيين المكان فوصلا الى منبسط الوادي ونظرا الى ما حولها فاذا هما في واد مظلم تحفّ به الجبال من أكثر جهات ولا يسمع فيه صوت ولا يهب فيه نسيم وكان القمر قد طلع لكن اشعته لم تدرك اسفل المكان بعد فتعقب سلمان انها آبار مدرثم استنار الوادي فتأملته سلمان فاذا هو هو بعينه ورأى الاماكن التي كانت تقام فيها السوق كل عام وكانت تجتمع اليها القبائل للبيع والشراء والاخذ والعطاء ولكنه آس في المكان وحشة وهجراً كأنه هجر منذ اعوام ثم خطر له ان الليل يربو ذلك فاخذ يبحث عن محل الآبار وحاد في أثناء ذلك صامت لا يبدي حراكاً

وترجلاً عن الترسين وساراً بقودانها وقد نهيبا وبدا لتلك المخاطر وكان اعطى ندماً سلمان لانه ساق سيده الى الخطر ولكنه تجدد ومار وحداد الى جانبوا لا يتكلمان حتى وصلا الى حفرة متفرقة فاستنرا وصاح سلمان هذه هي الآبار قد ادركناها وكنا قد اعدنا ما يستقبان به من دلو او نحوه فالتى سلمان الدلو فسمع صوته بصادم قعر الثر والبئر فارغة ففجعب لذلك ثم ما لبث ان سمع حركة ورأى جبولاً وثب من البئر وفرّ فتأملته فاذا هو بشبه الثعلب او الكلب فازداد استغرابه وبغت حماد وقال ما هذا يا سلمان ابخرج من الآبار تعالب

قال اني في غاية الاستغراب من هذا الاتفاق ان المكان هو هو بعينه وقد زلت فيه منذ ست سنوات وشررت من مائو ورأيت الناس يستقون منه فلا ادري ما ذا جرى له فيلوح لي ان أنزل في هذه البئر فاني اراها غير عميقة لعلني استطلع من امرها شيئاً وارسل قدماً ثم الثانية حتى ادرك القمر فاحس كأنه واقف على عظام فمد يده وامسك العظام بيده فاذا هي مدفونة كلها او بعضها بالتراب واستخرج شيئاً منها فتصاعدت عنها روائح كريهة وامس عظاماً طويلة ومستديرة وكروية على اشكال شتى فاقشعر جسمه لانه علم من اشكالها انها عظام آدميين فصعد للعال وقد هاله الموقف لم يشأ ان يخرج احدًا بذلك لتلاً بخاف وناقت نفسه لاستغلاء حفيظة الامر عن تلك الهاجم والعظام ولكنه كتم ذلك واوعز الى حماد بالعود فعاد حماد وهو ينتظر ان يسمع شيئاً

جديداً فلم يفهم سلمان بكلمة فضلاً سائرهم في ذلك المنخفض وحماد ينتظر حديث سلمان وسلمان يفكر في غريب ما رآه والليل هادي لا يسمع فيه الأصوات وقع الحوافر فلما ابطأ سلمان في الحديث هم حماد بالسؤال عما رآه وإذا بصوت جمل يهدير عن قرب فوقنا وانصتوا ليعرفا وجه الصوت فاذا هو جمل متعذر من اعلى الجبل من الجهة التي جاء منها اولاً فظناً احد الخادمين قادماً لحجر جديد فلبثا واقفين ينتظران ما يكون فاذا بالراكب في لباس غير لباس الخادم فتناً ملاء فاذا هو رفيقهما اليثري فلما دنا منها ناداهما فعرفا صوته فاجابه سلمان فنعارفوا

فلما وصل اليثري اليهما قال ما الذي جاء بكما الى هذا المكان

قال سلمان جئنا نلتئم الماء

قال ألتئمسون الماء من هذا المكان وقد أصعب مجيئكم للرم ومعرضاً للحيث

قال سلمان لا اعرفه الا مستنى فيه ماء عذب وقد عجزت لما نقول وخصوصاً بعد

ان رأيت الحجاجم بنفسى ولمسنا باهلي

فغضب حماد لذلك وقال أنقول الصدق يا سلمان

قال نعم يا مولاي قد لمست الحجاجم والسواعد والافخاذ بيدي وكميت ذلك

علك لئلا تنهيب

قال حماد لقد عرفت سرّ سكونك كل هذه المدة وما اتوقع خطابك بعد تزولك

الى قاع البئر ثم النفث الى اليثري وقال وما الذي حوّل هذا الماء الى رم وعظام

قال ان اذالك خبراً طويلاً سأقصه عليك متى جلسا فقد جئكما بالماء ووضعتُه

عند خادميكما وراء هذه الاكمة وقد تسنفران مجئى اليكما في هذا الليل على غير موعد

بيننا وما السبب في ذلك فاني كنت في انتظاركما اليوم بباب المدينة فلما استبطأتما

جئت افقدكما فلم اجدكما فعلمت من قرائن مختلفة انكما سرتما نحو هذه الآبار ولما كنت

عالمًا بمجانفاتها حملت اليكما قربة ماء وسرت اقتصص خبركما حتى جئت الى خادميكما فقلنا

لي انكما تظنّيان الماء من هنا فجيئت اليكما على عجل كما نريان

قال ذلك وإشار اليهما ان يتبعاه فركبوا وساروا جميعاً وكل منهم يتأمل هيئة

ذلك المكان بعد ما علموا من امنه حتى وصلوا اعلى الوادي وتحولوا نحو الخادمين

وكانا في انتظارهم فلما وصلوا نرجلوا جميعاً وجلسوا على دكة فتناولوا الطعام وشربوا

وسقوا الخيل والجبال وسلمان وحماة ينتظران خبر بدر بفارغ الصبر
فلما استناب بهم الجلوس قال حماد اراني في قلبي لا مزيد عليه فهل تكرر علينا
بخبير تلك الآبار
قال ان خبرها غريب بطول شرحه فاذا كنتم مستعدين لاستماعه الليلة فصصنه
عليكم والآن فاني انصت عليكم في الغد
فصاحا معاً بل نضمة علينا الليلة فان القمرفد ابدر وتافقت نفوسنا الى السمر الا اذا
كان في ذلك ثقله عليكم
قال اني شديد الرغبة في قص هذه الحكاية لانها تبين كرامة نبينا (صلعم) وبها
يفتخر المسلمون كما سمعون
ثم جاسوا واخذ البثري بقص حكايتهم وحماة وسلمان متصنان والجبالان يتناولان
عن بعد لاستماع الخبر

الفصل الثالث والاربعون

* سبب الغزوات *

قال البثري اعلوا اني اقص عليكم خيرا عظم واقعة حدثت في الاسلام وقد
شهدها رسول الله (صلعم) بنفسه منذ نحو خمس سنوات وكنت في جملة المحاربين
فرايت وسمعت ما تذيب لهولوا الاطفال
فقال سلمان ومن هم الذين حاربتموه هناك
قال هم بنو قريش من اقرباء الرسول ولكنهم اعداؤه
قال وكيف يكونون اقرباءه ولا يقومون لاصرو بل يكونون اعداءه
قال ان لذلك خبرا طويلا لا استطع بسطة الليلة ولكنني اذكر لمحة ثم بدأ
لذكر واقعة بدر التي نحن في صدها فارعوني سمعكم
قالوا كلنا آذان فشنف مسامعنا

فقال لا يخفى عليكم ان نبينا (صلعم) لما قام يدعو الناس الى الاسلام لم يجبه الا نفر من قريش وظل اعمامه واكثر ذوي قرابته على دين آبائهم واكثرهم انما رغبوا عن هذا الدين القويم خوفاً على تجارهم ان تكسد لما في تأييد الاسلام من احقار الاوثان وابطال عبادتها فينخط قدر الكعبة فيقل الحجاج اليها ومعاش قريش وسائر اهل مكة من التجارة ولا تجارة الا بالحجاج فضلاً عما يتمتع به الفرشيون من السيادة والنفوذ ببقاء الكعبة فانهم حجابها ولم بذلك فعرو سؤدد .

فهذه الاسباب وغيرها حملت بني قريش على مقاومة نبينا (صلعم) ولكنهم لم يحرم انصاراً شديداً ازره وصدقوا بدعوته ومنهم جماعة من خيرة قريش وكبار رجالها على انهم لم يستطيعوا حمايته من الاذى فهاجروا وهاجروا معه الى مدينتنا يثرب التي كما بالقرب منها البارحة فاستقبلناه بكل اكرام فنزل بيننا على الرحب والسعة وسررنا بهذا الشرف العظيم

ولا يخفى عليكم ان المدينة واقعة في الطريق بين مكة والشام فمن اراد تجارة او سفراً بينهما لا بد له من المرور بها فاخذ (صلعم) من يوم بزولوا المدينة يجمع اصحابه الذين هاجروا معه وهم المهاجرون والمدينيون الذين نصره وهم الانصار ويخرج بهم للغزو او يرسلهم ويقيم فكلما سمع بقافلة لقريش قادمة من الشام او غيرها تجارة او اموال خرج رجالو ليغزوهم وما اصابه من مال او غيره وزعه على رجاله

الفصل الرابع والاربعون

* غزوة بدر الكبرى *

ففي السنة الثانية للهجرة كانت وقعة بدر الكبرى وسببها ان ابا سفيان بن حرب رجل قريش واكبر زعمائهم كان قادماً من الشام في ابل لقريش عليها اموال كثيرة ومعه ثلاثون رجلاً او اربعون من قريش وكلهم من اعداء الاسلام وفي جملتهم عمرو بن العاص وكانت ابار بدر هذه محطة تقف عندها القوافل القادمة من الشام

للاستناء في طريقها الى مكة فلما علم رسول الله (صلم) بمروره اتدبنا للخروج عليهم فعلم ابوسفيان بذلك فاتخذ بعضاً من رجاله الى مكة يستنفرون الناس للقدوم الى الآبار لحماية الحالم فكان الرجل منهم اذا وصل الى مكة وقف على بعير وقد جدّعه وحول رحله وشق قميصه وهو يقول « يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة ان اموالكم مع ابني سفيان قد عرض لها محمد واصحابه لا ادري ان تدركوها الغوث الغوث » فتحجز القريشون سراعاً لم يتخلف من اشرافهم الا من عجز عن المسير فبلغ عدد السائرين الف رجل وثمانه فرس وثمانه بعير واما رجالنا فكان عددهم ثلاثه وبضعة عشر رجلاً وسبعين بعيراً وفرسين . فسارت رجالنا من المدينة يتقدمهم النبي حتى وصلنا الى مكان اسمه الصفراء فبعث من يتحسس خبر ابني سفيان فقبل له انه بالقرب من بدر فجمعنا في جلسة وجمع اصحابه المهاجرين معاً وشاورنا جميعاً وكان قد استطلع قوة العدو واطلعنا عليها وقال ما نقولون هل نخاربهام فاجابوا جميعاً بصوت واحد وقلب واحد موافقين وسأل الانصار فقالوا « فوالذي بعثك بالحق ان استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخوضته معك وما تكن ان تكون تلقى العدو بنا غداً لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله »

فلما سمع كلامهم اتى عليهم وسار وسرنا جميعاً وكان ابوسفيان قد نزح الى الخديعة في اثناء تلك اللتة فسار من بين الآبار حتى نجاوزها والعير معه فلقي رجال قريش في مكان يقال له الجحفة فحاطب اشراف قريش قائلاً هذه العير والاموال قد نجت فارجعوا الى مكة وكان في جملة اولئك رجل اسمه ابو جهل لعنه الله عليه فأبى الا ان يمر بالآبار فساروا حتى دنوا من الوادي اما نحن فسرنا نطلب الآبار فنزلنا عندها ومنعنا الاعداء منها فتقدم زعيم الانصار منا وهو سعد بن معاذ وقال « يا رسول الله اني لك عريشاً من جريد فتكون فيه وتترك عندك ركائبك ثم تلقى عدونا فان اعزنا الله واهلنا الله عليهم كان ذلك ما احببناه وان كانت الاخرى جلست على ركائبك فلحنت بمن وراءنا من قومنا فقد تخلف عنك اقوام ما نحن باشد حياءً لك منهم ولو ظننا انك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك بمنعك الله بهم بناصحتك ويحاربون معك » فاثني الرسول عليه خيراً فبينما له عريشاً

وبعد قليل راينا غبار قريش ثم ظهرت رجالهم وفرسانهم وعليهم العتق والسلاح

يتقدمهم امرأهم في افخر اللباس وكانوا اهل بدخ وترف وقد اخذت بهم الخيلاء
والفخر فلما دنوا منا عسكروا امامنا ثم ارسلوا رجلاً منهم ليجزهم اي يندبر عددهم فجال
بفرسو قليلاً وعاد فأنبأهم بقله عددنا فتشاوروا في الامر طويلاً وفيهم من بشير
بالرجوع وكانوا بين ان يرجعوا او يهاجموا لان الماء في حوزتنا فاذا اشبعوا كانهم
هلكوا عطشاً فعظم عليهم الرجوع لكثرتهم وقتلنا فاقروا على الهجوم فخرج منهم افراد
طلوا البراز فبارزناهم فقتلنا بضعة من كبارهم فهجم آخرون منهم وهم بعض منا والقم
الفريقان وكان يوماً عظيماً خاف فيه المسلمون خوفاً شديداً لما رأوا من قتلهم وقد
سمعت رسول الله (صلم) يقول وقد رأى احداث الحرب « اللهم ان تهلك
هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد في الارض اللهم انجربي ما وعدتني » قال
ذلك وهو ينظر الى رجاله ويدعو لهم بالصبر وقد سمعت دعاءه بأذني لاني كنت في
جماعة من الانصار مع سعد بن معاذ واثنين بباب العريش نخرس رسول الله (صلم)
خوفاً عليه من كرم العدو . ولقد رايت ما كان من فتك المسلمين بالمشركين ما ينشرح
له الصدر وخصوصاً لما رايت انا جهل زعيم الفرشيين مجتهداً يخطب بدمه وكان اشد
الناس عداوة لبي الله ورايت غيره من امرائهم مقتولين منهم حنظلة بن ابي سفيان
وشيبة وعنة وامية وغيرهم ورايت اشد المسلمين فتكاً في ذلك اليوم حمزة بن عبد المطلب
عم الرسول فقد رايت يفتقر الجماهير وفي صدره ريشة نعامه يتنازها عن غيره
ومن غريب ما شاهدته من بسالة المسلمين في ذلك اليوم واستهلاكم في نصر
الاسلام ان معاذ بن عمرو بن الجموح كثر على ابي جهل المتقدم ذكره وكان محاطاً بزمرة
من رجاله فاخترق الناس اليه فضربه ضربة اصابت ساقه فهجم عكرمة بن ابي جهل
على معاذ بضربة قطعت يده فطرحها عن عاتقه ولكنها ظلت معلقة بجملته من جثته
فزال معاذ بقاتل كل ذلك اليوم وبدء فجر وراءه فكنت انظر الى ذلك واشعر
كان بدني في مثل ذلك اما هو فلم يكن يبالي فلما آذته بك وعاقته عن الحرب جعل
رجله عليها ونمطي حتى انفصلت فتركها وعاد الى الحرب . وكان في جملة جند المشركين
العباس بن عبد المطلب فانه كان لا يزال متردداً بين الاسلام وما كان عليه اجداده
فلما حمل الفرشيون على بدر حمل معهم مكرهاً فاسر في جملة من اسر ولكن اسره لم
يطل لان النبي امر باطلاقه حالاً

ولم يمض زمن حتى رأينا المشركين هموا بالمرار فقبضنا على جماعة كبيرة منهم ولما انقضت الحرب امر رسول الله ان يؤتى بجثث القتلى الى القليب فجيء بها فنكومت كوماً وفيها جثث نخبة امراء قريش وهي التي راينم بقاياها في الآبار الليلة ثم جمعت الغنائم ففرقت فيها على السواء وحملت بشائر النصر الى المدينة وإخبار الويل الى مكة وقد كانت هذه المعركة قاضية على مشركي قريش اذ قتل فيها جماعة من الداعاء الاسلام واشدهم بطشاً وفي جملتهم ابو لهب عم الرسول وكان شيخاً كبيراً لم يحضر الحرب فلما بلغته نكبة الفرستين اشند الامر عليه فمات بعد تسعة ايام

فاصبح زعيم الفرستين بعد هذه المعركة ابا سفيان الذي ذكرته لكم وهو مشهور وكثيراً ما يسير الى الشام فلا يخلو ان تكونوا قد رأيتموه هناك فقال سلمان نعم رأيتُه غير مرة وهو اشتهر من ان يذكر

فقال وسترونه قريباً عند وصولكم مكة فانه عاد اليها منذ بضعة اسابيع فلما سمعنا ذكر أبي سفيان توهمنا ان يكون عبد الله معه ولكنهما كنما ذلك ثم قال البئرني واصبحت الآبار بعد تلك المعركة مهجورة وقد انقلب الجثث فيها فانتنت وطل موسمها السنوي من ذلك الحين

هذه هي حكاية الآبار فاشكروا الله انكم لم تلقوا فيها وحشاً ضارباً او نحوه فلنبت الليلة هذا ولنعد في الغد الى المدينة نمكث فيها يوماً ثم نسيرون منها في قافلة الى مكة والّا فاخنازلوا لانفسكم

فاعجب حماد بشهادة ذلك الرجل وغيرته عليهم ورغبته في انقاذهم وقال اننا والله شاكرون لحسن صنيعك جزاك الله خيراً وقد يجدر بنا بعد هذا الصنيع ان نكون طوع بنائك نسير معك حيثما سرت ولكننا نرى سرعة المسير الى مكة لعلمنا لمتني فيها بأبي سفيان قبل خروجه منها

فقال البئرني العلكم نعاملونه التجار فان له علاقات كثيرة مع تجار الشام قال سلمان لا علاقة تجارية بيننا وبينه ولكننا نفتش عن صديق لنا سار برفقتنا من بيت المقدس

فقال البئرني انصح لكم نصيحة صديق مخلص لا يريد بكم غير الخير فهل نتصنعون بها فلا نعم ويكون لك علينا الفضل

قال انصح لكم اذا لقينم احداً من المسلمين في المدينة او غيرها وعرض ذكراي
سفيان فلا تذكروا علاقة بينكم وسبه فان ذلك يوقع عليكم شبهة وربما يلحق بكم
من جراء ذلك ضرر

فقال سلمان لقد أحصلت الصيغة وارتدت بها خيراً مشكراً لك على ذلك ونحن
لو لم نتوسم فيك الاخلاص لما فرط ما ذكر هذا الرجل على اننا لم نقل اننا اصدقاؤه
وانما قلنا ان صديقاً سار برفقتو

فقال البكري ومهما يكن من الامر فقد نهيتكم الى ما لا يخلو من فائدته
قال حماد لا ريب من ذلك عندنا فنشكرك عليه شكراً جزيلاً

وكان قد مضى معظم الليل وغلب العاص على الجميع فتهصوا للرفاد فلما اصبحوا
خيرهم البكري في الذهاب معه الى المدينة او الذهاب الى مكة نواً فاشقوا عليه وعندروا
بانهم يؤثرون المسير نواً الى مكة على نية ان يبروا بالمدينة في عودتهم فاطاعهم واوصاهم
وصايا تتعلق بسفرهم وودعهم وولد الى المدينة وتركهم يستعدون للسفر الى مكة

الفصل الخامس والاربعون

* بكر وخزاعة *

فلما خلا حماد بنفسه تذكر حالة مع هند وما هو ذاهب من اجله وكان في اثناء
حديث البكري عن ابي سفيان بهم بالاستنهام عن والد ثم يخاف العاقبة فيمتنع واخيراً
صبر نفسه ريثما يصل مكة ويلتقي بابي سفيان

وفي صباح اليوم الثاني ركبوا وساروا لابلون على شيء فامسئ المهاء وقد
ادركوا بقعة من الارض يكسوها المرعى وفي احد جوانبها شجرة تحتمل عين ماء عذب
اعتاد المارة الجلوس اليها التماساً للراحة من وعناء السفر اثناء مرورهم بين
مكة والمدينة

فجلسوا الى الشجرة واوقفوا نارا يستضيئون بها او يستخدمونها في معالجة طعامهم

تلك الليلة . حتى اذا اكوا جلسوا يتسامرون ريثما يتغلب عليهم النعاس فلما انتضى الهزيع الاول من الليل هوى بالرفاد وقد امروا الخادمين ان يتأوبا السهر خوفاً من طارىء بناجئهم ولم يكذب بغض لم جفن حتى افاق سلمان فسمع ضوضاء عن بعد فالصق اذنه بالارض فتبين له ان بضع عذرات قادمون من مكة مسرعين ومعهم الخيول وعلم انهم نازلون عند تلك العين لا محالة فحاف ان يكون عليهم من نزولهم بأس فالتفت الى حماد فاذا هو لا يزال نائماً فتردد بين ان يوقظه او ان يتركه نائماً وفيما هو يتردد افاق حماد من تلقاء نفسه فرأى سلمان جالساً على فراشه فبعث وناداه واستطلعه الخبر

فقال كنت عازماً على ايقاظك لو لم تستيقظ من تلقاء نفسك

قال سلمان وما سبب ذلك

قال اني اسمع اصوات خيول واناس قادمين من جهة مكة فاخشى ان يكونوا

سائرين في حرب وربما اوقعوا بنا سوءاً

فقال حماد وما الرأي اذن .

قال الرأي ان نتواطىء على كلام نقوله لهم يرضى لنا الحاجة فقال وما هو

قال يغلب على الظن ان القادمين من اهل مكة الذين لم يؤمنوا بالنبى الجديد

وانهم يريدون المدينة لحرب او لاستطلاع فهم من اعداء المسلمين وعابينا نحن ان

نجاهل امر الاسلام وتظاهروا باننا انما جئنا يريد الاعتراف في مكة

فقال حماد وما معنى الاعتراف ان ذلك لا اثر له في ديننا

قال هو الحج الى الكعبة والكعبة حجة يؤمها الناس من اقاصي الارض على اختلاف

الملل والنحل فاذا قلنا اننا غرباء قاصدون زيارة الكعبة لا يستفشونا

فقال حماد افعل ما بدالك وكن انت المتكلم عني

ولم يكاداً يتأان الحديث حتى جاء خادمه سلمان بنبيه ان الجميع قد اقترب وانهم

يفصدون ذلك الماء

فلبثوا نحت جنح الظلام ينتظرون وصولهم وقد زادوا نارهم وقوداً استثناساً

بالنور

فلم يمض قليل حتى وصل الماء فارش ملثم فلما اقترب من النار نادى من القوم

التزول ههنا

فقال سلمان عرب من لحم ومن انت
قال عرب من خزاعة وما الذي جاء بكم الى هذا المكان

قال سلمان جئنا لزيارة البيت الحرام
قال هل مررتم بالمدينة

قال مررنا بها عن بعد ولم ندخلها

وما اتم كلامه حتى وصل رفاقه وفيهم الفارس والراجل فزجلوا جميعاً ودسوا
من الماء فنفرس فيه سلمان يسرع عددهم فاذا هم نحو الاربعين يتقدمهم رجل بلباس
فاخر لم يستطع معرفته لشدة الظلام وكان هذا الرجل هو وجهه النجوم بأمرهم
وبيناهم فعلم سلمان انه رئيسهم وكان قد امرهم ان يتصلوا خيمته بالقرب من تلك
الشجرة فاخذوا في ذلك وسلمان ينظر اليهم ثم لاج له ان يستطلع حقيقة حالهم من
زعيمهم فدنا منه وحيّاه فرد الفارس الخيمة والارتباك ظاهر علي وجهه ولكنه التفت
الى سلمان وقال قد انبأني دليلنا انكم من لحم فهل انتم قادمون من العراق

قال نعم يامولاي

قال ونحن نعلم ان الخبيثين في العراق من اهل النصارية

قال نعم ونحن كذلك

قال وكيف نقول انكم جئتم لزيارة البيت الحرام والنصارى يحجبون الى
بيت المقدس

فنفث سلمان وليث ربه صاحتاً لا يدري بماذا يجيب وظهر الارتباك علي وجهه
ولكنه تجلد وقال وهل تغفل ابواب الكعبة دون النصارى اذا جاؤوا معتبرين

قال كلاً فان الناس يقدمون اليها من اقاصي العالم على اختلاف البلل والحل
ولكن النصارى قلما يجيئونها وزد علي ذلك ان الوقت ليس وقت الحج فاصدقني بخبر
قال سلمان ليس في حقيقة خبرنا ما نخشى بيانه ولكني رأيتكم جمعاً كبيراً فارتبنا
من امركم فاذا علمنا من انتم افدناكم عن حقيقة امرنا

وفيما هو يقول ذلك جاءه رجل يقول ان الخبيثة قد نصبت والمائدة أُعدت
فالتفت الى سلمان قائلاً اذا شئت ان تضيئنا على الطعام اتمننا الحديث فاننا نخاف

بعد طول السمر الى الراحة

فقال فلنترك انمام الحديث الى صباح الغد

قال حسناً وانفترقا فصار سلمان الى سيد فاذا هو لا يزال جالساً على فراشه
ينتظر عودته بخير القوم فلما رآه عائداً استطاعه الخدر فأباه بها كان واستمهل الى الغد
يستطلع الحقيقة

فبات تلك الليلة على حذر ولما اصبح الصباح خرج سلمان الى مضرب القوم
فاذا هم اكثرهم من الفرسان وتأمل لباسهم وحالم فاذا هم من اهل الحجاز فكفر في
امرهم فرأى ان يصطوب سيد بان يسير معاً الى رجل الامس فاصطوبه وسارا
فلما وصل الخيمة استأذنا في الدخول فاذن لها فدخلتا فوجدا الرجل جالساً
على وسادة مقطب الوجه كأنه يفكر في امره فلما وقع نظره على سلمان وقف له
ورحب به فبالغ سلمان في الاعتذار لما سببه له من المشقة بتلك الزيارة ولكنه قدم
سيد في الجلوس فادرك صاحب الخيمة انه سيد له فرحب به بتوع خاص واجلسه
الى جانبه ثم التفت الى سلمان وقال لارى ضيفنا في هذا الصباح عراقياً ايضاً
قال سلمان نعم يا سيدي انه امير من امراء العراق وانا خادم له فهل يتفضل
سيدي بالافادة عن اسمي

قال اني عمر بن سالم الخزاعي من بني كعب سائر في (١) جماعة من خزاعة
يريد المدينة

فقال سلمان العلكم من اهل مكة

قال نعم نحن نقيم في مكة ولكننا سائرون الى المدينة في مهمة فهل انتم قادمون منها

قال كلاً يا مولاي لم تكن في المدينة ولكننا مررنا بها عن بعد

قال يا حذالوا انكم دخلتموها

فتعجب سلمان لتعجب هذا وعه باهل مكة اذ ذاك اعدوا لاهل المدينة على ابر
ما كان من مهاجرة النبي واصحابه منها

فقال هل نأذن لي بسؤال يزيل عني الالتباس

قال تنصّل

قال فلنم انكم من اهل مكة نصدون المدينة وقد بلغنا ان بينكم وبين اهل المدينة عداوة

قال صدقتم ولكن بين اهل مكة جماعة كبيرة هم على دعوة اهل المدينة اي انهم مسلمون ولكنهم مستضعفون لا يستطيعون التصريح خوفاً من كبار قريش ان يصيهم بسوء^(١) على انني سالتكم عن حقيقة امركم فلم تجبني فهل انتم سائرون الى مكة للرجح حقيقة

قال سلمان اما وقد آتسنا فيك ما آتسناه منه كرم الحلق وحسن الوفادة فاني اطلعك على جلية امرنا لعلك تكون لنا عوناً في ما نحن فيه

قال وما ذلك

قال نحن يا سيدي كما قلت لك من اهل العراق وهذا الامير حماد سيدي وقد جئنا فاصدين مكة للفتيش على الامير عبد الله والد مولاي هذا فقد قيل لنا انه جاء الحجاز برفقة ابي سفيان منذ اشهر فهل تعلم عنه شيئاً

قال اذكر اني شاهدت ابا سفيان بعد عودته من الشام هذا العام ولكنني لم اعلم شيئاً عن الامير عبد الله فربما كان معه ولم أراه

فقال سلمان هل يخبرني سيدي عن سبب قدومه الى المدينة وهو من اهل مكة فاني اخاف ان يكون وراء مجيئكم ما يدعوا الى حرب تغفل بها ابواب مكة دوننا

قال اما سبب مجيئنا الى المدينة فهو اننا من خراعة كما اخبرتكم وقد كانت قبيلتنا في خصام مع قبيلة اخرى يقال لها بنو بكر فكان النزاع بيننا لا يفترح حتى ظهر الاسلام وكانت الغزوات فجاء المسلمون منذ عامين الى الحديبية بالقرب من مكة ومعهم سهم يريدون الاعتمار فحاف اهل مكة ان يكونوا عازمين على حرب فممنعهم من دخولها ثم كانت خصومة انتهت بعقد ارم بين المسلمين وقريش ينضي بهدية وسلام فدخل بنو بكر في عقد قريش ودخلنا نحن في عقد المسلمين ثم رجع المسلمون واهلأت قلوبنا فلما دخل هذا العام رأينا من بني بكر خروجاً عن العقد فتعرضوا لنا وقتلوا منهم بعضاً ورأينا بني قريش بضافروهم على ذلك فاعتبرنا هذا العمل نقضاً للعهد الذي كان معقوداً بينهم وبين المسلمين وكاني بالفرشيين ساعون الى حنهم بظلمهم فقد كانت

مكة آمنة مطمئنة فعرضوها للهجمات المسلمين لاننا لما استنفل الامر علينا ورأينا القرشيين
يعاونون البكرين علينا جئنا بهذا الجمع يريد المدينة لنبلغ ذلك الى صاحب
الرسالة الاسلامية

فقال سلمان وما ظنك بو بعد ذلك

قال اظنه يحمل على مكة رجالو فينتفحها عنوة وفي فتحها عز للمسلمين
فقال سلمان بظهر انكم على دعوة صاحب الرسالة فهل انتم مصدقون لما جاء بو
قال لقد جئنا المحدث الى امور طالما وددنا كتمانها ولكننا اصبحنا في حال لا يرى
معا بدا من التصريح فاننا نرى صاحب هذه الدعوة صادقاً في دعوتو ولا نظنه الا
غالباً وما بدلنا على ذلك نصرته في حروبو حيثما توجه

فعاد سلمان الى ما هم فيه من امر القرطيين والامير عبد الله فاخذ يفكر في وسيلة
يستخدم بها تلك الفرصة فقال اما وقد آتسنا منك هذه الشهادة فهل ترى ان نهدينا
الى سبيل نتصل بو الى ابي سفيان للبحث عن مولاي الامير عبد الله

قال وما الذي عساي ان افعله في هذا القليل

قال توصي بنا رجلاً من خاصتك تثق باخلاصه ونعقله ليدربنا في مكة لاننا
غرباء والغريب اعمى ولو كان بصيراً

ففكر عمر ساعة ثم قال لي في مكة عم شيخ يقيم في الكعبة تبارك كلة وهو واسع
الاطلاع نافذ الكلمة لدى ابي سفيان فاذا لقيتموه واستعتموه في شأن هداكم الى سواء
السييل واسمى حرب فاذا دخلتم مكة وجئتم الكعبة اسألوا عن حرب الخزاعي فاذا
لقيتموه رأيتم فيه شيئاً طاعناً في السن فقولوا له ان ابن اخيك عمر بن سالم يقرئك السلام
واذا وصتم له حالنا وما شرحته لكم من امر خزاعة وكر علم انكم صادفون في قولكم
فاسألوه ما شئتم فانه خير مرشد لكم في ما تريدون

فنهض نخاد عن ذلك وانني على عمر وودعه وانصرفا الى خيمتهما

وبعد قليل نهض الركب الخزاعي ويميل المدينة وقد سرّ سلمان لتلك الصدفة
وأمل ان يبال بها خيراً



الفصل السادس والأربعون

* مكة المكرمة *

وفي ظهيرة ذلك اليوم ركبو يربدون مكة فوصلوها بعد مسير يوم فدخلوها فرأوا أهلها في هرج ومرج لا حديث لهم إلا أم خراعة وبكر فساروا في طرقها لا يستغشهم أحد لكثرة الواردين على الكعبة من الغرباء وإرادوا المسير إلى الكعبة في ذلك اليوم فقال سلمان هلم بنا إلى خان نزل فيه بجمالنا وإنا لنأثم ننزل الكعبة أو انزل أنا وحدي انجس الأخبار وأعود إليك فقصدوا خاناً بالقرب من الكعبة نزلوا فيه فبدلوا ثيابهم وتناولوا طعاماً واستراحوا نية يومهم وسلمان يفكر في وسيلة تكفل لهم نجح مسعاهم

فلما أصبح في اليوم التالي قال سلمان أمك هنا يا مولاي ربنا اندبر الأمر بنفسي وأنيك بالأخبار وإذا أبطأ ث عليك فلا ينشغل بالك قال حماد سر بحراسة الله

فخرج سلمان وقد تربأً نزي أهل الحجاز لا يربد بذلك تنكراً ولكنه خاف أن يكون غريب لباسه موجياً لاستغفات الانظار إليه فوصل المسجد المحرم فدخل من بعض أبوابه فرأى في ساحته جماعة كبيرة عراة يطوفون^(١) وفيهم الواقف والجالس والراكع ورأى في بعض الجوانب جماعات جالسين يتحادثون ويتهاورون فسار هنيئة فرأى في وسط الساحة بناءً مربعاً تجلله أستار من القباطي علم من طواف الناس حولها أنها الكعبة تجلله الاستار فلم يجسر على الطواف حولها والدنومنها ولكنه نظر إلى داخلها عن بعد فرأى فيها أعماراً قائمة علم أنها الانصاب ورأى حول الكعبة وفوقها أصنام هائلة رأى بعض الناس يحلفون ويغتسلون حولها فاذله كل ذلك وقال في نفسه إذا لم يكن في قيام الإسلام غير هدم هذه الانصاب وإبطال عبائنها فلكني به فضلاً

ثم تأمل في بناء الكعبة وأخذ يفكر في أمر القرطين وكيف يمكن أن يكونا هناك

وإذا وجدنا فابن يمكن ان يكون موضعها فلم يردد إلا ابهاماً ولا زادته تلك الزيارة
إلا بأساً

ثم تحول نحو الجاهل لعله يرى ذلك الشيخ فطاف المكان بسأل عنه باسمه
فقال له بعضهم انه خرج الى منزل بالامس لتوعلك اصابه فأسأل عن منزل ففيل له
انه في مر الظهران بضواحي مكة^(١)

فخرج الى مر الظهران وفيما هو في طريقه اليها بسأل عن الطريق ويستنهم عن
الرجل رأى اهل مكة في هرج يجمعون جماعات ثم ينفرون كأنهم في خوف من امر
ذي بال فعلم انهم يتعشون بأمر اهل المدينة ومراجعة منهم كثيرة قد تألموا
امام منزل فحجم قد ربطت حوله الخبول فعلم انه بيت امير كبير فسأل عن
صاحبه ففيل له انه منزل ابي سفيان فلما سمع اسمه شكر الله بوصوله اليه تلك الساعة
على غير انتظار واخذ يتفرس في وجوه الناس لعله يرى سيده بينهم فلم يجد فسأل بعض
الوقوف عنه فاخبره بعضهم انه فارقه قرب عمان وانه لم يروه من ذلك الحين فأسف
لذلك اسفاً شديداً وظلمت الدنيا في عينيهِ ونشأ من تلك الصدفة ولكنه تجلد وسار
في طريقه الى مر الظهران وهو غارق في بحار الهواجس فوصل المكان بعد العصر
فسأل عن منزل حرب فدلوه عليه فجاءه وهو لا يرجوا ان يصيب منه خيراً

فسأل عن الرجل ففيل له انه مصاب بمرض شديد فلا يستطيع ان يخاطب احداً
فعاد على عقيقه كالف البال وقد اخذ منه اليأس مأخذاً عظيماً لا يدري
كيف يلاقي حماداً

فوصل الحان والليل قد سدل نقابه فرأى حماداً في انتظاره على مثل الجمر
فتظاهرا بالتجلد ولم يجبه بجوابه ولكنه انبأ بمرض حرب ووعده بان يواصل السؤال
عنه حتى يشفى من مرضه على انه لم يكن يرجو شفاءه لشيخوخته وعجزه ولكنه التفت انكالة
على الله وضبر نفسه

وفضى سلمان شهراً يردد على بيت حرب بسأل عنه وبدو له بالشفاء وعلم
سلمان بعد ذلك ان الشيخ آخذ في التقدم نحو الشفاء فعادت اليه آماله

فسار اليه ذات يوم وهو يرجو ان يباله ويشكو اليه من وفيها هو في الطريق رأى اهل مكة في قلق شديد فمر بمنزل ابي سفيان لعله يتنسم خيراً عن سيده فرأى المنزل قنراً فسأل عن السبب فقال له مخبران ابا سفيان لما سمع قدوم المسلمين على مكة خرج اليهم وربما اعتنق دينهم لانه خرج خائفاً فسأل سلمان عن جند المسلمين فقبل له انه قادم وقد صار على مقربة من مكة

فتفرس سلمان في اهل مكة فرأى علامات النشل ظاهرة على وجوههم فسمع بعضهم يتحدث الاسلام وينتم على ابي سفيان وبعضهم يلوم القرشيين على عنادهم وكنهم عهد بني خزاعة فعلم ان الامر عائد للمسلمين لاجل انهم خرجوا من مكة حتى جاء مر الظهران واراد السؤال عن حرب فرأى الناس يهرعون والنساء يولولن وينادين بالويل والثبور فانفت فرأى الغبار يتصاعد عن بعد فصعد على اكمة في ضواحي مكة يرى ما يكون فرأى الغبار قد شفى عن جد متكائهم تقدمهم النرسان بالرايات ووراء كل راية قبيلة من المسلمين وكان ذلك في شهر رمضان فمسك الجند على مسافة من مكة وعاد سلمان الى الخان خوفاً على سيده من غائلة ذلك الفتح وفيما هو سائر في الطريق رأى كوكبة من النرسان يتقدمهم ابو سفيان عائداً من سفرته وهو يدعو الناس الى الاسلام بالتخدير والتهديد مع النصيحة فلم يسمع الا ازدراء واحتقاراً وسمع رجاله ينادون « من يدخل منزل ابي سفيان او منزل العباس بن عبد المطلب فهو آمن من سيوف المسلمين ومن يدخل المسجد او يدخل منزله ويغلق بابه فهو آمن » فاطمان بال سلمان

فسار وهو يزاحم الجماهير في الاسواق فرأى اسراباً من القرشيين يتأهبون للقائه المسلمين وفيهم الفارس والراجل فلم يكذبصل الخان حتى فرغ صبه فدخل فرأى حماداً قد ايس ثيابه استعداداً للخروج فقال له ما بالك يا سيدي .

قال استبطأتك ورأيت الناس في هرج فخرجت لارى ما يكون .

قال لا تعجل فقد علمت ما لم تعلم اجلس لافص الخبر عليك قال قل وما ذلك

قال قد بلغك خبر المخزاعيين وما كان من نكت عهد قريش وقد كنا نتوقع قدوم المسلمين بسبب ذلك لنخرج مكة فنحقق ظننا لان المسلمين جاؤوا وهم الآن في

ضواحي مكة واظنهم يهاجون غداً وقد علمت ان ابا سفيان سار الى المسلمين وسلم لهم وعاد يدعو الناس الى الاسلام بعد ان كان من الذّ أعدائهم كما تعلم وسكنت رجاله ينادون بالامان على كل من يدخل منزله او ينزل العباس عم صاحب هذه الرسالة او يدخل المسجد او يغلق بابه فممن اذا اغلقنا بابنا كما في بيا من والآ فلهذهين الى المسجد فانه خير ملجأ فما الرأي

قال حماد ارى ان نطلق بابنا ولكننا نكون مع ذلك في خطر اذ ربما يعتدي علينا احد سهواً فالمسير الى المسجد اولى فهل انت تعفني هجومهم على المدينة غداً قال لا ادري ولكنني ساخرج صاحاً وانك بالخبر اليقين

الفصل السابع والاربعون

فتح مكة *

وباتوا تلك الليلة واصبحوا في الغد فيكر سلمان الى اكمة الامس فاشرف على جيش المسلمين فسار اليه يستطلع الخبر فلم يكذب بلغة حتى رآه قد اصطف ومشى يتقدمه الفرسان واصحاب الرايات وفيهم قبائل اسلم وغفار واشجع وسليم وغيرهم فتأمل عددهم فاذا دوي يزيد على عشرة آلاف وشاهد في الوسط موكباً هائلاً في وسطه راحلة عليها رجل معجرب بشفة حمراء^(١) وعلى رأسه عمامة سوداء حرقانية واضعاً رأسه على راحله وشاهد على الرجل ورأوه رجلاً رديفاً فعجب لذلك واشتاق لمعرفة فراه فادماً من جهة الجيش فسأله عن هذا الموكب فقال انه موكب رسول الله وان الراكب هو الرسول نفسه قد جعل رأسه الشريف على راحله وأردف اسامة بن زيد خادماً^(٢) تواضعاً فعجب سلمان لذلك المشهد البهيج وقال في نفسه لا عجب اذا نصر من كانت هذه خلالة ثم سأل الرجل عن عزيمته على الفتح فقال له انهم سائرون الى مكة من اعلاها في تلك الساعة وان فرقة منهم سائرة بامارة خالد بن الوليد من اسفلها فمرول سلمان باسرع من لمح البصر فاعترضه جموع الفرشيين يتألمون للدفاع وفيهم الفرسان

ولكن النشل كان يتخلى على وجوههم وشاهد النساء ماشيات محلولات الشعور يستغنين الرجال بالامشيد وفي ايديهن الحمر بضرن بها وجوه الخيل تمربضاً وتوبخألم يزد من تلك المناظر الآرهبية وخوقاً ونحفق اذ ذاك ان المسلمين فانتحوها لا محالة فما زال سائراً حتى اتى الخان فقال هيا بنا سيدي الى المسجد فانه خير ملجاء لنا

فاقنلا الغرفة وهرولا حتى دخلا المسجد وجلسا في بعض جوانب فرأوا الناس هناك زرافات ووحداً وقد استولى عليهم الخوف

وبعد ساعات قليلة ضج الناس في المسجد وهم يقولون « الحمد اقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم » فتحقق سلمان ان الفتح قد تم المسلمين فوقف ومعه حماد في موقف يرى النبي وهو داخل المسجد فما لبث ان سمع الناس يكررون ورأى النبي داخلاً على قدميه ووراءه رجل من اصحابه آخذ بزمام ناقته فطاف حول الكعبة سعيًا وفي كل مرة كان يأخذ الحجر الاسود بمخبطه والمسلمون يصيحون بالتكبير حتى زاد صياحهم فاشار اليهم ان اسكتوا (١)

وكان في المسجد ثلاثمائة وستون صنماً لكل حي من احياء العرب صنم قد شدوا اقدامها بالرصاص فجاء النبي وفي يده قضيب فجعل يهوي على كل صنم منها فيهوي على وجهه او قنائه وهو يقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً (٢)

وكان سلمان وحماد ينظران الى ذلك ويعجبان ثم رأياه جاء الى صنم كبير الى جانب الكعبة كان قد عرفا انه هل الاكبر فكسره وكان في الكعبة صور شتى للانبياء وفيها صورة ابراهيم واسماعيل وعيسى ومريم عليهم السلام فامرهم فامسكوا فمسحت كلها (٣) ولما تكسرت الاصنام وامحيت الصور جالس النبي في ناحية المسجد وعلى رأسه شيخ وقور علم بعد ذلك انه ابو بكر الصديق ثم امر ففتحت الكعبة فدخلها والناس ينظرون فصلّى فيها ركعتين

ثم وقف على باب الكعبة والناس وقوف صامتون كأن على رؤوسهم الطير فقال « لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده » ثم خطب خطبة طويلة ذكر فيها كثيراً من الاحكام منها « لا يقتل مسلم بكافراً ولا يتوارث اهل ملتين مختلفتين ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها والدينة

على المدعي واليمين على من انكر ولا يسافر المرأة ثلاثة ايام الا مع ذي حرم ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح ولا بصام يوم الاصحى ويوم الفطر « ثم قال « يا معشر قريش ان الله اذهب عنكم نخوة الجاهلية ونعظها بالآباء والناس من ادم من تراب » ثم قال « ماذا تقولون وماذا تظنون اني فاعل فيكم » قالوا « خير أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت » فقال « افول قال كما اخي يوسف لا تريب عليكم اليوم بغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين اذهبا فانتم الطلقاء. » ^(١) وقال اقوالاً اخرى ادهشت حماداً وسلمان لما حوثة من الحكمة والموعظة فظار سلمان الى حماد وقال والله اني لأعجب لانا ناس قاروناً هذا اليه وهذه تعاليمه واقواله ولا ريب عندي ان سلطانه سينبع حتى يعطي الارض ويحود دواتي الروم والفرس

ثم الفت حماد فرأى الفرشين يعتفون الاسلام وهم بصلون ويهتئ بعضهم بعضاً وقد هدأت الاحوال وآب الناس الى السكنى وانطلقوا الى منازلهم واشغالهم فخرج سلمان وحماد الى الخان

فلما استنبت بها المجلس هناك ما الفت حماد الى سلمان فقال له لقد شغلنا بهذه الاحوال عما جئنا من اجله ولقد نظرت الى الكفة فظلم عليّ امر القرطين ولم افهم اين موضعها ولا كيف استطيع الوصول اليها وخصوصاً بعد هذه الحروب ودخول مكة في حوزة المسلمين

فقال سلمان الم اقل لك يا سيدي ان عمك سامعه الله قد اقترح عليك امراً مسخياً ولكننا سنقابل الشيخ الخزاعي ونرى رأيه في الامر وليس بعد الجهد حياة

فقال حماد وقد فاتنا استطلاع امر والدي من ابي سفيان

فتنهّد سلمان ولم يجب

فجيب حماد لسكوته فقال له ما بالك لا تجيب

فقال بماذا اجيبك وليس في الجواب فائدة

فقال عليك سألت عنه ولم تظنرو

قال نعم يا مولاي ان سيدي ليس مع ابي سفيان فقد علمت انهم فارقوه عند

عمان ولم يروه من ذلك الحين

فانقبضت نفس حماد اذ ذلك الخبر وبيت مئة لا يتكلم ثم قال والدموع تنكاد
تتفرق في عينيه ارى يا سلمان ان الله قد اعد لنا ايام نعاسة ولا تنضي والظاهران
نجم سعدي قد اقل يوم خروجا من اللقاء قال ذلك ونساقطت الدموع من عينيه
على الرغم منه .

فجناد سلمان وقال له تشجع يا سيدي ولا تنهأس فان الله لا يتركك ولا يهلك
وانت ايها نسعى في ما يأول الى رفع منزلتك رغبة في ارضاء فتاة انت نجيبها
وفي تحبك .

فلما سمع كلمات سلمان تذكر هنداً وحبيها وما آتته من صف الامل في الحصول
عليها فلم يتمالك عن البكاء وسلمان ساكت لا يرى ما يعزبه . فقال له ان البكاء
شأن النساء يا سيدي وعهدي بك — حازم باسل لا تجزعك حوادث الايام فاصبر
ان الله مع الصابرين

قال اما اعلم يا سلمان ان البكاء عار على الرجال ولكن الحب آه من
الحب آه من ثعلبة آه من جبلة . وسكت

فاخذ سلمان بخفف عنه ويؤمله بما سيسمعونه من الشيخ الخزازي فسكت

الفصل الثامن والأربعون

* اليأس *

وفي صباح اليوم التالي خرج سلمان الى مر الظهران يطلب ذلك الخزازي فعلم
انه نومه من مرضه والنفس مقابلته فادخلوه عليه فاذا هو شيخ هرم قد احناه الكبر حتى
ايض شعر لحينه واسترسل على صدره وتجمد وجهه وغارت عيانه وغطاهما شعر الحاجبين
فحياء سلمان فردّ التحية وأشار اليه ان يجلس الى جانبه ففعل . . .

فبدأ سلمان بالسؤال عن صحته ثم استطرده الى آخر الفم ثم عرفه بنفسه وما جاء
من اجله فرحب به

فقال سلمان قد جئناك يا سيدي نستطلع امرنا كثيرا ولا نرى احداً سواك
يستطلع مساعدتنا فهو

فقال مرحباً بك قل ما بدالك
 قال رجوان يكون كلامنا سرّاً لا يعرف به احد سوانا
 قال قل لقد وقعت على خزانة اسرار
 قال نحن نعلم ان احدى ملكات غسان واسمها مارية اهدت الكعبة قرطين ثمينين
 منذ نحو قرنين فهل تعرف شيئاً من ذلك
 ففكر الشيخ قليلاً ثم قال نعم يا ولدي اني اعلم ذلك

قال سلمان فهل تعلم مكان هذين القرطين الآن قال ان حكاية هذين القرطين
 اصبحت في خبر كان لان الكعبة قد هُدمت وبُنيت مراراً بعد اهداء زينك القرطين
 وآخر من هدمت فيها كانت منذ نحو اربعين سنة وبنها عبد المطلب جد نبينا صلى
 الله عليه وسلم الذي شاهدهم فتح مكة امس وهو الذي تولى رفع الحجر الاسود حينئذ
 ووضعه في مكانه قبل ظهور دعوتيه بضع سنين فقد كانت القبائل مختلفة على من
 يحمل ذلك الحجر الشريف وبضعة في مكانه وحاولت كل قبيلة اكتساب ذلك الشرف
 لما تحكّموا هذا النبي في ما بينهم وهم لا يعلمون شيئاً من كرامته فاشار بوضع الحجر في
 ملاء واسعة واوعز الى كل قبيلة ان تحمل بطرف من اطرافها وبذلك انقسم الخلاف
 والخلاصة ان القرطين لا يعلم احد بمكانها الآن والارجح انها بيها الى احد المتجولين
 والبحث عنها بعد من قبيل العبث

فتكدر سلمان اذلك الامر والنفث الى الشيخ قائلاً فهل نظن البحث عن
 القرطين عبثاً

قال هذا ما اراه على ان دخول الكعبة لمثل هذا الغرض امر مستحيل اليوم بعد
 دخولها في حوزة الاسلام

فانقبضت نفس سلمان ولم يعد يستطيع البقاء هناك فنهض فودّع الشيخ وخرج
 الى حماد وكان ينتظر عودته بفارغ الصبر فلما رآه استطلعه الخبر فاطلعه على حديث
 الشيخ وهو يكاد يبكي لشدة الاسف ولكنه اقترح حديثه بعبارات التعزية واملة بوسيلة
 بقدها للتعويض عن هذين القرطين امام هند على ان ذلك لم يكن ليخفف شيئاً
 من قلق حماد

* مؤلفات جرجي زيدان منشىء مجلة الهلال بمصر *

(١) « تاريخ مصر الحديث » من الفتح الاسلامي الى هذه الأيام مع ملخص تاريخها القديم وهو جزآن كبيران فيه مائة رسم واربعة خارطات ثمئة ٤٠ غرشة صاغها واجرة البوسطة ٥ غروش
(٢) « تاريخ الماسونية العام » منذ نشأتها الى هذه الأيام ثمئة ٢٠ غرشة واجرة البوسطة غرشان
(٣) « التاريخ العام » الجزء الاول يتضمن تاريخ ممالك اسيا وافريقيا وخصوصاً مصر ثمئة ٨ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش واحد

(٤) « الفلسفة اللغوية » فيها بحث تحليلي للالفاظ العربية ثمئة ١٠ غروش واجرة البوسطة غرش واحد
(٥) « جغرافية مصر » (طبعة ثانية) تتضمن حفرافية المديرية والمحافظات وخصوصاً القاهرة ثمئة ٣ غروش ومع الخارطة ٥

(٦) « اسير المتمهدين » رواية تاريخية غرامية تتضمن حوادث عراقي والمهدي وحادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق . ثمئة ١٠ غروش صاغ واجرة البريد غرشان

(٧) « المملوك الشارد » (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في زمن المغرور له محمد علي باشا والادير بشير الشهابي ثمئة ٨ غروش واجرة البوسطة غرش ونصف
(٨) « استداده الممالك » (طبعة ادية) رواية تاريخية تتضمن حوادث آخر القرن الماضي ثمئة ٨ غروش واجرة البوسطة عرش واحد

(٩) « ارمياوسه المصرية » (طبعة ثانية) رواية تاريخية غرامية تشرح حال مصر لما فيها المسلمون سنة ١٨ للهجرة مع عوائد اهلها وادخالهم وازيتهم . ثمئة عشرة غروش واجرة البوسطة غرشان
(١٠) « فتاة عسان » تشرح حال العرب في آخر جاهليتهم واول اسلاميتهم مع ذكر عوائدهم واخلاقهم الى فتوح الشام المرة الاول . ثمئة عشرة غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(١١) « حماد المحبين » رواية ادبية غرامية ثمئة ٦ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش ونصف

(١٢) « رد ريان » رد على انتقاد تاريخ مصر الحديث ثمئة غرش واحد

(١٣) « مجلدات الهلال الاول والثاني والثالث والرابع والخامس وما بعده » مجلدة تجليداً

حسناً وموسومة عام الذهب ثمن الواحد منها ٥٦ غرشة واجرة البوسطة ٥ غروش صاغ

(١٤) « ملخص تاريخ اليونان والرومان مزين بالرسوم ثمئة ٣ غروش والبوسطة عشرون ارة

(روايات الهلال ومطبوعات مطبعة الهلال منها)

(١) اكتماء القنوع بما هو مطبوع من الكتب العربية من اول عهد الطاعة الى الآن تأليف

المستر ادوارد فاندك عدد صفحاته سبعمائة صفحة وثمئة خمسون غرشة واجرة البوسطة خمسة غروش

(٢) « استراتونكي » (تأليف صموئيل افندي بي) وهي الرواية الاولى من روايات الهلال

غرامية تاريخية حصلت حوادثها في زمن خلفاء الاسكندر المقدوني ثمئة خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

(٣) (اصوص فيديسيا) هي الرواية الثانية من روايات الهلال تعريب ادارة الهلال . حزنان

ثمن الحزنة الواحد خمسة غروش واجرة البوسطة عرش

(٤) الامام في من نارض لحشة من ملوك الاسلام للمهرري ثمن النسخة اربعة غروش واجرة

البوسطة نصف غرش

(٥) « انتصار المحبين » وهي رواية غرامية ادبية تأليف يوسف افندي زيدان ثمن النسخة

خمس غروش واجرة البوسطة غرش

تطلب هذه الكتب من ادارة الهلال في القاهرة ومن وكلاء الهلال في الجهات ومن ارسل

فيحتها مع اجرة البريد ولو طواع بوسطة ترسل اليه حالا

فدوى من رواية اسير التمهدي



أسير التمهدي

تأليف جرجي زيدان منشىء الهلال

هي رواية تاريخية غرامية تتضمن الحوادث المصرية الاخيرة التي وقعت لعراقي والمتهمدي السوداني بالتفصيل والايضاح حتى يخال المطالع نفسه بين الجند في ساحة الحرب او في غرف الامراء في ام درمان يشلف المهدي او خلفاءه ويشمر لشدته تاثره انه في سراي الخرطوم محاصراً مع غوردون باشا وقد ذاق ما ذاقه اهل الخرطوم من الجوع والظنك وكأنه شاهد فتوح تلك المدينة ونقتل غوردون وغيره من اهلها فان المؤلف شاهد أكثر الوقائع السودانية شهادة عين وحضر حرزها وشاهد بلادها واهلها اما الحوادث العربية فنكتشف لديه حقيقتها وما حصل من وقائعها سرّاً او جهراً كل ذلك وهو لا يشعر الا انه بطالع قصة غرامية تجيب اليه المطالعة لا يهدا له بال الا بالاثبات على اخرها

وثن النسخة عشرة غروش صاغ واجرة البوسطة غرشان وتطلب من ادارة الهلال او مكتبة النجالة بصر

